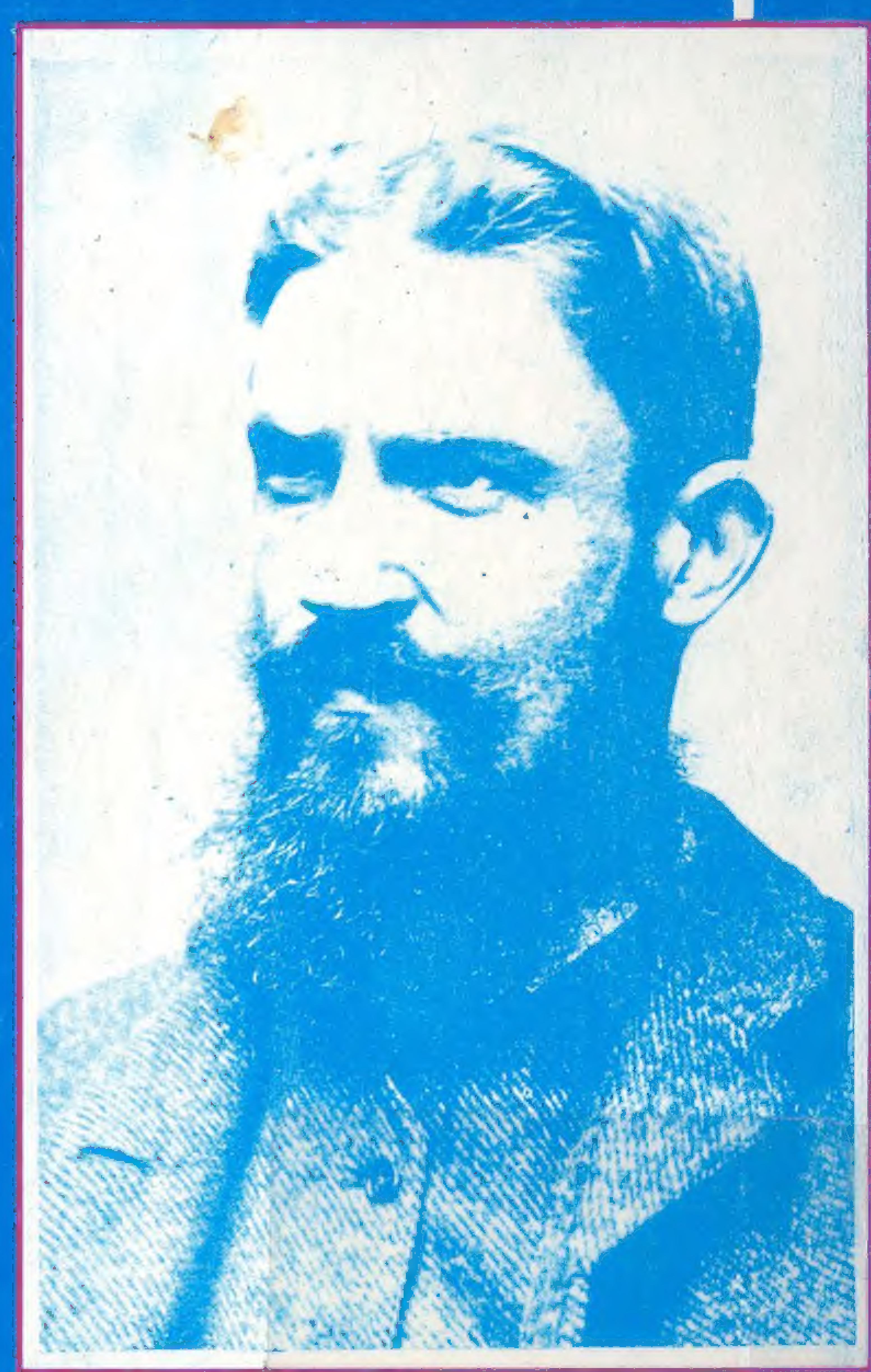
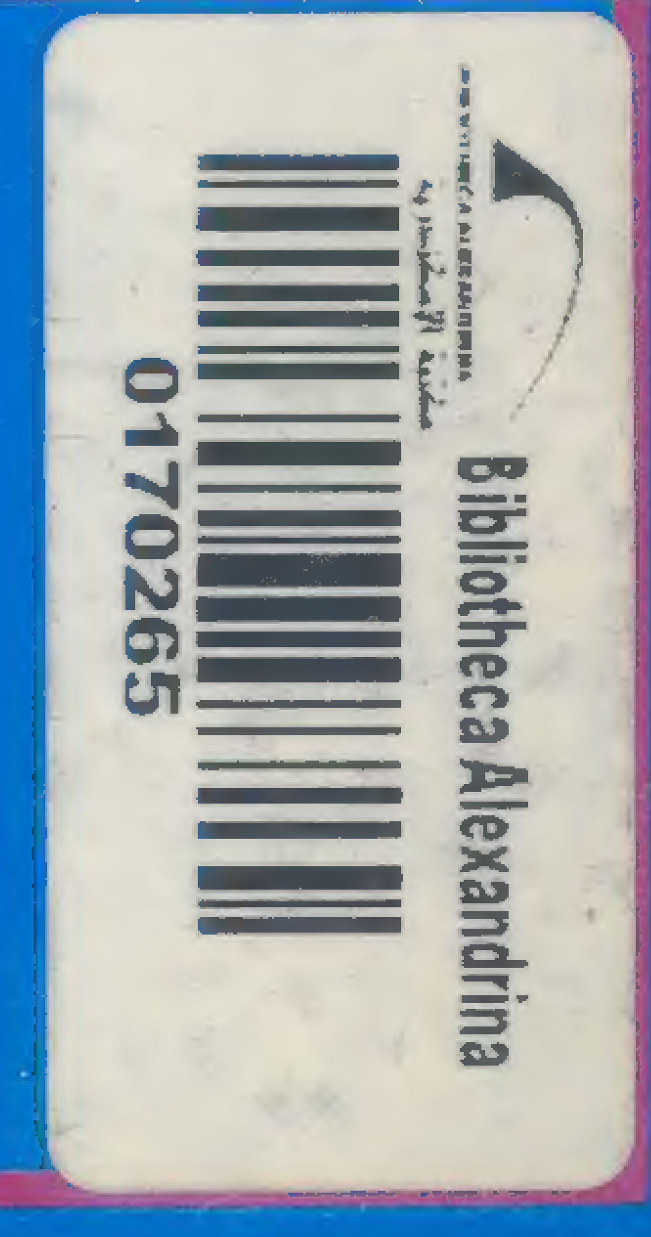
چورچ برنارد شو

حياته بقلمه



ترجمة :

الدكتور وجدي الفيشاوي





١٢ ش د/ عز الدين طه المنطقة الأولي مدينة نصر - القاهرة - ت ٢٦٢٩٨٥٤

چورچ برنارد شو

حياته بقلمه

ترجمة الدكتور وجدي الفيشاوي

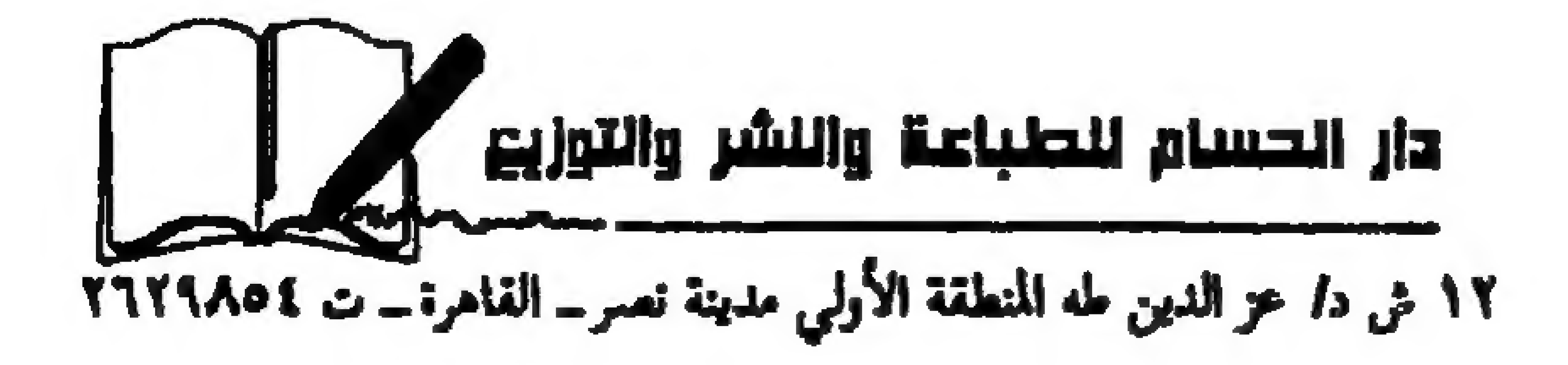
چورچ برنارد شو

حياته بقلمه

ترجمة

الدكتور وجدي الفيشاوي

١٩٩٦



دار الحسام للطباعة والنشر والتوزيع

١٢ ش د/ عز الدين طه المنطقة الأولي مدينة نصر - القاهرة - ت ٢٦٢٩٨٥٤

[١]

أول من ترجم لحياتي

كان ابى جورج كارشو George carr Shaw أول من ترجم لحياتى فى صورة خطابات كان يرسلها الى امي . كان يكتب من مكتبه الكائن فى ٧٦ شارع جرفيس Jervis بمدينة دبلن حيث توجد مؤسسة كليبورن وشو لتجارة الحبوب. لم تكن الشركة ناجحة فقد كان كليبورن Clibborn خبيرا فى تجارة المنسوجات ولم يحذق أبى مهنة التجارة لأنه كان موظفا حكوميا سابقا فى أحد أقسام قصر العدالة، وقد ألغى القسم الذى كان يعمل فيه وأحيل موظفوه الى المعاش وانضم أبي، برأس المال الذى استبدل به معاشه الى كليبورن فى العمل الذى لم يكن لكليهما دراية به. ومع ذلك بدت لهما المؤسسة مشروعا مثمراً ناجحا بمكاتبها ومخزنها فى شارع جرفيس والطاحونة فى رتلاند أفنيو Rutland Avenue، وهى ضاحية جميلة لاتبعد كثيرا عن ضاحية دولفن بارن Dolphin Barn. وتزوج أبى فى كهولته معتمدا على الآمال التى عقدها على نجاح المشروع وأثمر هذا الزواج ثلاثة أطفال: أكبرهم لوسنيدا فرانسيس Lucinda Francis (لوسي)، ثم الينور آجنز Elinor Agnes (أجي)، وأخيرا طفل أطلق عليه اسم جورج برنارد (سوني) وباختصار لم يكن ذلك الطفل سواي.

وفى يوليو عام ١٨٥٧ . ولم أكن بعد قد تخطيت العام الأول من حياتى – غادرت أمى منزلنا القائم بشارع سينج لزيارة أبيها ولتر باجينال چيرلى Walter Bagenal Gurly، وهو سيد ريفى من عائلة كارلو يقيم فى أوترارد بمقاطعة جالواي، بالرغم من أنه فى تلك الآونة كان يعيش فى كينلو بمقاطعة ليترم. وهكذا ذهبت أمى الى كينلو مصطحبة معها لوسى وتركتنى وأختى آجى فى رعاية أبينا.

وتبدأ ترجمة حياتى بالخطابات المتبادلة بينهما . ومن الصعب أن أحقق الترجمة أو أن أؤكد صحة ماجاء بها إذ أننى لا أكاد أذكر متى بدأت تعلم المشى أو متى أطلقو على اسم بوب Bob . وعلى أية حال فهذا هو نص خطابات أبي .

١٧ يوليو ١٨٥٧

أصيب الصغير بالم فى معدته فى الواحدة بعد منتصف الليل لكنه استرد نشاطه فى الصباح وهو الآن على مايرام، وقد عزت المربية المرض الى ماكان قد أكل من حبات الزبيب .

٧/٢٠

أصبح الصغير عنيفا بدرجة ملحوظة . تركته هذا الصباح وهو يصيح وينفخ كالثور وأكبر ظنى أنه سيسرع الى عرض الطريق لاستقبالك عندما تعودين .

٧/٢٢

تحاول المربية بحماس أن تدرب الصغير على المشى ليصبح قادرا على استقبالكم عند عودتكم وأعتقد أنها تفعل ذلك أيضا لتقى نفسها مشقة حمله وفى هذا راحة أكثر لها . ولقد قام بوب صباح اليوم بمحاولة جريئة للمشي . وكان المفروض أن يذهب الجميع الى منزل عمتك (العمة الن ويتكرفت) Ellen Whitcroft .

٧/٢٤

مزق بوب قبعته بالأمس وتقول المربية أنه من الضرورى أن تبتاع له قبعة جديدة ولقد طلبت منها أن تقوم بشراء القبعة على أن أدفع لها الثمن، ولذا أعتقد أننى سوف أدفع الكثير ... تقول المربية أن بوب مشى بطريقة رائعة أمام

عمتك .

٧ / ٢٧

تناولت المربية وسارة Sarah (الخادمة) والصغيران وجبة طيبة فى الحديقة بعد رجوعهما من الكنيسة . ابتاعت المربية قبعة لبوب وكانت سعيدة جدا، واضطررت الى أن أعطيها عشر شلنات، هو مبلغ كبير لكننى لن أقول شيئا فاليوم عيد ميلاده . . . بالأمس وقع بوب وآجى على رأسيهما من فوق السرير، ولم يصب أى منهما رغم أن ذلك كان محتملا .

٧ / ٢٨

أسعدنى بوبزا Bobza بصحبته، ولقد قمنا معا بمباريات فى المشى لم تتعد انتصاراته فيها أكثر من ياردتين يقطعهما مترنحا ذهابا وايابا بينى وبين المربية أو بينها وبين كارولين برابا زون Coroline Brabazon (الأم الروحية لجورج برناردشو) التى تحضر كثيرا هذه الأيام . إن قبعة بوب رائعة ولكنى أعتقد أن المربية عند عودتك ستلح فى طلب بعض النقود لشراء ريش لتجميلها .

(بدون تاريخ) صباح الأحد . الحادية عشرة والنصف كالمعتاد .

قضى بوب هذا الصباح بعضا من الوقت فى فراشي، كما تناول معى طعام الفطور ... لقد انكفأ على وجهه منذ لحظة وتعالى صراخه لكنه يضحك الآن .

٧ / ٣٠

خرجت للنزهة صباح أمس مصطحبا الصغيرين فى عربة الأطفال، كان فى ذلك متعة لى ولهما .يكثر بوب من التذمر والعناد لكن عليه أن يحترس وإلا ذريته بالمذراة وقد اقترب موسم درس القمح .

٨ / ٣

تصيبنى خيبة أمل كل صباح لا أجد فيه خطابا منك فى يد بوب وهو يندفع الى بخطاه المتعثرة، ثم يتعارك معى وأنا أحاول فى يأس أن انتزع منه الخطاب. لقد مزق الشقى الجريدة هذا الصباح. بالأمس خرجت المربية مع الطفلين كى تقضى النهار فى كنجستون Kingstown، لكنها قابلت مس مالون Malone فى محل بشارع كنج مما وضع (للأسف) نهاية للرحلة التى رئى تأجيلها حتى يوم الاثنين القادم.

٨ / ٦

قضيت نصف ساعة ظهر اليوم فى مداعبة آجى وبوب. جاءت سيسيليا Cecilia (عمة ج.ب.شو) لرؤية الطفلين.

٨ / ٧

قالت لى المربية صباح اليوم أن بوب يكاد يحطم أعصابها وهو فى الواقع ولد متعب ويحتاج الى أكثر من فرد للعناية به.

٨ / ٨

وزعت قبلاتك على يوب وبوب لكنى خالفت تعليماتك: لقد اختلست لنفسى بعض القبلات، وأنت تعلمين كم هو حلو أن يختلس الإنسان قبلة.

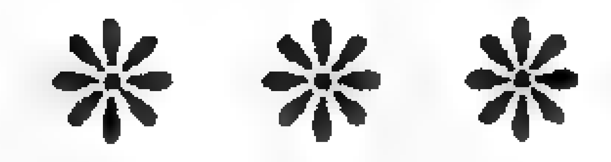
٨ / ١١

نجا بوب بمعجزة صباح الثلاثاء. كان جالسا فوق مائدة المطبخ فى رعاية المربية التى ما كادت - كما تقول - تنحنى لتلتقط شيئا من الأرض حتى وقع بوب على ظهره وارتطم رأسه باللوح الزجاجى وقائم الحديد الخارجي، وأقول

أن عدم إصابته بخدش يعتبر ضربا من ضروب المعجزات ولو وقع بوجهه على لوح الزجاج لكانت كارثة. فى ذلك الوقت كنت فى غرفتى أتهيأ للخروج، وعندما سمعت الصوت هرعت كى أجد المربية متسمرة فى مكانها وقد شلها الخوف لدرجة أنها لم تقو على رفع المسكين. لا أعرف كيف نجا الشقى من هذا الحادث الذى لايبدو أنه آلمه على وجه الاطلاق.

١٥ / ٨

بدأت أسنان بوب تسبب له شيئاً من الألم ولذلك فهو شديد الاضطراب ليلاً ونهاراً.



[٢]

المبررات التى دفعتنى لكتابة هذه السيرة

يسألنى الناس لماذا أحجم عن كتابة سيرتى الذاتية. وأجيب على ذلك بقولى إن تاريخ حياتى يخلو من أى عنصر من عناصر التشويق، فأنا لم أرتكب جريمة قتل فى يوم ما، ولم يحدث لى ماهو غريب غير مألوف. لقد أدهشنى أحد العرافين، وهو يفحص يدى لأول مرة عندما أخبرنى بتاريخ حياتي، أو بأكثره قدر ما سمح له الوقت بذلك، وكان من الواضح أنه عرف أشياء لم أكن أخبرت بها أحد على وجه الاطلاق. وبعد عدة أيام ذكرت فى حديث لى مع أحد الأصدقاء (وليم أرشر) Nilliam Archer أننى اتخذت قراءة الكف هواية لي، وفى الحال مد يده متحديا أن أخبره بشئ عن حياته لم أعرفه منه. وقلت له عن نفسه وبالحرف الواحد كل ما قاله لى العراف عن نفسي.

وأصابته الدهشة تماما كما أصابتنى من قبل، إذ كان كل منا يعتقد أن تجاربه فريدة فى نوعها فى حين تشابهت تجاربنا بنسبة تسع وتسعين وتسع من عشرة فى المائة وعن هذا الواحد من عشرة فى المائة لم يذكر العراف شيئا. وبدا الأمر كما لو كنا فردين آمن كل منهما بتميز هيكله العظمي. وقد يكونان محقين فى حدود عظمة أو عظمتين، ذلك لأنه من النادر أن يوجد هيكلان متشابهان تمام التشابه. وعلى ذلك فمن حق الفرد أن يعرض عظمته أو عظمتيه الفريدتين كشئ نادر، أما ما تبقى من هيكله فعليه أن يطرحه كشئ غير ذى بال، عليه أن يحتفظ به لنفسه ولايعرضه على الآخرين حتى لايثير به فى نفوسهم مللا قد لايطاق.

من هنا تبرز مشكلتى ككاتب سيرة ذاتية. كيف لى أن أتخير وأصف

تلك الخمس من عشرة فى المائة التى تميزنى عن أناس أكثر أو أقل منى حظا؟ أى فائدة ترجى من وصف تفصيلى يكتب عن ميلاد الشهير سميث فى المنزل رقم ٦ بشارع هاي، فى حين أن المغمورين من أمثال براون Brown وجونز Jones وروبنسون Robinson الذين ولدوا بالمنازل رقم ٧، ٨، ٩ قد مروا بنفس مراحل النمو والتغذية والافراز والملبس والسكون والحركة؟ وكى يكون هناك مبرر لكتابة تاريخ حياة سميث، لابد أن يكون سميث هذا قد مر بأخطار جسيمة وواجه مواقف وأحداثا غير عادية.

والآن. أنا لست صاحب بطولات ولم تصادفنى أحداث بل على العكس أنا الذى صادفت الأحداث وكل أحداث حياتى تظهر فى كتبى ومسرحياتي. اقرأوها أو شاهدوها ومنها تعرفون قصتى بأكملها، ولايتبقى بعد ذلك سوى الافطار والغذاء والعشاء والنوم والاستيقاظ والاغتسال، فطريقة حياتى لاتختلف عن طريقة حياة أى إنسان عادي. لقد استطاع فولتير Vol-taire أن يقص فى صفحتين كل مايراد معرفته عن حياة موليير Moliére الخاصة، ولو كتبها فى مائة ألف صفحة ماتحملها أحد.

أضف الى ذلك تلك الصعوبة الناشئة عن اشتراك أكثر من شخص فى أية مغامرة عند حدوثها، وهذا معناه أن حقك فى أن تحكى قصتك لايعطيك الحق فى أن تحكى قصة الآخرين، فإذا ما انتهكت هذا الحق وكان هذا الشخص لايزال على قيد الحياة فمن المؤكد أنه سيعارضك باستياء، إذ يندر أن يتذكر شخصان نفس الواقعة وبنفس الطريقة، وقلة قليلة جدا من الناس هى التى تستطيع أن تعرف واقع ما حدث لها وأن تصفه بطريقة فنية. وإذا أريد لأى سيرة ذاتية أن تقرأ فلابد وأن تبرز فى صورة فنية.

إن معظم السير الذاتية إعترافات، لكن إذا كان الإنسان كاتبا متعمقا فى فنه فإن كل أعماله تصبح إعترافات. لقد كان جيته Goethe واحدا من أعظم عظماء الرجال الذين حاولوا كتابة سيرهم الذاتية. ولقد كانت محاولاته للتهرب من موضوعه مثيرة للرثاء خصوصا بعد كتابة الجزء الخاص بطفولته وهو

الجزء الذى يمكن قراءته فى أى سيرة ذاتية مهما بلغت رداءتها، ولذا نراه يلجأ للكتابة عمن عرفهم أيام شبابه من أمثال توم وديك وهاري، وهم أشخاص لايستحقون الذكر مما يدعو الى الملل وعدم الرغبة فى الرجوع الى قراءته مرة أخري. إننى أحد القلائل الذين قرأوا اعترافات روسو Rousseau حتى نهايتها وأستطيع أن أجزم بأن حياة روسو منذ تلك اللحظة التى يتوقف فيها عن العربدة والمغامرة كى يصبح روسو العظيم قد تتشابه مع الحياة اليومية لأى شخص آخر.

إن ذكرى مدام دى واريتز التى اتصل بها روسو وهو فى السادسة عشرة من عمره تعيش حية فى مخيلتي، أما مدام دى أوديتو التى تعرف عليها روسو وهو فى الخامسة والأربعين فلم تترك فى نفسى أى أثر يذكر، كل ما أذكره هو الاسم فقط. إن هذه الاعترافات باختصار لاتزودنا بشئ ذى بال عن حياة روسو فى مرحلة النضج، بينما تحكى لنا أعماله كل ما نحن فى حاجة الى معرفته. ولو ازيح الستار عن حياة شكسبير اليومية وعرضت منذ ميلاده حتى مماته فى نفس الوقت الذى يسدل فيه الستار على هاملت Hamlet ومركيو شيو Mercutio لبدا ذلك كإحلال شخص عادى جدا محل شخص غاية فى الأهمية وفيما يختص بديكنز Dickens فإن ما يعرف عنه كثير، ولكن هذا الكثير محتمل الحدوث لأى شخص آخر. لقد أظهره كتاب السيرة فى صورة مطموسة لكل من لم يقرأ كتاباته، أما الذين قرأوا له فإن الصورة تبدو لهم مشوهة الى حد مؤلم.

وعلى ذلك فإن اللمحات التي أقدمها عن نفسى واملأ بها هذا الكتاب لايمكن أن تكون تصويرا ذاتياً دقيقاً ذلك أننى لا أعى ذاتى أو أحس بها تماما كما لا أحس بمذاق الماء لأنه دائما فى فمي. إنها فى غالبيتها تزودك بما أسئ فهمه أو بما لم يهتم به الآخرون. لقد أشرت على سبيل المثال الى أن الصبى الذى يلم بروائع الموسيقى الحديثة يكون فى الواقع أكثر ثقافة من صنوه الذى لايعرف سوى روائع الأدب الإغريقى أو اللاتينى القديم، كما صورت الجانب

التعس من مجتمعنا كما يتمثل فيمن أطلق عليهم إسم الصبية السادة من سلالة أبناء الطبقة الغنية الذين لم يؤل اليهم ميراث، هؤلاء الصبية الذين لم يستطيعوا الوصول الى مرحلة التعلم الجامعي بسبب ضيق مورد الآباء. وعلى ذلك فهم يشبون سادة حسب التقاليد دون أن يكون لديهم من العلم أو المال ما يؤهلهم لأن يكونوا كذلك، وما سيادتهم فى هذه الحالة الا سيادة الغطرسة والافلاس. ولقد رأيت أنه من المستحسن أن أحذر الصغار من الخطر الكامن فى التعمق أكثر من اللازم فى آفاق المعرفة ومن الانزلاق الخطر الى قاع الجهل، ونصحت بالتوسط فى الخير والشر مشيرا الى أن الطريق المأمون هو طريق المعرفة والعقيدة والعمل المتعارف عليه بين الناس.

لا أذكر هذه الأشياء بسبب اضطهاد عانيت منه أو اتهام وجه الي، ولكن أذكرها لأنها تهم الطبقة الدنيا التى انتمى اليها، فلربما ساعد التغيير الذكى والفهم الصادق لهذه الأمور على اذكاء وعى طبقى يقود الى مستقبل أفضل، وعلى ذلك فإن منهجى التعليمى الصرف يدفعنى الى انتهاك القوانين التى سننتها فى بداية الكتاب، إذ أننى لن أحكى عن نفسى الا القليل مما قد لايحدث لألف «شو» أو لمليون «سميث» وربما يستنبط علماء النفس من تلك المادة غير المشوقة بعض الدلائل التى فاتنى أدراكها.

ولكى أبعد الملل عن نفس القارئ سأروى عن أقاربى بعض الاقاصيص التى لابد أن تقرأ على أنها أدب قصصى عادى حيث أن عائلة «شو» الأيرلندية قد تكون أكثر امتاعا من عائلة «روبنسون» السويسرية، كما أنها قد لاتقل من ناحية الافادة والتنوير عن هؤلاء الذين يملكون مقدرة الافادة والتنوير.

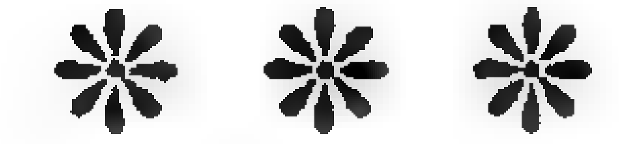
أما عن نفسى فإن أعمالى كلها معروضة فى المكتبات وعلى خشبة المسرح، لقد اعطيت ما أمكننى العطاء على امتداد حياة طويلة. قد لا أستطيع القول بأنه لم يمر فى حياتى يوم لم أسطر فيه سطرا، الا أننى حاولت رغم ذلك أن أقترب بها من نموذج الكمال عند الرومان قدر ما أمكننى الاقتراب فى

حدود قدرة وإمكانيات البشر.

آيوت سانت لورنس Ayot Saint Lawrence

١٥ يناير ١٩٣٩

روجع فى ١٩٤٧



[٣]

أمى وأقاربها

كانت أمى ابنة سيد ريفي. ولقد تولت عمة أمها تنشئتها وتربيتها على شمائل وفضائل سيدات ذلك العصر. وأذكر منذ طفولتى أن تلك العمة كانت عجوزا محدودبة الظهر، ولكنها كانت تتمتع بجمال فى قسمات وجهها. وبدا احد يدأب ظهرها طريفا ومناسبا للصورة التى تخيلتها عليها وهى صورة جنية خيره. ولو عرفت كم تأثرت بشخصيتها وسحرت بها لتركت لى كل ممتلكاتها. وأعتقد الآن أنهم قد أخذونى إليها على أمل أن أجذب انتباهها فتفعل ذلك، لكننى فشلت. ولقد حاولت عمتى أن تربى أمى بطريقة تؤهلها للحصول على زوج لائق، مما قد يمكنها من إزالة تلك الشائنة التى علقت بنسبها وسلالتها. فبالرغم من أن نسبها الى أبويها لم يكن مشكوكا فيه، الا أن شرعية مولد جدها كان يكتنفها الكثير من الغموض، ولقد استطاع هذا الجد تحت ستار اسم موظف يدعى « كالي » أن يكون ثروة عن طريق محل رهونات افتتحه فى حى من أفقر أحياء « دبلن » وفى تلك الأثناء تمكن من مصاهرة عائلة ذات حسب ونسب بعد أن حصل على أحد المقاعد فى مجلس مدينة دبلن وأصبح ينتمى الى طبقة السادة.

ومع ذلك فقد احتفظ بحانوت الرهونات كما احتفظ الحانوت به، وعليه فقد استقر رأى العمة « الن » على أن تجعل من أمى سيدة ذات شأن. وهكذا تميزت أمى بشجاعة وجلد لم يفارقاها حتى الممات وكانت المصائب والكوارث التى تكفى لسحق عشر نساء غير مدربات تتحطم وتتبدد وهى ترتطم بها كما تتحطم الأمواج وهى ترتطم بصخور الجرانيت. لكن طبيعة الأشياء التى حاولت العمة أن تغيرها استعادت وضعها ثم حطمت كل مشروعات العمة العجوز. عندما كبرت أمى تلقت دروسا فى الموسيقى على

يد الموسيقار جوهان برنار لوجير Johann Bernhard Logier وتعلمت من الفرنسية مايمكنها من أن تقص بعض حكايات لافونتين La Fontame بلهجة سليمة. ولقد كان اعتزازها بنفسها كبيرا لدرجة أنه كان من الممكن أن تقوم بجمع النفايات من عرض الطريق دون أن تفقد إيمانها الكامل بأنها سيدة متميزة. لكنها كانت لاتستطيع أن تدير منزلا بدخل صغير، ولم يكن لديها أى فكرة عن قيمة المال. ولقد كرهت عمتها ونظرت الى كل ماتعلمته منها من دين ونظام على أنه عبودية وطغيان. وكان من نتيجة ذلك بالاضافة الى طبيعتها العطوف أن تركت أطفالها على سجيتهم فى حالة فوضى كاملة. ولقد تصادف أن كان أبى أيضا من النوع الذى لايؤمن مطلقا بالقسر. وهكذا كان كلا أبوى فى منتهى التساهل وعدم الاكتراث.

عندما بلغت أمى سن الزواج خرجت الى مجتمع دبلن علها تجد زوجا مناسبا وكان من بين التقت بهم جورج كارشو. رجل فى الاربعين من عمره احول العين لطيف المعشر تبهجه الانتقالة المفاجئة من النقيض الى النقيض سواء أكان ذلك فى الحدث أو الحديث، هذا بالاضافة الى ميله الى الفكاهة التى كان من الممكن أن تجعل منه مستمعا واعيا متفهما لأديب كتشارلز لامب Charles Lamb. كان أحد أفراد عائلة كبيرة تطلق على نفسها لقب «آل شو» وكثيرا ماكان يدعى الى بوشى بارك، مقر سير روبرت شو رغم ان القرابة بينهما لم تكن مباشرة. ولم يكن فى صحبة جورج كارشو لأمى مايضيرها اذ لم يطرأ على بال أحد أنه يملك من الجرأة أو المقدرة ما يمكنه من الإقدام على الزواج من أية امرأة، حتى ولو فرض جزافاً أن فى حوله وكبر سنه ما يستميل أنثى طيبة النشأة كالآنسة لوسيندا اليزابيث جيرلى Lucinda Elizabeth Gurly. وهذا ما دعا أقاربها التحدث عنه كشخص جدير بأن تتعرف عليه إجتماعيا على ألا تقيم معه علاقة خاصة. لكنهم نسوا أنها قد تقدم على الزواج من أى مغامر دون أن تدرى خطر ما هى مقدمة عليه ذلك لأنها لم تجرب الإفلاس ولم تعرف تماما ما يعنيه الزواج.

وحدثت مأساتها نتيجة ضغط خارجي ماكان لأحد أن يستطيع التنبؤ به فعلى حين غرة تزوج أبوها الأرمل للمرة الثانية لكنه تزوج هذه المرة من فتاة معدمة: ابنة صديق قديم كان قد ضمن ديونه التى تسببت فى كارثة فيما بعد. ولم يرض هذا الزواج عائلة زوجته الأولى وخصوصا أخو زوجته وهو أحد أعيان مقاطعة كيلكني، وكان أبو والدتى مدينا له ببعض المال ولهذا أخفى عنه نية زواجه للمرة الثانية.

ولسوء الحظ أحاطت أمى خالها بكل براءة بسر زواج أبى وكان من نتيجة ذلك أن قبض على جدى عندما خرج صباح اليوم المحدد للزواج كى يشترى زوجا من القفازات لهذه المناسبة.

ولايستطيع المرء أن يلومه على غضبه ولكن هذا الغضب الثائر تعدى حدود المعقول اذ اعتقد أن أمى قد خانته عن عمد كى توقف زواجه بالقبض عليه. وكان على أمى التى كانت فى زيارة بعض الأقارب فى دبلن أن تختار بين أمرين: اما أن تعود الى بيت زوجة أبيها وأبيها الثائرة عليها أو الى بيت عمتها التى قاست فيه الكثير من العبودية والاستبداد.

وفى هذا الوقت أوعز شيطان ما - ربما بعثته الأقدار كى أجئ أنا الى هذا العالم - الى أبى أن يتزوج الآنسة بيسى جيرلى Bessie Gurly التى تشبثت بهذا الأمل وكانت قد علمت أن له معاشا يبلغ الستين جنيها فى السنة وبدا لها هذا المبلغ كبيرا وأكثر من كاف، ذلك لأنها لم تكن تعرف شيئا عما تتكلفه ادارة بيت، ولم يكن يسمح لها بأكثر من مصروف الجيب. ومن ثم فقد أعلنت خطبتها بهدوء وعدم اكتراث.

وعندما استحال على أهلها أن يبصروها بخطورة الموقف المالى أو أن يقنعوها بالعدول عن الخطبة على هذا الأساس وجدوا أنه لابد من اقناعها بطريقة أخري. وبناء عليه فقد أخبروها بأن جورج كارشو إنسان سكير مدمن، لكنها رفضت باستياء أن تصدقهم مذكرة اياهم أنهم لم يعترضوا عليه بتاتا من قبل. وعندما صمموا على رأيهم ذهبت إليه مباشرة وسألته عن مدى

مايزعمون. وكان أن أكد لها بكل وقار أنه عن اقتناع لم يشرب الخمر طوال حياته. وصدقته ثم تزوجته. لكن الحقيقة هي ماقالوه عنه: كان مدمن خمر.

ودون أن أحاول الدفاع عن أبى لتورطه فى هذه الأكذوبة، يجب على أن أوضح أنه كان مقتنعا من ناحية المبدأ بضرورة الامتناع عن شرب الخمر. لكن هذا الاقتناع، الذى لم يستطع لتعاسته أن يضعه موضع التنفيذ، كان نتيجة الرعب الصادر عن تجربته الشخصية كإنسان أصابه داء الإدمان.

وأستطيع الآن فقط أن أتصور مقدار العذاب الذى عانته أمى وهى تحيا حياة ضنك فى كنف زوج سكير. لقد أخبرتنى أحد الأيام أنها فتحت دولاب عريسها أثناء قضائهما شهر العسل فى ليفربول فوجدته مليئا بزجاجات خمر فارغة. ومن هول الصدمة أسرعت الى الميناء فى طلب وظيفة كرئيسة للخدم على إحدى السفن حتى تستطيع مغادرة البلدة كلها. ولكن حدث أن تحرش بها فى غلظة مجموعة من عمال الميناء مما جعلها تسرع بالعودة الى المنزل.

لقد سجلت من قبل كيف اصطحبنى أبى ذات يوم للنزهة ثم حاول أن يلقى بى فى ماء القناة. ورغم أنه كان يتظاهر بمداعبتى الا أنه كاد أن يغرقنى بالفعل. وعندما عدت قلت لأمى وكأنى أكشف لها عن سر رهيب: «ماما، أعتقد أن أبى مخمور».

فأجابت: «ومتى لايكون كذلك؟».

لا أقوال أننى منذ تلك اللحظة قد فقدت إيمانى بكل الأشياء، فتلك مبالغة بلاغية. لكنى أقول أن ما اعترانى من تغير نفسى كان مفاجئا وعنيفا، فبعد أن كنت أومن بكل براءة الأطفال أن أبى مثل للمقدرة والكمال، إذ بى أكتشف أنه سكير منافق. ولقد ترك ذلك فى نفسى أثرا من الصعب أن يمحي.

وبعد زواج أمى قطعت عمتها فى قسوة كل صلة بها غير مكترثة بى كطفل لطيف جذاب. ولم يزد ما أعطته لأمى عن مجرد مجموعة من الكمبيالات التى وقعها جدى بعد أن اقترض من العمة بعض حاجته من المال.

وبلغت السذاجة بأمي أن أعطت الكمبيالات لأبيها وسألته عما يجب أن تفعله بها. وجاءها الجواب سريعا: لقد القى بها فى النار. وعلى أية حال لم يكن هذا الفعل بأمر ذى بال اذ لم يكن فى نيته دفع قيمتها. لكنه لم يقف عند هذا الحد بل حاول أن يستخدم سلطته فى تنفيذ وصية جدها (صاحب محل الرهونات) كى يحرمها من الميراث المقدر للاحفاد. ورغم أن محامى عائلة جيرلى استطاع أن يستخلص لها أربعين جنيها سنويا وذلك بمعارضته المطلقة لما كان ينتويه الأب من شر، الا أن هذا الحدث كان قد أوصل أمى الى حد الاقتناع بأن أباها رجل حقود وبلا ضمير فيما يختص بأمور المال.

وبعد ذلك يجئ دور أخيها: خالى وولتر Walter وهو إنسان عربيد أساء اليها ذات مرة بمنتهى القسوة والوحشية فى لحظة من لحظات الهياج والغضب. ولقد سار غير مبال على نهج أبيه فى مسائل المال والميراث. وهكذا لم تجد أمى فى كل من حولها الا خيبة الأمل والخيانة والتسلط.

ولم تتأثر بتاتا بكل ذلك بل ولم تشك قط. لم تحاول أن تثأر وتنتقم، ولم تفقد سيطرتها على نفسها أو شعورها بالاستعلاء فوق الضغينة والغضب. لكن هذا لايعنى أنها كانت ضعيفة خنوعة. فإذا كانت لم تنتقم بتاتا فهى لم تصفح أبدا. لم يكن فى حياتها منازعات وبالتالى لم تكن هناك مصالحات. اذا أخطأ أحد فى حقها وضعته فى مصاف الخطائين المسيئين وتحملته ما وسعها التحمل، فإذا ما أثارها أكثر من اللازم قاطعته نهائيا بحيث يصبح من المستحيل عليه أن يستعيد مكانته لديها. لقد قلت وأنا أسن مبادئ للثوار: «حذار ممن لايرد الاساءة». ولقد تعلمت من أمى أن الغضب السريع أقل تأثيرا وإيلاماً من الغضب الناتج عن التفكير والتروي.

لكنها رغم كل الظروف لم تكن تكره أطفالها. لم تكن تكره أحدا ولم تكن أيضا تحب أحدا. ولم تثر عاطفة الأمومة فيها الا عندما ماتت أختى الصغرى وهى فى العشرين من عمرها وحتى حينذاك لم يكن حزنها ملحوظا. ولم تكترث أمى بنا كثيرا اذ لم تكن تعرف أن الأمومة علم وأن طعام وشراب

الأطفال شيئان يستحقان الاهتمام. لقد تركت هذه المهمة لخادمات جاهلات لم تكن مرتباتهن لتزيد عن ثمانية جنيهات فى العام. ولم تدرك أمى قيمة ماتعلمته فى صغرها ولربما أعتبرته مجرد موهبة طبيعية، لكنها لم تنس قط كم كانت تلك الأيام قاسية. وكان علينا أن نرعى أنفسنا بأنفسنا دون مساعدة أو إرشاد. ولقد واجهنا مصاعب الحياة واصطدمنا بها مستخلصين منها كل ما يمكن استخلاصه من عبر وعظات ولم يكن ذلك بالهين اليسير. وعلى العموم لقد اعتبرت أمى هذا الأسلوب فى التربية أسهل وأرحم بكثير من الأسلوب الذى اتبعته عمتها: ولقد كان فى الواقع كذلك وان لم يكن الى الحد الذى تصورته أمي، اذ أن اطلاق سراح عجل صغير كي يرتع حيثما شاء محطما ماشاء ليس بالبديل الوحيد لربطه نخسه بمهاز. وباختصار ومن وجهة النظر العلمية للعاملين فى مجال الإصلاح الحديث، لم تكن أمى أما أو زوجة، بل كانت مخلوقاً بوهيمياً فوضويا رغم ما يبدو عليها من كياسة فى الطبع والسلوك.

كان أبى مفلسا وفاشلا ولم يكن باستطاعته أن يقوم بأى شئ يثير انتباه أمي، كما أنه لم يتمكن من الإقلاع عن عادته التعسة المزرية فى إدمان الخمر (أقلع فى نهاية الأمر) حتى أنه لم يعد هناك أمل فى تحسن العلاقة بينهما الى ماهو أفضل. ولولا شئ من الخيال، والمثالية وسحر الموسيقى وجمال البحر ومنظر الغروب بالاضافة الى ما كنا نتمتع به من طيبة ورقة. لولا كل هذا لأصبح من العسير أ ن تتصور مقدار ماكنا سننحدر اليه من همجية كافرة بكل ماهو طيب فى طبيعة البشر.

ولقد وجدت أمى فى الموسيقى طريق الخلاص. كان لها صوت من طبقة السبرانو المعتدل الارتفاع ذو نبرة صافية فى نقاء غير عادي. ولتحافظ على نقاء صوتها وصقله بدأت تدرس على يد الموسيقى «جورج جون فاندالبرلي» الذى ذاع صيته فى دبلن كقائد للأوركسترا ومنظم لحفلات الكونشرتو وأستاذ غناء يتميز بالاصالة المبدعة. لقد اعتمد فى حفلاته على الهواة الذين دربهم بنفسه

مما أثار عليه حفيظة منافسيه الذين هاجمهم بدوره موجها اليهم تهمة خنق الأصوات الجميلة، ولقد كان هذا فى الواقع هو مايفعلونه فى أغلب الحالات. ولقد امتد نقده حتى شمل الأطباء. ومما أثار دهشتنا أنه كان يتناول الخبز الأسمر بدلا من الخبز الأبيض وكان ينام ونافذة الحجرة مفتوحة. ولقد أخذت عنه هاتين العادتين وما زلت أمارسها حتى الآن. وكان من نتيجة انتشار نفوذه في بيتنا، وقد أصبح أخيرا فردا من افراده، أن تولد فى نفسى شك فى كل ماهو أكاديمى تقليدى ومازال هذا الشك يعتريني حتى الآن.

ويلاحظ الذين قرأوا مسرحيتي زواج غير موفق Misalliance والتى كان للمحب فيها ثلاثة آباء، انه كان لى أناأيضا أب طبيعى وآخران ثانويان ولقد كان ثلاثتهم مجالا لدراستي. وكان من شأن ذلك أن يوسع من أفق نظرتي للأشياء. وينبغى على الآباء أن يأخذوا فى اعتبارهم أنه كلما كثرت الشخصيات الثانوية البديلة فى حياة الأبناء سواء كان ذلك فى المدرسة أو فى أى مكان آخر كلما تفتحت مداركهم واتسعت آفاقهم وعليهم أن يدركوا أيضا أنه بالرغم من أن فساد الأبناء قد يرجع فى غالبية الأحيان الى فساد الآباء طبيعين كانوا أو ثانويين، الا أن الآباء الطبيعيين قد يكونون أكثرهم فسادا. وعشرة فى المائة منهم فاسدون بالفعل.

ثم يأتى دور خالى وولتر Walter الذى كان يعمل جراحا أثناء صباه على ظهر السفينة «اينمان» وكان يزورنا فى فترة ما بين الرحلات. لقد تعلم فى كلية كلكني :Kilkenny التى كانت تعتبر فى زمنه بمثابة «ايتون» أيرلنده. كان أصغر طلبة الكلية حجما وكان من السهل عليه أن يخرج متسللا من تحت البوابة الرئيسية وهذا ما دعى بعض زملائه من الطلبة الكبار الى تكليفه بالخروج ليلا كي يرتب لهم مواعيد لقاء مع بعض النساء الساقطات. وكانوا يكافئونه على ذلك باعطائه من الويسكى ما يكفيه لكى يفقد وعيه تماما. وبهذه المناسبة أقول أن خالى كان يدهش ويرتعد لمجرد التفكير فى العلاقات الجنسية الشاذة التى كانت تتم بين جدران المدارس الإنجليزية العامة وكان يرى أن وجود نساء على مقربة من المدارس أفضل بكثير من هذا الانحراف. وكان عليه ان

ينسحب من كلية «ترينتي» بدبلن حتى يتم شفاؤه مما ألم به نتيجة انغماسه في الدعارة. كان أبوه دائما في حالة ضيق مادي يسبب ضمانه لديون أصدقائه ورهنه لبعض ممتلكاته، لذا كان على خالي ألا يأمل كثيرا في مساعدة أبيه. ومن ثم فقد أهل نفسه للعمل كجراح وبعدها استطاع أن يحصل على عمل على ظهر السفينة «اينمان»

لقد استطاع أن يدرس وينجح بسهولة وكان من الواضح أنه طبيب مدرب وكفء.

كان خالي مرحا يحب الفكاهة اذ أنه مثل أمي - رغم ماينقصه من كبريائها واعتزازها بنفسها - كان يتمتع بحيوية وشباب لم يتأثر كثيرا بنزواته المنحرفه. كان فاحش الحديث غزير الدنس، ولم أكن له الكثير من الاحترام حتى وأنا صغير. ولقد أضاف الى الاناشيد التي تعلمتها من أمي بعض الخماسيات الفكاهية البذيئة. كانت روحه المعنوية مرتفعة دائما ورغم أن مرحه كان شرسا معيبا لدرجة الانحلال، الا أن أسلوبه كان يقترب في جزالته من أسلوب الكتاب المقدس وفي خصوبته من أسلوب شكسبير. ولتشبعه بأسلوب الانجيل كان كثيرا مايستخدم أقوال المسيح في أحاديثه بطريقة هزلية مضحكة. وكان ينظر الى روايات انتوني ترولوب Anthony Trollope على أنها الوحيدة التي تستحق القراءة (وكانت روايات ترولوب في تلك الأيام تعتبر جريئة في تعرضها للكنيسة). كما أن الأوبرا المفضلة لديه كانت أوبرا فرا ديافلوا لأوبر Auber. وكان من الممكن لو نميت مواهبه فنياً في طفولته أن يصبح رجلا متسما بالكثير من سمو الاحاسيس، ولربما استطاع أن يفعل شيئا في مجال الآداب. وبما أن هذا لم يحدث فقد غدا ساخرا متحرزا، حيث أنه لم يجد ولم يوجه الى ماهو أفضل مما جبل عليه. ورغم افراطه في الملذات التي كان ينغمس فيها من حين الى حين كلما رست السفينة على شاطئ، كان خالي رجلا صحيح الجسم سليم البنية. واستمر على تلك الحال حتى تزوج في أمريكا من أرملة انجليزية ثم استمر كطبيب ممارس في ليتون بمقاطعة اسكس

والتى أصبحت فيما بعد أحد الاحياء المطلة على غابة ابنج .Epping ولقد حاولت زوجته أن تجعله يغير من سلوكه بحيث يصبح متمشيا مع السلوك العام: أن يذهب الى الكنيسة، وأن يكف عن السخرية والحط من شأن الآخرين، أو على الأقل أن يحد من عبثه بكل ماهو مقدس. ولم يسفر احتجاجها عن نتيجة سوى أن جعله يمعن فى دنسه وتجديفه. ورغم ذلك فقد احتفظ بشخصيته فى مجتمع ليتون ذلك لأنه كان خفيف الظل ميسور الحال.

ولم يستمر الحال هكذا مدة طويلة، اذ سرعان ما امتدت لندن شرقا وابتلعت ليتون، وأزيلت منازل القرية التى كان يسكنها مرضاه وحلت محلها صفوف من المنازل المبنية بالطوب الاحمر يسكنها كتبة يرتدون قبعات عالية ويعيشون على دخل أسبوعى يبلغ الخمسة عشر شلنا. وحطم التغيير خالى فماتت زوجته فى يأس واشمئزاز تاركة كل أملاكها لأقارب زوجها السابق، وبيع حصان خالى ورهنت ساعته، وتدهور به الحال الى حد أن أصبحت ملابسه رثة مهلهلة. وعندما مات وخلف لى تركته وجدت أن أجر الخادم الوحيد الذى لازمه خلال كل ماحدث له لم يدفع.منذ سبعة عشر عاما، وكان أبوه قد رهن أملاكه كلها منذ زمن طويل. وماكنت الا نابذا هذا الميراث لو آل الى قبل ذلك بعدة سنين. لكننى كنت فى الواقع قادرا على أن أسدد كل الرهونات وأن أعيد بناء المنازل المهدمة وأن أعول الاقارب الفقراء وأن أسترد كل ماضاع من ممتلكات ثم أخضعها لنظام المجلس البلدى بعد أن حصلت من (برلمان) أير Eire على قرار يمكننى أنا وغيرى من أن نفعل ذلك.

غالبا ما يحدث رد فعل عند أبناء البوهيميين الفوضويين ضد تربيتهم لدرجة أن يصبحوا أشد تمسكا بالتقاليد. والسؤال الصعب الذى يواجه الآباء فى تربية أبنائهم هو: متى والى أى حد يمكن ترك الأطفال فى رفق وأمان كى يرعوا أنفسهم بأنفسهم، والى أى حد يمكن ارشادهم وتوجيه الأوامر اليهم. لقد قال الأمير بيتر كربتكن وهو مفكر فطن ذكي: « دع الأطفال وشأنهم. تفرج فقط» ولو أعطت أمى هذه المسألة أقل قدر من تفكيرها لقالت: « افعل

ماتشاء ودع الأطفال بدورهم يفعلون مايشاءون». لكن أمثال تلك القواعد الثابتة ليس لها وجود، فالخط الفاصل بين الوصاية والتفكير الحر يختلف من شخص لآخر، حتى فى نفس الأسرة قد لايستطيع طفل ان يفعل شيئا على الاطلاق دون توجيه حتى يبلغ سن الرشد وعندها لايفعل الا مايفعله الآخرون، وقد تصعب السيطرة على اخته أو أخيه الى الحد الذى قد يخلق من أيهما مجرما أو عبقريا حر الارادة والفكر.

ومن الصعب قياس الدرجات المختلفة بين هذين الحدين بصورة قاطعة، اذ أنه من المستحيل كبح جماح طفل الى الحد الذى تتلاشى فيه ارادته تلاشيا كليا: لايستطيع اى أب مهما كانت طاقته أن يفعل ذلك. الا أن ترك الحرية الكاملة للطفل فى كل مراحل عمره قد تدفعه الى ابتلاع كل أعواد الثقاب أو أشعال النار فى البيت وأهله، كما قد تدفعه الى رفض الدراسة وتحصيل العلم. وانه لمن الخير على أية حال أن يفوض أمر تعليم الطفل الى مدرسة رسمية. كما حدث فى حالة فولتير الذى فوض أمره الى الجوزويت. على أن يمنح من الحرية مايمكنه من التفاعل بمقدرته الذاتيه مع ماهو مطلوب منه. وهذا أفضل بكثير من المخاطرة بتركه كى يتعلم فى السادسة عشرة من عمره ماكان باستطاعته أن يتعلمه وبكل سهولة وهو فى السادسة.

وعلى أية حال يجب أن يحسب للمخاطرة حسابها. أنه لايمكن اعداد الطفل فى أوروبا لمرتبة أعلى من مرتبة البابوية. لكن ربما يوجه الى مربى الطفل سؤال: «أى نوع من أنواع البابوات؟ جريجورى العظيم أو الاسكندر بورجيا؟ بيوس التاسع أو ليو التاسع عشر؟». وربما يكون الهدف هو تنشئة مواطن مثقف عظيم. وحتى فى هذه الحالة يجب أن توضع المصادفات فى الحسبان فقد ينتج عن ذلك حالة شخص يتميز بما كان يتميز به سيدنى ويب Sidney Webb أو باكونين Bakunin من صفات. ولم يسأل أبواى ولا أساتذتى أنفسهم أمثال هذه الاسئلة، ولولا حظى النادر فى كسب المال كمؤلف مسرحى موهوب لانتهى بى الأمر الى أن أصبح مجرد لص أو متسول. لقد

علمت نفسى فيما بعد الكثير مما كان يجب على أن أتعلمه فى طفولتى كما نبذت الكثير أيضا مما تعلمته فى تلك الآونة. وعلى ذلك فلايسعنى الا أن أكرر القول بأنه من الصعب إيجاد حد فاصل بين الوصاية والتفكير الحر. وكقاعدة أرى أن المسألة تختلف من شخص لآخر.

ومع ذلك فإننى أرى أنه من الواجب أن يكون هناك قانون متبع فى المدارس بين أفراد العائلات الكبيرة، وهذا يعقد المشكلة ويجعل من الصعب على أن أجد لها حلا حاسما. وهذه المشكلة تثير حاليا أزمة فى المدارس أكثر مما تثيره بين الآباء فى المنازل. وأمامى وأنا أكتب الآن خطاب من فتاة صغيرة متفوقة تدرس بإحدى مدارس الراهبات بأيرلندة، وهى تعطينى بكل فخر قائمة بالمقررات التى درستها وهى تمر بتسعة فصول دراسية متتالية: وهى مقررات قد يستغرق تحصيل كل منها عدة شهور من العمل المتواصل حتى ولو كان الدارس فى عبقرية نيوتن Newton صغير. ولاتعليق لى على هذا المنهج. ومع ذلك يجب ألا يفهم من هذا أننى أناصر هؤلاء الذين يقفون ضد مايسمى بالضغط التعليمى المبكر. لقد درس جون ستيوارت ميل John Stuart Mill فى طفولته اللغات الميتة على يد والده جيمس ميل، مما دعا وليم موريس الى أن يتهم جيمس بالوحشية لكننى لا أجزم بصحة هذا الاتهام بل أن جون نفسه لايستطيع أن يؤكده. أنا لا أدافع عن الادعاء الشائع فى المدارس الثانوية الأهلية والذى يقول بأن الإنسان يصبح متعلما عندما يتمكن من قراءة اللغة اللاتينية وحل المعادلات المركبة، اذ أنه من الواضح أنه قد يظل رغم ذلك جاهلا كمواطن وبطريقة شائنة. والطالب الذى يدفع بهذا الاسلوب الى الحصول على درجة جامعية قد لايعود فى أغلب الحالات الى النظر الى صفحة واحدة من صفحات اللغة اللاتينية دون كراهية أو اشمئزاز. وقد لايستخدم فى دفاتر حساباته الا أبسط أنواع الحساب. ومع ذلك تواجهنى حقيقة صريحة وهى أن أغلبنا (وأنا لا أعفى نفسي) لايتذكر الا التصاريف والاوزان والامثلة التى تعلمناها فى طفولتنا مهما تفلسفنا فى مستقبل حياتنا. ومازلت أتذكر وأنا فى الثانية والتسعين من عمرى جدول الضرب وجداول البنسات التى

تعلمتها قبل السادسة، وحالات الاعراب والتصاريف اللاتينية التى تعلمتها قبل العاشرة بينما ـ وقد بلغت مرحلة النضج ـ باءت كل مجهوداتى بالفشل عندما حاولت أن أحفظ أمثلة مشابهة لها فى اللغات الحديثة، مما يدفعنى الى أن أنصح الدارسين لتلك اللغات بألا يضيعوا وقتهم فى حفظ التصاريف (تصاريف اللغة الاسبانية على سبيل المثال). وأرى أن يستخدموا الأفعال الشاذة كما لو كانت قياسية وقد يسخر الاسبان من ذلك لكنهم سيفهمون ـ وهذا هو المطلوب. وعندما يقول طفل انجليزي: « ذهبت » و « فكرت » مخطئا فى تصريف الفعل فإنه يكون مفهوما تمام كما لو صرف الفعل بالطريقة السليمة. ان الاسلوب العامى لايقل فى أهميته عن أسلوب ميلتون Milton بالإضافة الى أنه أكثر اختصارا. وأنه لمما يضيع سنينا من حياتنا أن نولع بالبحث فى مستويات الصواب والخطأ وأن نضع لها من القوانين مايضم كل ابتعاد عن الصواب بالقصور الذى لايجب السكوت عليه، ومهما اتسعت أمامنا الطرق وتشعبت فإننا نرفض أن نتحرك قبل أن يقال لنا هذا صواب وهذا خطأ. وفى أغلب الحالات يكون الصواب هو الأصعب ويكون الخطأ هو الأقرب والأسهل.

* * *

[٤]

عار وادعاء مؤلم سر احتفظت به لمدة ثمانين عاماً

والآن اعترف بحادثة وقعت أيام صباي. حادثة كنت شديد النفور منها لدرجة أنني احتفظت بها سرا لمدة ثمانين عاما ولم أخبر بها أي مخلوق ولاحتي زوجتي، اذ كانت تثير في نفسي من الألم والخزي ماكان يثيره محل طلاء الأحذية في نفس ديكنز Dickens . ولقد كان من الممكن أن يسقط ديكنز تلك الحادثة الصغيرة من حسبانه علي أنها احساس بالطبقية لا داعي له. وهذا مايدعوني أنا نفسي الي أن أتخلص من سري البغيض وأسقطه من الحسبان. لكنه كان في الواقع مفيدا. وهو يفسر رفضي لما اتفق عليه من إرسال المتفوقين من أبناء الطبقة العاملة الي المدارس الثانوية الأهلية ثم تجنيدهم بعد ذلك لخدمة الطبقة الرأسمالية بعد أن يتم تشبعهم تماما بوجهة النظر الرأسمالية حيال المجتمع. والذي يشق طريقه ويرقي بهذا الاسلوب غالبا مايصبح أشد الناس رجعية. وأري في هذا المجال أنه من الواجب أن يرسل أبناء الطبقة الغاملة الي مدارس ثانوية تقتصر فقط علي طبقتهم، علي أن يكون اتصالهم بصغار طلبة ايتون وهارفي ورجبي مقصورا علي ماينشب بينهم من مشاجرات في الشوارع. ويجب أن تكون تقايد مدارس الطبقة العاملة محلا للتباهي والفخر الذي تتميز به أي مدرسة من مدارس الطبقة الرأسمالية، كما يجب أن تتساوي معها أو تتفوق عليها فيما تمنحه من مؤهلات دراسية. انني أصدر هذا القرار علي أساس تجربة خضتها وأعترف بها الآن لأول مرة.

في الفترة التي سبقت دخولي المدرسة بعد أن تعلمت القراءة والكتابة علي يد مربية علمتني بكفاءة عالية، تلقيت أول دروسي في اللاتينية في منزل عمي وليم جورج كارول حيث كنت أجلس مع ولديه وأتعلم الاعراب

والتصاريف والأفعال الشاذة، ولم أكن لأجد في ذلك صعوبة تذكر مما دفع بي سريعا الي رأس قائمة المتفوقين في اللغة اللاتينية عندما التحقت بالمدرسة التي كان يطلق عليها في ذلك الحين مدرسة الطائفة الويسيلية (وتعرف الآ باسم كلية ويسلي).

ولم أستفد من المقررات المدرسية شيئا علي وجه الاطلاق .بل علي العكس انتهي بي الأمر الي أن أنسي الكثير مما تعلمته في بيت عمي رغم أن تلك المدرسة التي يقال باستعلاء أنها تعد طلبتها للجامعة لم تكن تولي اهتماماً يذكر لأية مادة سوي اللاتينية والاغريقية. هذا رغم ماتدعيه من القيام بتدريس الرياضيات والتاريخ الانجليزي (وأغلب مايدرس منه مزور وتافه)، وجزء شكلي في الجغرافيا التي لم أعد أذكر منها شيئا.

كانت الفصول واسعة جدا ولم يكن المدرسون مدربين تربويا، اذ كان أغلبهم يتخذ من هذا العمل مجرد مصدر للرزق يتعيشون منه وهم يشقون طريقهم كي يصبحوا قساوسة ويسليين. لم يذكر لنا أحد من المدرسين كلمة واحدة عن معني الرياضيات أو فائدتها وكل ماكان يطلب منا ببساطة هو أن نشرح كيف يمكن رسم المثلث المتساوي الساقين من تقاطع دائرتين وأن نستخدم في الجمع حروف الهجاء بدلا من البنسات والشلنات. ولم يضف هذا الي معلوماتي شيئا، بل زادني جهلا بأن جعلني أعتقد بأن «أ» و «ب» ماهما الا البيض والجبن وأما حرف «X» فلا مدلول له وكانت النتيجة الحتمية لذلك هي أن أعرض عن الجبر وأهمله كمجرد عبث لا طائل من ورائه. ولم أغير هذا الرأي الا بعد أن تجاوزت العشرين من عمري عندما أقنعني جراهام والاس، وكارل بيرسون بأن ماتلقيته في المدرسة كان مجرد تهريج لاصلة له بالرياضيات.

ولم تقلقني الرياضيات كثيرا فقد كنت أتوقع النجاح دائما رغم اهمالي وكسلي الشديدين. ومن سوء الحظ أن أسئلة الامتحان لم تذكر المسائل ولكن أشارت فقط الي أرقامها في الكتاب الذي لم أكن قد فتحته، اذ كنت أكتفي

بحلول المسائل التي تشرح في الفصل. وعلي ذلك فقد رسبت وبطريقة مخزية.

في مجال الأدب فقط استطاعت المدرسة أن تتنبأ بما سيصبح لي من شهرة وصيت. كنا نكتب العديد من المقالات، ولقد حصلت علي درجة «امتياز» عن مقالة بليغة دبجتها في وصف بحيرة ليفي Liffey ومايعلوها من مناظر، ولكن لم يكن هناك أي إهتمام أو اية جائزة لهذه المادة أو غيرها باستثناء اللاتينية.

لم تكن هناك سوي طريقة واحدة للتعليم: فبدلا من أن يسأل التلميذ ويجيب المدرس ويشرح، كان المدرس هو الذي يوجه الاسئلة، فإذا لم يستطع الطالب أن يعطي الاجابة المنصوص عليها في الكتاب فإنه يحصل علي درجة «ضعيف» ثم يكفر عن حصوله علي هذه الدرجة في نهاية الاسبوع بأن يعاقب بالضرب بالعصا ست مرات علي أطراف أصابعه. ولم يكن الضرب يؤلم كثير مما دعاني الي الاعتقاد بأن العقوبة الجسدية. كي تكون مؤثرة لابد أن تكون قاسية.

وبعد عدة سنين من هذا السجن. الذي أبعدني عن أبواي نصف اليوم علي الأقل رغم أنه لم يزودني بأي شئ. اختبرني عمي فيما درست ووجد أنني لم أتعلم شيئا، بل نسيت ماكان قد علمنيه. وبعدها لم أعد الي هذه المدرسة. أرسلني أبواي الي مدرسة خاصة في جلاستول بين كنجزتون Kingstown ودوكي Dalkey ، لكن ذهابي اليها لم يطل اذ انتقلنا من دوكي عائدين الي دبلن.

وهنا تبدأ مأساة ادعائي الطبقي. لقد ذكرت في مكان آخر من هذا الكتاب كيف شاركنا جورج جون فانداليرلي أمور معيشتنا، وكيف كان قائداً موسيقيا فذا ومدرس غناء أصيل وجرئ، هذا بالاضافة الي كونه مدرس أمي وزميلها. لم يكترث أبي أو أمي كثيرا بأمور تعليمي اذ كان يكفيهما أن

أذهب الي المدرسة سواء تعلمت أم لم أتعلم. ورغم أن «لي» كان شديد الانشغال بالموسيقي الا أنه رأي أنه لابد من فعل شئ فقد بدا له بوضوح أنني لم أتعلم سوي أشياء كان من الأفضل الا اتعلمها. وحدث أن تعرف علي شخص يدعي بيتش peach وكان مدرسا للرسم بالمدرسة المركزية النموذجية للبنين بشارع مارلبورو، وهي مدرسة تبدو في ظاهرها غير طائفية وغير خاضعة لنظام طبقي، ولكنها كانت في الواقع كاثوليكية الاتجاه والتعليم. وفي هذه المدرسة كان علي التلاميذ من أبناء القادرين ماديا أن يدفعوا خمس شلنات دوريا، وكانوا يعاقبون ضربا بالعصا في حالة اخفاقهم. كانت المدرسة بناءا ضخما ذا جدران عالية لايمكن تسلقها، وكنت أري أنه من الافضل أن يكتب علي بوابتها: «أيها الداخل هنا اقطع كل أمل في النجاة، ذلك لأنه كان من الصعب علي أحد أبناء آل شو أن يتصور امكان دخول ابن سيد من سادة التجار البروتستانت واقطاعي من الطبقة الدنيا الي ماوراء هذه الأسوار كي يعيش مع أعداد غفيرة من أبناء الباعة الكاثوليك.

ولكن بيتش استطاع أن يقنع «لي» بأن الدراسة في تلك المدرسة دائما ماتسير بمهارة يعتد بها ويركن اليها، هذا بالاضافة الي أن المدارس الخاصة الأقل منها في التكاليف قد بلغت من السوء أدني مراحله. وهكذا ذهبت الي شارع مارلبور. وفي الحال فقدت كل مايميزني طبقيا وأصبحت فتي منبوذا يأنف أي فتي بروتستانتي أن يتحدث اليه أو أن يلعب معه. ولم يكن الحال هكذا فيما وراءه الأسوار، اذ كانوا يعتبرونني داخل المدرسة مخلوقا متميزا. لم أكن أشارك الآخرين لعبهم في أوقات اللعب، بل كنت انضم الي المدرسين وهم يسيرون في تحفظ جيئة وذهابا في اثناء تنزههم.

ولم يستمر الحال طويلا علي هذا المنوال. كنت في الثالثة عشرة من عمري (١٨٦٩)، وكنت قد تحملت الدراسة من فبراير حتي سبتمبر وبعدها ولاول مرة قررت مصيري بنفسي ورفضت أن أعود الي تلك المدرسة مهما كانت النتائج وكان أبي يشاركني نفس الاحساس بالعار ولذا لم يصر علي

ذهابي وتركني أشق الطريق الذي أختـار. وعـدت في الوقت المناسب الي مدرسة برتستانتية راقية. كانت في شارع اينجر ويطلق عليها اسم «مدرسة دبلن الانجليزية الصباحية للعلوم والادارة» وقد أغلقت في عام ١٨٧٨ وكانت آخر مدرسة التحق بها وقد تركتها عام ١٨٧١ لأصبح وأنا في الخامس عشرة كاتبا صغيرا بمكتب أملاك ينحصر عمله في الطبقة الراقية. كان المكتب مزدحما بطلاب يدفعون أجور تدريبهم وكان أغلبهم من خريجي الجامعات، ولذا فقد كانوا من ناحية الأصل في مستوي لايقل بأية حال عن مستوي أسرة شو وكانت أسماؤهم في أثناء الحديث تسبق دائما بلقب «السيد»، بينما كنت أنا مجرد «شو».

بلغت قيمة ما أدفعه في شارع أينجر أربعة جنيهات عن كل ثلاثة شهور من الدرس والتدريب، علاوة علي أربعة شلنات اضافية لمادة الرسم، ولم يفكر ابواي في دفع رسوم اضافية لاية مادة أخري. ولم يكن مدرس الرسم يهتم بالتدريس أو بالمحافظة علي النظام. أما عن درس الدين الذي كنا نحضره مرة كل أسبوع فلم نكن لنهتم به أو برجل الدين الذي كنا نعاكسه ونضايقه بشتي الوسائل. ولم يكن أي منا يحلم أن يأخذ الدين مأخذا جديا.

لقد كان من الممكن أن أتجنب الاحساس بالعار لو أنهم حدثوني عن مدرسة شارع مارلبورو علي أنها مدرسة تجريبية نموذجية يلتحق بها أبناء صغار التجار - لا أبناء العامة الفقراء - سواء أكانوا كاثوليك أو بروتستانت، ذلك لانني كنت قد بدأت أشعر بالثورة علي ما يتظاهر به آل شو من أدعاء طبقي. لقد كان الخياط الذي كان يحوك ثياب أبي يملك بيتا ريفيا في دوكي ويختا في دوكي سوند Dalkey Sound كما كان باستطاعته أن يرسل أبناءه الي مدارس إعدادية راقية وأن يلحقهم بالكليات، وهم أكثر مني استعدادا وأفضل ملبساً. ولقد كان يبدو لي وأنا في الثانية عشرة والنصف من عمري كما يبدو لي الآن وأنا في التسعين أنه من الغباء أن نضع هذا الخياط في مرتبة اجتماعية أقل من مرتبة أبي المفلس الذي لم يكن باستطاعته أن يدفع الرسوم المدرسية

بانتظام. لقد كنت فتي ملحدا وبعيداً كل البعد عن التعصب البروستانتي. وكنت أعلن ذلك بفخر بعد أن نبذت الصلاة علي أنها عمل لايتفق مع المنطق. وكان نشاط أمي الموسيقي قد قضي علي كل ماترسب في أعماقي من تحيز اجتماعي ضد الكاثوليك، وكذلك علي كل ماطبع في ذهني من إعتقاد بأنهم سوف يزجون جميعاً بعد الموت في نار جهنم. كنت فنيانيا أومن بالفكر الحر، صريحاً في ميولي السياسية، ولم أكن متعصبا أو غير منصف، بل علي العكس كنت أتقبل وبلاحدود كل ماهو قائم علي الحجة والمنطق.

ورغم ذلك كانت الحقيقة صارمة قاطعة: لن تختلط الطبقات. كان من الممكن بالطبع - في حالة المساواة في الدخل - أن يسقط الحاجز الطبقي وأن تتداخل طبقة في أخري عن طريق الزواج، وذلك ما لم يحدث أيام صباي، ولربما حدث فيما بعد فقط في حالات أصحاب الدخول الضخمة. كنت أتناول الغذاء ذات يوم كضيف شرف في منزل الفيكونت باور سكورت وهو من غلاة الارستقراطيين في ايرلنده، وكان ذلك بعد عدة سنين من تركي المدرسة النموذجية. وعندما غادرت ابنته الحفل مبكرا لتذهب الي دبلن، شرح لي الأمر معتذراً: إنها مدعوة في نفس المساء الي حفل بمنزل السير جون أرنولد، وهو من أغني أغنياء تجار دبلن.

واعترتني الدهشة فقد كان من المستحيل أيام صباي أن تتحدث فتاة بمثل هذه الارستقراطية الي صاحب متجر الا فيما يختص بأمور البيع والشراء، أما أن تزوره، وتحضر حفلا يقيمه فقد كان معناه أن تثير غضب ونقد الطبقة التي تنتمي اليها، تماما كما حدث لي عندما التحقت بالمدرسة النموذجية معتقدا أنها مدرسة للعامة من فقراء الناس. ولم يقنعني أحد بخطأ هذه الفكرة بل لم يحاول أحد أن يفسر لي شيئا علي وجه الاطلاق. ومنذ ذلك الحين وأنا أحاول الاعتماد علي نفسي في تفسير ماغمض علي .

لماذا ولدت في المدرسة النموذجية احساسا بعار كاد يصل بي الي حد الهوس؟ لقد قلت في مكان آخر أن كراهيتي للقذارة والفقر وما يمثلانه من

حيوانات بشرية لم تغرس في أعماقي نتيجة التحاقي بالمدرسة النموذجية فقد كان الاولاد هناك لايقلون عني شيئا في ماكلهم وملبسهم. لكني اكتسبت هذا الاحساس من الأحياء القذرة التي كنت أذهب اليها في صحبة مربيتي لزيارة أصدقائها، بينما كان المفروض عليها أن تنزهني في الحدائق العامة. لقد كرهت هذه التجارب كراهية شديدة فلم تكن لتتفق وطبيعة الفنان الذي يقدس الصفاء والجمال، كان من الصعب أن أومن بأن تلك الأكواخ التي يقطنونها تصلح لسكن الأدميين. ولقد كان من المستحيل علي أن أتصور أنني أعيش في احدها. ولقد بلغ هذا المنهج الفكري ذروته بعدما يقرب من الخمسين عاما في مسرحيتي ماجور باربرا Major Barbara التي يعلن فيها المليونير القديس أندرو أندر شافت Andrew Undershaft عن إيمانه بأن الفقر ليس العقاب الطبيعي المناسب للرذيلة ولكنه جريمة اجتماعية تفوق كل جرائم القتل والسرقة. وبعدها عندما أبدي صديقي عالم البكتيريا السير المروث رأيت إحدي ملاحظاته قائلا بطريقة عارضة «أن تأثير الإجراءات الصحية التي تتخذ للقضاء علي المرض يرجع كلية الي الإحساس بالجمال»، وافقته تماما وأكدت له أنه قد وفق الي اكتشاف يفوق في أهميته أشهر ما قدمه من إسهام في مجال التاريخ الطبيعي للميكروبات.

نقطة أخري أقولها ليسجلها علماء النفس: بالرغم من أنني لمدة ثمانين عاما لم أستطع ذكر ماحدث لي في شارع مارلبورو الا أنني قد شفيتِ تماما من ذلك الإحساس بالعار بعد أن كسرت حاجز الصمت المخجل ونفضته خارج قلبي وعقلي. لم يعد هناك اي أثر لخجلي الصبياني، لم يعد عقدة بل أصبح مجرد ذكري يمكن ابعادها دون أدني مشقة.

وهذا يوضح السبب في فشل أو نجاح بعض حالات العلاج النفسي. فمن الممكن علاج الحالات المرضية الناتجة عن صدمات أو جروح أما العقد الغريزية فلا علاج لها. وغالبا ما يتقبل الطفل أية قصة تقال مهما بلغت درجة سخفها واستحالة حدوثها علي أنها حقيقة لاجدال فيها اذا كان الراوي

شخصا ينظر إليه الطفل علي أنه معصوم من الخطأ (غالبا مايكون الأب) . وقد يتمسك الطفل بكل ماجاء بها دون تفكير حتي يجد نفسه ذات يوم مدفوعا لمناقشتها منطقيا، وقد لايحدث ذلك علي وجه الاطلاق . لقد أخبرني أبي وأنا طفل أن مستر هوتون - وقد زارنا آنذاك - يؤمن بالتوحيد . وسألت أبي عن ماهية التوحيد فأجابني هازلا بأن الموحدين يعتقدون أن المسيح لم يصلب لكنه شوهد وهو يجري أسفل السفح علي الجانب الآخر من تل « كالفاري » Calvary وصدقت ماقاله أبي لمدة قاربت الثلاثين عاما .

لقد لازمتني أخطاء طفولتني كما لازمتني مداعبات أبي فانا لا أكاد أنسي الخطأ الذي وقعت فيه في أثناء دراستي لمادة الجبر عندما تعاملت مع (أ) و « ب » و « ن » و « X » علي أنها سلع لامدلولات . وعقول الناس مليئة بتلك الذكريات المترسبة من أيام طفولتهم . وربما يخيل إليهم - إذا ماحدث وتناسوا ذكريات وأخطاء طفولتهم أن الحقائق التي إتخذوها أساسا لتغيير منطقهم في التعبير جديدة عليهم رغم أنها غالبا ما قد تكون واضحة أمامهم طوال حياتهم . ففي بداية حياتي عندما تخيلت عن إيماني المتوارث بأن الكتاب المقدس هو الكلمة الموحاة لاله مجسم معصوم وعليم بكل شئ، توصلت الي حل وسط وذلك بأن نزعت الصفة الاكليركية عن العهد القديم دون الجديد . وهكذا لم يتغير النص، لكن إدراكي أنا هو الذي تغير . ورغم أنه من الواضح أن « يهوه » وثن قبلي يختلف إختلافا كبيرا عن المسيح « أبينا الذي في السماء »، الا أن المسيحيين حتي وقتنا هذا مازالوا يطلقون عبارة « الاله القادر » علي كل من « يهوه » والمسيح دون أي تمييز .

قد يكون من الصعب علي القراء الانجليز والاسكتلنديين والأمريكيين أن يفهموا سر العار الذي كبته متألما في أعماقي أثر التحاقي بالمدرسة النموذجية ذلك لأن الكثيرين من وزراء الدولة وأمناء سرها حاليا تلقوا تعليمهم في مدارس الطبقة العاملة . ولكن حيث يوجد الفقر تصاب إرادة التغيير بالشلل فمازال التمييز قائما بين طبقة السادة وطبقة العمال البدويين وكأنهما جنسان

مختلفان كل الاختلاف . ولقد كان الحال أسوأ من ذلك في أيرلنده عندما ولدت ، كانت عربات القطار مقسمة الي درجات : أولي وثانية وثالثة . ولم يكن السادة - أو السيدات - يسافرون بالدرجة الثالثة حيث لاتوجد وسائد وحيث كان المسافرون من الرجال يدخنون التبغ ويبصقون في كل إتجاه . كانوا يرتدون سراويل من القطن المتين مربوطة عند الركبة وقمصانا بلا (ياقات) لم تغسل منذ زمن طويل لدرجة أن قد تفوح رائحتها فتزكم أنوف ركاب الدرجة الثانية ولم يكن أي منهم يستطيع القراءة أو الكتابة . وعلي ذلك فقد كانوا يعتبرون المدرسة النموذجية جامعة أرستقراطية للطبقة الوسطي بعيدة كل البعد عن مطامحهم الاجتماعية . ففي المدينة كانت مساكنهم منتشرة في الاحياء القذرة ، وفي القرية كانوا يقتسمون مع حيواناتهم حجراتهم ذات الأرضية الطينية أو حظائر مهدمة . وكانت مدارسهم أن وجدت تعرف بإسم الكتاتيب : كتاتيب أولاد الفقراء . وكانت نساؤهم يلبسن الاحذية والجوارب في المناسبات الكبري فقط عندما يذهبن الي سوق موسمية أو الي حفل لاقامة الشعائر الدينية . الا أنهم رغم ذلك كله كانوا بشرا ، يبلغون أسمي مراتب البشرية في بعض الاحيان وينقسمون فيما بينهم وبمقاييسهم الي طبقات تتفاوت مابين طبقة الاعيان وطبقة السوقة . أضف الي ذلك ادعاءاتهم الطبقية التي يعرفها أولئك الذين حاولوا اقامة مراكز لتدريب النساء في القرية الانجليزية . لقد وجدوا أن نساء القرية الواحدة يرفضن التعامل مع بعضهم بعضا علي أساس من المساواة الاجتماعية .

لكن يجب أن أكرر القول بأن تلك الصفات البشرية المشتركة لم تؤلف بين الطبقات . ان الكلب المدلل في أي بيت كبير يألف الخدم تماما كما يألف سادتهم لكن الحيوانات البشرية تظل متنافرة متباعدة . لقد ولدت في بيت به مطبخ وبهو (حجرة الاستقبال) وعلي الأقل خادمة واحدة دائمة تتقاضي ثمانية جنيهات نقدا في العام وتعيش وحدها في الطابق السفلي من البيت .

وعلي ذلك فمازال التمييز الطبقي مفرطا رغم تقدم الفكر الاشتراكي .

وفي البلدان التي تتكون أغلب طبقتها العاملة من السود أو السمر أو الصفر لايوجد أي مظهر من مظاهر المساواة أو التشابه سواء أكان ذلك طبقيا أو انسانيا . وأعتقد أنه لايمكن علاج مثل هذا الوضع عن طريق ارغام كل القطاعات علي الخضوع للمؤسسات القديمة، لكن العلاج يكمن أساسا في مواجهة الواقع وهو انفصال تلك القطاعات وتباينها مع تقبل الفروق القائمة بين مدارس الطبقة العاملة ومدارس الطبقة ما دون المتوسطة ومدارس الاتونيين الطائفية وعربات جيم كرو وما الي ذلك من فروق واختلافات . كل مافي الأمر هو أن تتغير النظرة الي أسلوب الترقي الاجتماعي، فبدلا من أن يحاول المتفوقون من خريجي المدارس الفنية اقتحام معاقل الآتونيين عليهم أن يحتفظوا « بأنفسهم لأنفسهم » وألا يؤكدوا مساواتهم بل أفضليتهم كأجناس مختارة . وعلي ذلك فيجب علي الزنجي ألا يعترض علي عربة « جيم كرو » Jim Crow ، بل يصر علي وجودها وعلي اقصاء « فقراء البيض » بعيدا عنها . كما يجب علي اليهودي أن يواجه اعداء السامية، كما واجه « جشوا » الكنعانيين لاكمخلوق مساو لهم لكن كمخلوق متميز اختارته السماء كي يسودهم وبهذا الأسلوب فقط يمكن لمختلف الفئات أن تثبت وجودها وتؤكد تميزها . وهذا بدوره سيقود الي اتصال الطبقات وتداخلها كما حدث من قبل عندما وجدت الفيكونت والتاجر الايرلنديين يتبادلان الزيارات .

ومع أن مدرسة الرابطة المتحدة كانت قليلة التكاليف وبروتستانتية وراقية مثل مدرسة الويسليين إلا أنها لم تدع أبدا المقدرة علي إعداد الطالب للجامعة ولذلك حذفت علانية من منهجها كل المواد الكلاسيكية . لقد أنشئت أساسا للتلاميذ الذين كان آباؤهم مثل أبي لايستطيعون إرسالهم الي كلية ترنيتي، ولم يكن لهم من هدف الا تأهيل هؤلاء الابناء للعمل لا للتضلع في العلم . وكان من بين تلامذة تلك المدرسة تلميذان أو ثلاثة علي مستوي عال في الرياضيات، وغالبا ماكانوا يجلسون وحدهم خارج الفصل ليعلموا أنفسهم بأنفسهم ولم يكترث أحد من الأساتذة حتي بمجرد التظاهر بتعليمهم . كان الناظر دائما الجلوس في حجرة مكتبه، لاتربطه بالتلاميذ أية رابطة الا إذا

أرسلوا اليه كي يعاقبهم. لم يكن متفرغا للمدرسة، اذ كان يعد نفسه بسرعة كي يرسم قسا في الكنيسة الاسقفية البروتستانتية، حتي يصبح محقا في نيل «عوض» اذا ماقام جلاد ستون بسحب الاعتراف بها. لم تكن طريقة التدريس بالمدرسة تختلف في شئ عن طريقة التدريس بمدارس الويسليين.

وعلي أية حال فلم أعد نفس الشخص الذي كنته عند الويسليين. لقد حدث لي نفس التطور الطبيعي الذي وصفته في مسرحيتي الانسان والانسان الاسمي Man and Superman كميلاد للعاطفة الاخلاقية. لم أحلم يوما في مدرسة الويسليين بمذاكرة دروسي أو بقول الحقيقة للمدرس الذي أعتبره الجميع عدوا وجلادا. وفي المدرسة النموذجية بدأت أحاسب نفسي. وفي شارع «أينجر» أصبح الكذب لايليق بكرامتي وأخلاقياتي كأول للطلبة وكنت أقتسم هذا المركز مع زميل لي في الدراسة اسمه (دون Dunne) وقد صاحبني منذ كنت طالبا بمدرسة الويسليين، وكان يتسم بنضج مبكر وملفت للانظار لدرجة أنه وهو في السادسة عشرة أو ما يقاربها كان يبدو في تصرفه كما لو كان أحد الاساقفة. وعلي ذلك فقد كان علي أن أحافظ علي سمعتي بأن أؤدي واجبي الدراسي (وكان تافها) بكل أمانة. ولم أقف ضد النظام المدرسي سوي مرة واحدة وذلك عندما أثار أحد التلاميذ بعض الشغب في أثناء الشرح، وكان لابد من اكتشاف المسئ. وبدأ المدرس يسائلنا الواحد تلو الآخر ورفضت أن أجيب علي أساس أنه لايوجد قانون يجبر تلميذا علي أدانة نفسه، كما أن سؤال المدرس بهذه الطريقة يحرض التلاميذ علي الكذب. ومر يوم أو يومان كان المتوقع خلالهما أن أعاقب عقابا مروعا لكن لم يحدث شئ علي وجه الاطلاق، كان الموقف جديدا بالنسبة لهيئة التدريس. وعندما لاتعرف السلطات ماذا تفعل فإنها في الغالب ترجع الي ماسبق فعله في مثل تلك الحالات. وبناء علي ذلك فإنهم لم يفعلوا شيئا حيث أني خلقت لهم موقفا لم يسبق له مثيل وبعدها امتنع المدرسون عن وضع أنفسهم في مثل تلك المواقف. وكان هذا أول إصلاح لي.

ولقد اثبت وجودي بطريقة أخري في المدرسة النموذجية حيث كانت دروس القراءة في التاريخ تتجاهل أيرلنده وتمجد انجلترا وفي هذا المقام كنت دائما أحل أيرلنده محل انجلترا وكثيرا ماتساءل التلاميذ عما قد يحدث لي من جراء ذلك. لكن المدرس كان يبتسم ولايقول شيئا. لقد كنت في الواقع شابا فنيائيا في ميولي السياسية.

ومن احداث شارع «أينجر» أذكر أيضا ذلك اليوم الذي تركنا فيه وحدنا في الفصل دون اشراف وذلك بسبب ما اصاب زوجة الناظر من مرض مفاجئ. لقد طلب منا المدرس قبل مغادرته الفصل أن نحافظ علي الهدوء. ولم نحتفظ بهدوئنا لاكثر من لحظة، بدأنا بعدها نصخب ونحطم كل مايمكن تحطيمه في الحجرة ولقد فعلت مافعله الآخرون.

ولم انسي هذه التجربة التي رأيتها تتكرر مرتين بعد عدة سنين بين الكبار مرة علي ظهر باخرة بين مجموعة من ركاب الدرجة الأولي ومرة أخري بين مجموعة من أعضاء الجمعية الفابية [١] أثناء طربهم. ولم أدهش عندما رأيت نفس الشئ يظهر في فيلم روسي تعليمي. ولقد علمتني هذه التجربة الي أي حد يمكن أن تكون الحضارة البرجوازية ضعيفة وخادعة والي أي حد أيضا يمكن أقناعي. ولست باعظم من شكسبير أو ديكنز. بإمكانية اقامة حضارة ديمقراطية تحت شعار الحرية، دون ما أدني حاجة الي قادة أو حكام موهوبين وذلك عن طريق الانتخاب الشامل لنكرات غير مؤهلين للحكم. حتي ولو كانوا علي غرار نابليون. بواسطة جموع غير مثقفة سياسيا. وهذا لايقود الي إرساء دعائم الديمقراطية بل علي العكس من ذلك فإنه يغري بإقامة دكتاتورية هتلرية.

---

(١) الجمعية الفابية، جمعية تقدمية تدعو إلي التدرج السلمي نحو الاشتراكية، اقيمت عام ١٨٨٣، وكان من أبرز أعضائها ج. ب. شو، هـ. ج، ويلز.

[٥]

عملي أثناء صباي

فى احدى أوبرات جلبرتت Gilbert وسليفان Sullivan ، يحدثنا صبى يعمل فى أحد المكاتب عما كان يقوم به من تنظيف للنوافذ وكنس للأرض وتلميع لمقبض الباب الخارجى الكبير. لم أقم أنا نفسى بمثل هذا العمل الخشن، بعد أن التحقت فى صباى بمكتب لاحدى شركات توكيل العقارات (كانت وكالة العقارات تعتبر مهنة فى أيرلندا). ولم يكن من الممكن تكليفى بالقيام بأى عمل يدوي، حيث أن عمى فردريك ـ رئيس مكتب تقييم الأراضى ـ كان قد قام بتقديمي، وكان باستطاعته أن يعوق وكلاء الأملاك ويسبب لهم الكثير من المتاعب. وعلى ذلك فقد اعتبرت نفسى منذ البداية كاتباً مبتدئاً. كنت أقوم بتنظيم الخطابات الواردة واحضارها عند الطلب، مقابل ثمانية عشر جنيها فى العام، كما كنت أحتفظ بنسخ من الخطابات الصادرة قبل ارسالها. اما عن الأعمال الحسابية فلم أقم بأى منها الا فيما يختص بشئون البريد. وكصبى ارساليات انحصر عملى فى نطاق (الجمرك) حيث كنت اذهب لختم صكوك الإيجار. وهكذا لمست فظاظة المعاملة فى المكاتب الحكومية كما وصفها ديكنز فى رواية الصغيرة دوريت Little Dorrit. كان غذائى يقتصر على كعكة أشتريها ببنس واحد. وعند خروجى لشرائها. وكان هذا أمر لامفر منه. كنت أيضا أشترى لموظفى المكتب ما يحتاجون إليه من طعام. ولم يكن الغذاء مهما فى ذلك الحين، كان فى أغلب الأحيان مجرد وجبة خفيفة تتناول بسرعة. ولقد وقفت فى مستقبل حياتى ضد قدامى الممثلين الذين لم يكونوا يدركون أهمية وجبة الغذاء والذين لم يكن باستطاعتهم أن يفهموا لماذا توقف البروفات ويترك الممثلون عملهم عندما يحين موعد هذه الوجبة.

ومنذ أن لنتهت أيام دراستي، لم يكن يقوم أحد بمساعدتى فى تفسير ماغمض على من أمور. كانوا يقولون لى كلما واجهت موقفا محيرا: «إفعل ما فعله السابقون». ولهذا يرجع الفضل فى معرفتى بأنه من الضرورى وجود قوانين سياسية يمكن الرجوع إليها فى الفترات الطويلة التى تفصل مابين حكم أصحاب المقدرة من الملوك والزعماء والدكتاتوريين، عندما لاتستطيع السلطات أن تفكر فى شئ الا فى اتباع ماهو كائن. ومألوف. كنت أملك مقدرة نادرة فى أن أتعلم وأعمم من واقع التجربة، ورغم ذلك لم أعلق عليها أية أهمية، إذ لم أكن أدرك فى ذلك الحين أنها نادرة. لم تثر فى وكالة الأراضى أدنى حماس أو اهتمام، لكنها ساعدت على أن يتجمع لدى رصيد كبير من الملاحظات التى أدركت أهميتها فيما بعد عندما بين لى هنرى جورج دلالتها السياسية. لكننى ببساطة كرهت ذلك العمل، ولم أكن أفكر فيه آنذاك من الناحية السياسية.

وبعد مايقرب من عام، خلت فجأة وظيفة رئيس الصيارفة الذى كان يقوم بأكثر أعمال المكتب أهمية ونشاطا، اذ كان عليه أن يتولى القيام بأعمال المصارف (البنوك) فيما يختص بحسابات العملاء، وكذلك استلام وصرف الشيكات يومىا، هذا بالاضافة الى قيامه بكل أنواع الايجارات والفوائد والتأمين والدخول الخاصة. كان عملا يتسم بالحركة والحيوية، لكنه فى نفس الوقت كان مركزا يتطلب الكثير من الثقة فى شخص القائم به. ولقد طلب منى بعد أن خلت الوظيفة فجأة أن أسد الفراغ بصورة مؤقتة حتى يتم تعيين صراف جديد، ناضج السن بارز الشخصية. ولم أجد أية صعوبة فى القيام بهذا العمل، ونجحت فى تحسين طريقتى فى الكتابة بخط جميل، مقلدا الخط الدقيق المحكم لرئيس الصيارفة السابق، زد على ذلك أن مضاعفة مرتبى (الآن ٢٤ جنيها) الى ٤٨ جنيها كانت دفعة كبيرة إلى الأمام. ونتيجة لما أبديته من حماس وكفاءة، تأجلت فكرة البحث عن صراف ناضج، ثم أهملت تماما فيما بعد. ولقد أثبت أننى صراف ومحاسب دقيق أمين، فبالرغم من أننى لم أكن أعرف بالضبط مقدار ما أحتفظ به فى جيبى من مصروف خاص، الا أننى

كنت على درجة كبيرة من الدقة فى كل مايختص بحسابات المكتب. وهكذا تغير الحال: لم أعد مجرد صبى يعمل فى مكتب، بل أصبحت صرافا أول، ثم رئيسا للصيارفة. وبذلك لم أصبح فقط مجرد ند لأى عضو من أعضاء الإدارة، بل أصبحت فى الواقع أنشطهم وأكثرهم تحملا للمسئولية، لكنى لم أكن أؤمن بصلاحية إستمرارى فى هذا العمل ولم يحدث مرة أن قمت بعملية مصرفية دون أن أتمنى الا أعود الى القيام بمثلها مرة أخرى. إلا أننى لم أكن مغامرا، كما كنت خجولاً قليل الحيلة فيما يتعلق بالأمور الدنيوية (مع أننى أعتقد أن مظهرى كان يدل على العكس)، ولذلك كنت أعود دائما إلى القيام بعمل ماتمنيت الامتناع عنه.

لكن هذه الوظيفة، من جهة أخري، ضمنت لى العمل مع مجموعة من الشباب المهذب، الذين دفعوا اقساطاً كبيرة كى يتعلموا مهنة محترمة، إلا أنهم لم يتلقوا الكثير مقابل نقودهم باستثناء مقتطفات أوبرالية قصير كنت أقوم بتدريبهم على القائها. أذكر واقعة حدثت ذات مرة عندما جثم أحد الطلاب على حوض الغسيل، وقد بدا وجهه من فوق الستر الذى كان يحجب الحوض. كان يتخيل نفسه داخل برج سجن مانريكو المظلم. ثم بدأ يغنى بكل مشاعره أغنية جنائزية حزينة، إندمج فيها لدرجة أنه لم يلحظ أحد أصحاب المكتب الكبار. تشالز يونياك تونشند Charles Uniacke Townshend. وهو يدخل فجأة ثم يفر هاربا إلى الدور العلوى بعد أن اصابته الدهشة وهو يحملق فى ذلك الوجه الذى يغنى فى حزن.

وهكذا كنت أتمتع فى المكتب بشئ من التسلية وبصحبة مجموعة من الجامعيين، لكنى كنت أكره مركزى وعملي. وفى عام ١٨٧٦، مباشرة بعد موت أختى اجنز فى جزيرة وايت، تركت العمل واندفعت دون تردد إلى قلب لندن، منضماً إلى أمى التى كانت تعيش هناك.

قد أذكر أيضا شيئا أو شيئين فيما يختص بتلك الفترة من صباي. بعد وقت قصير من التحاقى بالمكتب، إكتشف العاملون معى حقيقة مروعة وهى

أننى بدلا من أن أكون بروتستانتيا مخلصا للكنيسة. كما يجب أن يكون عليه شاب حظى بتقديم موظف كبير فى «مكتب التقييم» . كنت فى الواقع مجرد إنسان كافر لايؤمن بالله. وكثيرا ماثارت مناقشات كنت أخرج منها مسحوقا بقسوة، ذلك لأننى كنت صغيرا وغير مثقف فى علم المنطق. قال لى همفرى لويد (أحد الذين يتدربون بالمكتب) : «مافائدة النقاش اذا كنت لاتعرف ماهو القياس؟» وبحثت عن معنى كلمة القياس فى القاموس، واكتشفت. كما اكتشف البطل البرجوازى فى أحد أعمال موليير. أنني، طوال حياتى ودون أن أدري، كنت أصطنع القياس المنطقى فى كل مايعن لي. وعندما وصل الأمر إلى مسمع تشارلز يونياك تونشند. أكبر الشركاء فى العمل وأحد أعمدة الكنيسة وعضو هام فى جمعية دبلن الملكية وكل ما له شأن فى دبلن. لم يحاول مطلقا أن يتدخل فى مسألة كفرى أو إيماني، بل احترم حرية تفكيرى ولم يبد حتى مجرد الرغبة فى مناقشتي. لكنه طلب منى ألا أثير هذه الموضوعات فى مكتبه. ورغم عدم رضاي، وعدته بذلك وحافظت على وعدي، لا لأن مورد رزقى كان فى مهب الريح (فلم أكن لأتردد أبدا فى التضحية بكل شئ)، ولكن لأنى كنت قد عقدت العزم على الا أستمر فى العمل تحت هذا الضغط. وقد جعلنى هذا الحادث أستبعد التفكير فى الحياة المكتبية ووكالة العقارات كعمل مهم أرتزق منه فى مستقبل حياتي. لقد اخجلنى ذلك الوعد الذى قطعته على نفسي. وعندما أعطانى أصحاب العمل . بناء على طلب أبى. شهادة تؤكد أننى على درجة عالية من الكفاءة، غضبت غضبا شديدا لتقدم أبى بطلب كهذا عند تركى للعمل. لكنى الآن (١٩٤٧) أشعر بنوع من الاعتزاز بتلك الوثيقة.

ورغم ذلك فلم أكن أدرك بوضوح مقدار قيمتى وقدري. لكن حدث فى أحد الأيام أن قال الفتي، الذى كان يغنى بكل عاطفة أغنية الموت الحزينة، أن كل الفتية يعتقدون أنهم سيصبحون فى المستقبل رجالا عظماء. وقد جعلتنى الصدمة الناتجة عن هذه الملاحظة أشعر فجأة أن هذه هى نفس ورطتي، رغم أننى حتى تلك الآونة لم أكن قد قمت بعمل ما يدفعنى إلى

الاعـتـقـاد بأننى قـد ولدت لأكـون فى مـرتبـة تقـارب مـرتبـة شكسـبيـر Shakespeare وشيلى Shelley وبراكستيليز praxiteles ومايكل انجلو Michael Angelo . كـانت مـثل هذه التطلعـات ـ لفـتى تدرج فى بعض الوظائف الكتابية ـ تبدو على درجة كبيرة من السخف. لقد دفعنى الجبن وعدم الثقة، فى تلك الآونة، إلى الإعتقاد بأننى لا أزيد عن كونى مجرد شخص بليد جاهل. لكن واجباتى كصراف غرست فى عادة العمل اليومي، وعلمتنى أنه من الواجب على أن أقوم بعمل شئ ما بدلا من تضيع الوقت فى احلام اليقظة، كما علمتنى أنه لن ينفعنى شئ سوى المهارة الفنية والتدريب والكفاية القادرة: باختصار ـ البراعة الفائقة. ولم أكن أقيم أى قدر للأهمية التى استمدها أبناء عمومتى من ادراكهم أن أجداد أجدادهم كانوا أيضا نفس أجداد أجداد سير روبرت شو الذى كان يعيش فى بوشى بارك أن أمثال هؤلاء البارونات لايمكن أن يخدعوا إنسانا ممن ينتمون إلى جمهورية الفن. ولقد كنت دائمـا أشعر بالخجل والتعاسة لأننى لا أستطيع أن أقدم على فعل ما أريد. كنت أحتفظ بنقود يونياك تونشند دون أن أحلم يوما بسرقتها. وتدفعنى السنين التى بلغت فيهـا مرحلة النضج إلى الاعتقاد بأن الملاك الذى يسجل حسناتى وسيئاتى سوف يضع هذا السلوك فى مرتبة أعلى بكثير من مرتبة أعمالى الفنية الباهرة. لكننى فى تلك الآونة كنت أعتبـر ذلك سلوكـا عـاديا. كـان أحـد المؤهلات الضرورية لعمل لم أحبه.

فى تلك الأثناء، ودون أن أدرك ذلك، أخـذت بوادر نشـاطى الأدبى تبدأ فى الظهور. كانت البدايات الأولى فى صورة خطابات تبادلتها وصديقى ادوارد مـاكنلتى Edward MeNulty وهو أحـد زمـلاء الدراسـة القـدامى ومؤلف لثلاث روايات عن الحيـاة فى أيرلندا. كـان مـوظفـا فى بنك أيرلندا، لكنه نقل إلى فـرع نيـورى Newry وحـالت الظروف بيننا لدرجة أننا لم نعـد نلتقى بعد أن انتهت أعوام الدراسة التى جمعتنا. ومع ذلك استمرت صداقتنا متينة على أسـاس من تلك العبـقرية المتوقدة التى اتصف بهـا كل منا. وبدأ تراسلنا فى سن مبكرة، كنا نتبـادل خطابات مطولة تتضـمن صورا غير متقنة

ومسرحيات هزلية ساخرة. وكان من المتفق عليه فيما بيننا أن يتخلص كل من الخطابات بعد الرد عليها مباشرة، ذلك لأننا لم نكن لنحب أن يقع تاريخ أرواحنا عاريا فى أيد غريبة.

ولقد تعرفت أيضا على تشيشستربيل Chichester Bell . وهو من الشخصيات المرموقة. عن طريق السكن مصادفة فى البيت الذى يعيش فيه. كان إبن عم جراهام بيل مخترع التليفون وبالتالى إبن أخ ملفيل بيل مخترع الحروف الصوتية المعروفة باسم «الحديث المرئي» وكان أبوه الإسكندر بيل مؤلف «الخطيب المثالي» ويعتبر أعظم وأجل رجل عاش على ظهر هذا الكوكب أو أى كوكب آخر، كما كان أستاذ الخطابة فى مدرستى القديمة: مدرسة الطائفة الويزلية، التى تعرف حاليا باسم كلية ويزلي. ولقد أصبح تشتشستر بيل طبيبا مؤهلا بعد أن ذهب إلى ألمانيا وكرس نفسه لدراسة الكيمياء والطبيعيات فى مدرسة هلمولتز Helmholtz وكان اتصالى به ذا فائدة كبيرة لي. درسنا الإيطالية معا. ورغم أننى لم أتعلم من الإيطالية مايفيد، إلا أننى تعلمت أشياء أخرى كثيرة أغلبها فى علم الطبيعة وعلم الأمراض. وقرأت كتابات تنداں Tyndan ومحاضرات تروسو Trousseau التحليلية. كما أن بيل هو الذى دفعنى إلى دراسة فاجنز Wagner بطريقة جدية. ولم أكن قد سمعت من انتاجة شيئا سوى مارش تانهاوزر وكانت تعزفه فرقة عسكرية من الدرجة الثانية. وكان تعليقى الوحيد بعد سماع اللحن هو أن الحركة الثانية منه لاتزيد عن كونها مجرد تقليد ضعيف للحن شهير فى افتتاحية فريستشوتر الموسيقية وهى من مؤلفات ويير Weer وعندما وجدت أن بيل يعتبر فاجنر مؤلفا موسيقيا عظيما، اشتريت تسجيلا لNحدى قطعه الموسيقية، وكان هذا التسجيل هو العينة الوحيدة الموجودة فى محلات الموسيقى بدبلن. ولقد تغيرت نظرتى تماما بعد أن استمعت إلى النغمات القليلة الأولى.

وأذكر فى هذا المجال أنه عندما انفرط عقد أسرتنا وذهبت أمى إلى لندن،

وجدت نفسى فجأة محروما من الموسيقى وقد كانت غذائى اليومى طوال حياتي. لكن البيانو كان مايزال فى موضعه رغم أننى لم أكن ألمسه الا عندما أحاول عزف نغمة بسيطة بأصبع واحد. وفى قنوط اشتريت كتابا متوسط الحجم يحتوى على ما أحتاجه من مصطلحات موسيقية فنية ورسم بيانى لمفاتيح البيانو. وبعد ذلك أحضرت تسجيلات دون جيوفانى الموسيقية. من وسط التسجيلات التي كانت فى حيازة أمي. وحاولت عزف الافتتاحية. ولقد أمضيت الكثير من الوقت وأنا أحاول تدريب أصابعى على عزف النغمة الأولي. ومن العسير أن أذكر كم قاسيت وكم قاسى كل من فى البيت فى أثناء قيامى بمحاولة عزف سيمفونيات بتهوفن وماعداها من أوبرات وأناشيد دينية. ولقد تعلمت فى النهاية مايمكننى من أن أعزف أى شئ وإن لم أتمكن أبدا من السيطرة على مفاتيح البيانو. لكنى اشتركت فى عزف الكثير من المقطوعات فى بداية حياتى فى لندن، لدرجة أننى قمت ذات مره بعمل نصف أعضاء عازفى الأوركسترا الذين تغيبوا فجأة عن الحضور إلى حفل عام أقيم فى مسرح فيكتوريا بطريق ووترلو، وانتهيت من العزف دون أن تحدث كارثة. هذا بالاضافة إلى أننى كنت أغلب الوقت أفرض ذوقى الخاص فى العزف على قائد الفرقة الإيطالي، وكان شخصية محبوبة وغير ميالة للتحكم فى أعضاء الفرقة من العازفين.

لكن هذا النشاط كان خارج نطاق حياتى العملية. ولقد وضعت هجرتى نهاية له فى عام ١٨٧٦.

* * *

[٦]

نهاية كاتب حسابات في دبلن

ما الذى يحول الإنسان الى كاتب حسابات فى دبلن أو فى أى مكان آخر؟ إنك لاتستطيع ان تخلق من البدوى كاتب حسابات، لكن يمكنك بكل سهولة أن تفعل ذلك برجل إنجليزي. وكل مايجب عليك عمله هو أن تضعه فى أسرة محدودة الدخل من أسر الطبقة المتوسطة حيث لايستطيع الأب أن يعول ولده أو أن يوفر له رأسمال يبدأ به حياته أو أن يساعده على مواصلة تعليمة. لكنه فى نفس الوقت يخجل من أن يصبح ابنه عاملا يدويا. وفى مثل هذه الظروف ماذا يستطيع الإبن التعس أن يفعل الا أن يصبح كاتب حسابات؟

لقد أصبحت أنا نفسى كاتب حسابات بعد أن حصل لى عمى بكل سهولة على مكان فى مكتب راق، اذ كان هذا العم موظفا كبيرا فى أحد دواوين الحكومة وكان يتمتع بسلطة تمكنه من أن يجامل الناس أو أن يعوق أعمالهم اذا ما أثاروا فيه إحساسا بالكراهية. وكان المفروض أن أظل حتى الآن كاتب حسابات لولا أن انطلقت فى تحد واستهانة واندفاع كى أصبح عبقريا فى ميدان الأدب. ولا أستطيع أن أقول، كما يقول بعض الناجحين من الرجال: «لماذا لاتحذو حذوي»؟

أحلم فى بعض الأحيان أننى عدت ثانية الى ذلك المكتب، وقد اعترانى إحساس بأننى قد أهملت واجباتى لفترة طويلة من الوقت: لم أسحب نقودا من البنك فى الصباح ولم أودع شيئا بعد الظهر. لم أدفع اقساط التأمين ولا الايجارات ولا فوائد الرهونات. لابد وأن قد بيعت مقاطعات كاملة، وتركت الكثرة من اليتامى والأرامل تموت جوعا. هذا بجانب الرهونات التى أصبح من

العسير أن يسترجعها أصحابها، والارتباك والفوضى والخراب الشامل الذى تعرض له سادة أيرلندا. كل ذلك نتيجة إهمال. لايمكن تعليله. لواجباتى اليومية طوال عدة سنين لم يزد فيها عمرى أو عمر أى فرد آخر فى المكتب يوما واحدا. وهذا أيضا أمر يصعب تفسيره. وغالبا ما أصحوا من حلمى وأنا على وشك أن أسال رؤسائي، متذرعا بالسلطة التى حصلت عليها فى الأيام الأخيرة، عما اذا كانوا مدركين حقيقة مايحدث وعما اذا كانوا قد بيتوا النية على ترك شخص غير جدير بالثقة مثلى فى مركز له مثل تلك الخطورة.

لقد كان عملى فى بعض نواحيه أفضل بكثير من عمل معظم الكتبة. كان رفاقى فى المكتب شباب من خريجى الجامعات ومن مستوى اجتماعى طيب. ولم يكن هناك مايمنعنى من أن أتظاهر بأننى أتساوى معهم فى الدرجة والمركز. كنت أسافر بالدرجة الأولى عند قيامي بأعمال تخص الشركة. ولم تكن نفقات سفرى وإقامتى محل جدل. ولكن بما أنهم كانوا يفترضون أننى أساسا أتدرب كى أصبح فى المستقبل رجل أعمال، لذا لم يعطونى من الأجر مايكفى أبدا لتغطية نفقات معيشتي، رغم أننى. خلال السنوات الأربع والنصف التى قضيتها فى الشركة. شغلت منصبا من أكثر المناصب مسئولية. شعر المنصب فجأة عندما كنت مجرد كاتب صغير، طلبوا منى أن أسد الثغرة حيث أن طبيعة العمل كانت تحتم شغل الوظيفة الشاغرة فى الحال. وكما يحدث فى أغلب الحالات، ظللت حيث وضعونى أمارس العمل الجديد. وكان من الطبيعى أن أفضل المركز الأفضل والعمل الأكثر والمسئولية الأكبر، ما دمت سأمكث طوال اليوم بالمكتب فى أى الحالات. لم تكن المسألة مسألة مرتب كنت على استعداد لأن أتقاضى أكبر مرتب يعرض علي، الا أنهم لو أعطونى فرصة الاختيار بين مركزى ككاتب مبتدئ ومركز أحد الشركاء، لاخترت دون أدنى تردد مركز الشريك. لقد ووجهت. أثناء اسهامى فى الحركة الاشتراكية. بالادعاء القائل أن عدم المساواة فى العمل تتطلب عدم المساواة فى الأجر. هذا فى حالة ما اذا تساوى العاملون جميعا فى بقية الحقوق. ولو طلب منى أصحاب العمل أن أقوم بعمليات التنظيف التى تقوم

بها الشغالة، لطلبت منهم أن يضاعفوا مرتبى - بعد الترقية - عشرين مرة على الأقل حتى يستطيعوا التغلب على استيائى ونفوري.

كان لزاما على أبى أن يمدنى بالفرق بين ما أتقاضاه من صاحب العمل وماتتطلبه حياتى من نفقات. ولقد دفع هذا الوضع أبى الى أن يرهق نفسه فى ادارة بعض ضياع الايرلنديين من ملاك الأرض: وهو عمل كان الوكلاء - من حين لآخر - يلاقون حتفهم رميا بالرصاص فى أثناء قيامهم به. وهكذا استغلت الطبقة التى تحتكر أقوات الناس أصحاب المهنة التى تحاول أن توفر الخبز للناس. أننى أتكلم دون أى حقد أو ضغينة، ذلك لأننى أنا نفسي ورثت - بعد مدة - إحدى الضياع وأصبحت أحد المغتربين من أصحاب الأملاك. وبناء على هذا أقول انه ليس من الضرورى دائما أن نسئ الظن بكل مايتعلق بأعمال أصحاب الأرض، اذ أن بعض الملاك فى أيرلندا كانوا ينفقون على ضياعهم أكثر مما تدره عليهم تلك الضياع. ولقد أغريت زوجتى ببيع ضيعتها فى أيرلندا ذلك لأنها كانت تكلفها ستمائة جنيه سنويا.

فى عام ١٨٧٦، وكنت قد بلغت العشرين من عمري، هجرت العمل الكتابى ثم غادرت ايرلندا ولم تطأ قدماى أرضها الا بعد مايزيد عن ثلاثين عاما. وعندها اعترتنى الرغبة فى أن أمر بالمكتب القديم مرورا عابرا دون أن يكون هناك مايجبرنى على الدخول. وتصادف أن كان معى مستند فى حاجة الى تصديق مأمور اجراءات مختص. وفى أثناء مرورى بالباب القديم، رأيت بالطابق الأول مكتبا لمثل هذا المأمور الذى أريد. وهكذا دخلت ثم صعدت الى الطابق الأول، وهناك قابلنى الكاتب باحترام ظاهر وأبدى أسفه لأن رئيسه خرج منذ لحظة، وتبادلنا حديثا وديا ذكرت خلاله أننى «كنت منذ ثلاثين عاما كاتب حسابات فى مكتب العقارات الكائن بالدور الأرضي». تغير سلوك الرجل فى الحال وبإحتقار وعدم تصديق لم يحاول إخفاءهما قال: «إننى لاأتذكرك».

وتولتنى الدهشة. كان هذا الرجل يذهب يوميا الى المكتب طوال

الثلاثين عاماً التى طفت فيها أرجاء المعمورة وتحولت من شخص تافة يعمل بإحدى المكاتب الى شخص تدوى شهرته فى الآفاق، الا أنه كان يبدو أسعد منى حالا. وبالتأكيد كان يبدو انفسه أكثر منى قيمة واحتراما.



[٧]

سبع سنوات كروائي تنتهي بنجاحي كناقد

تأملنى حينذاك فى لندن وأنا فى وضع غاية فى الحرج. كنت غريباً وأشد الغرباء غربة هو الايرلندى الذى لم يحصل على درجة من إحدى الجامعات البريطانية. وكما سابين الآن، لم أكن متعلما. لكنى كنت أعرف مالا يعرفه خريجو أية جامعة انجليزية ولم أكن بدورى أعرف مايعرفون وأن عرفته فلم أكن لأمن به. كنت صلب الرأى وتعوزنى كياسة أهل المدينة. كان على أن أغير عقلية لندن حتى أستطيع أن أحصل على شئ من التسامح والقبول.

رفضت لندن أن تتحملنى بأية حال من الأحوال. لم تقبل لى سوى مقالة واحدة درت على خمسة عشر شلنا. عرض على ناشر بعض ما أشتراه من صفائح صور قديمة وطلب منى أن أزود كل صورة بعدة أبيات شعرية حتى يستطيع أن يتقدم بها للفوز بأحدى جوائز الكتب المدرسية. وعبرت عما أراد بطريقة هزلية ساخرة، ثم أرسلت له ماكتبت على سبيل المزاح. ولشد ماكانت دهشتى عندما وجه لى الشكر مرفقا بخمس شلنات. ومتأثرا بما فعل، كتبت له قطعة شعرية جادة كى يرفقها بصورة اخري، لكنه إعتقد أننى أداعبه بطريقة غير مقبولة. وهكذا انتهى مستقبلى كشاعر. وحدث أن حصلت على عمل بخمسة جنيهات، لكنه لم يكن مقدما من رئيس تحرير أو ناشر. لقد عرضه محام صديق، طلب منى أن أكتب له مقابلة طبية. وكان من الواضح أنه يريد استخدامها فى قضية خاصة بالأدوية المسجلة. ولم أستطع أن أتبع هذا النجاح بنجاح آخر. كان جملة دخلى ستة جنيهات فى تسع سنوات. ورغم ذلك كان كل من حولى يقولون أننى محدث نعمة.

فى عام ١٨٨٥ وجدنى وليم أرشر William Archer فى قاعة القراءة بالمتحف البريطانى وأنا منهمك فى قراءة النسخة الفرنسية - ترجمة Deville - من كتاب كارل ماركس «رأس المال» وبجانبها مخطوط فاجنر لأوركستر «تريستان وازولد Tristan and Isolde».وتولى وليم أرشر رعاية شئونى بنجاح كبير لدرجة أن مجلة بول مول pall Mall، وكانت ماتزال بارزة حتى ذلك الحين، أرسلت الى بعض الكتب كى أقيمها تقديا. وعهد الى أرشر بعمل الناقد الفنى فى مجلة «العالم The World» وكان أرشر نفسه يقوم بهذا العمل بجانب عمله كناقد مسرحي. وفجأة بدأت أكسب الكثير من المال: ١١٧ جنيها فى العام الأول.

كان أرشر اسكتلدنيا تعلم اللغة النرويجية على يد بعض أقاربه وقرأ «ابسن Ibsen» وانسحر به. ثم نقل إلى بدوره أثر هذا السحر. ولقد شكل حبنا لابسن وعداؤنا للكنيسة رباطا قويا جمع فيما بيننا. لكنه رغم ذلك عندما عرض على أن نشترك معا فى كتابة مسرحية يعد حبكتها وأكتب حوارها، كانت الحبكة التى أعدها «مبنية» بكل دقة وفق الخطوط التقليدية السائدة.

واقترح أرشر أيضا أن نشترك فى كتابة مسرحية كان قد أعد حبكتها بطريقة بارعة على غرار مسرحيات سكرايب والمدرسة الفرنسية. وانتهيت من كتابة فصلين دون مراعاة لتلك الخطوط الفنية التى حددها مما دعاه إلى الإحجام عن المشاركة فى الكتابة وقد تركت الفصلين مهملين لمدة ست أو سبع سنين وفى أثناء تلك الفترة قرأتهما لهنرى آرثر جونز وكان حينذاك فى قمة مجده ككاتب مسرحي وكان تعليقه «واين الجريمة؟».

وأخيرا بدأ أحد المتحمسين لابسن، وهو إنجليزى من أصل هولندى ويدعى «جرين»، فى تكوين فرقة مسرحية أطلق عليها اسم «المسرح الحر». وبعد عرض موفق لبعض أعمال ابسن أعلن جرين أنه يوجد فى انجلترا مئات من الروائع المسرحية التى لم تمثلها المسارح التجارية.

ولكى أثبت صحة ماقاله جرين قدمت له الفصلين الذين كتبتهما منذ عدة سنين بعد أن أضفت اليهما فصلا ثالثا، ولم تستمر المسرحية لأكثر من عرضين، أثار أولهما خليطا من التصفيق والصفير الذى واجهته بالقاء كلمة ناجحة أمام الستار. وقوبل العرض الثانى باستحسان اجماعى تلته مناقشة استمرت اسبوعين على صفحات الجرائد. وقد شجبت بأننى مؤلف كتيبات مجرد من الموهبة الدرامية. لكن المؤثرات المسرحية التى أعددتها تمت بنجاح وهذا ما أقنعنى بأننى بالسليقة أستاذ فى فن الكتابة المسرحية.

وفى عام ١٨٨٨ أسست جريدة « النجم Star ». وبناء على نصيحة هـ.ج ماسينجهام دعيت للانضمام إلى هيئة تحرير الشئون السياسية لكنهم لم ينشروا مقالاتى باعتبارها غير صالحة للنشر، وقد اقترحت على سبيل المراضاه أن يعطونى عمودا أسبوعيا أملأه بمادة غير سياسية، ولتكن الموسيقي. وكان هذا العمود الموقع بإسم كورنودى باسيتو (الإسم الإيطالى للسونة وهلى آلة موسيقية للزمر) خليطا من السخرية والنقد الخالص. وكان عملا ناجحا.

وفى عام ١٨٩٠ وقع المرحوم لويس انجل فى مشكلة فرضت عليه مغادرة البلاد وكان انجل زميلا لآرثر فى « العالم » وأحسن ناقد موسيقى مكروه فى أوربا وفى الحال أكد آرثر لادمند بيتس رئيس التحرير أن كورنودى باسيتو هو الشخص الوحيد الذى يمكنه شغل الفراغ الذى تركه بيتس. وتركت « النجم » لأكتب صفحة أسبوعية عن الموسيقى فى « العالم ». وواظبت على كتابة تلك المقالات الأسبوعية حتى موت بيتس عام ١٨٩٤. وعندها شعرت بأننى لابد أن أبحث عن رئيس تحرير آخر له نفس صفات بيتس: شخص لايخاف الابداع والتجديد الذى يجعل من النقد شيئا جديرا بالقراءة. وبناء على ذلك قدمت استقالتي. وفى عام ١٨٩٥ قبلت وظيفة ناقد مسرحى عرضها على فرانك هاريس رئيس تحرير « نساترداى رفيو Saturday Review » وكان هاريس قد هاجر إلى أمريكا حيث غامر كراع من رعاة البقر وكعامل فى بناء جسر بروكلين وكمدير فندق وكمحام. ولقد عاد إلى انجلترا بأخلاق وطباع وأسلوب

انسان تعود المغامرة وألفها. هذا بالاضافة إلى صوت وفصاحة أكسباه تميزا شخصيا مؤثرا وضمنا له مكانا مرموقا - مهنيا وسياسيا - فى المجتمع الانجليزي. لكنه كان يؤثر الأدب ويميز بين جيد الكتابة ورديئها مع تفضيله للجيد منها. ولم يكن يخاف الهرطقة أو يعرف فى الواقع مقدار خطورتها ذلك لأنه كان يؤمن بنفسه كقديس صاحب رسالة ولايشك مطلقا فى أن لندن قد تأخذه بكل بساطة على أنه «كابتن كيد» آخر.

وباختصار كان عين الرجل الذى أريد، كما كنت أنا أيضا عين الرجل الذى يناسبه. كنت أعرف أنه سيتنمر فى معاملتنى اذا لم أسبقه أنا إلى فعل ذلك بطريقتى الايرلندية الخاصة. وبناء على ذلك عاملته بنفس الأسلوب الذى كنت أعامل به بيتس وإتفقنا على ستة جنيهات فى الأسبوع، رغم أن بيتس كان يدفع خمسة جنيهات فقط وهو أجر طيب فى تلك الأيام.

وفى الحال ازدادت شهرتى كناقد ازديادا سريعا ذلك لأن الدراما كانت أكثر انتشارا من الموسيقي. ولعدة سنين كان نادرا مايظهر اسمى مطبوعا دون أن أوصف بأننى «لامع». وكنت أكره تلك الصفة اذ كانت توحى بسطحية براقة أنفر منها وأكرهها. لكنها لازمتنى ولم أستطع الخلاص منها.



[٧]

فى أيام شبابى

نشر هذا الخطاب فى مجلة للمرحوم (ت.ب أوكونر) كانت تصدر تحت عنوان «عن الناس على الأخص».

تاريخ النشر: ١٧ سبتمبر ١٨٩٨

عزيزى ت.ب :

أن كل السير الذاتية أكاذيب. أنا لا أعنى أكاذيب غير مقصودة أو غير متعمدة، اذ لم يبلغ إنسان من السوء درجة أن يقر أثناء حياته بحقيقة نفسه التى لابد وأن تتضمن الاقرار بحقيقة أسرته وأصدقائه وزملائه. كما أنه لم يبلغ إنسان من الطيبة درجة أن يقول الحقيقة للأجيال القادمة فى وثيقة يبقيها طى الكتمان الى مابعد وفاة كل من يستطيع معارضته فيما جاء بها.

إننى أتكلم فى هذا الموضوع بثقة متزايدة، ذلك لأننى خضت على استحياء وفى حدود معينة تجربة الترجمة الذاتية الصريحة. لكننىَ لم أترك إنطباعا مؤثرا. لم يصدقنى أحد على وجه الإطلاق.

انجبت أم أبى خمسة عشر طفلا فى الأثنين والعشرين عاما الأول من زواجها ولربما كان من الممكن أن تنجب خمسة عشر آخرين لو ظل زوجها بعد تلك التجربة على قيد الحياة. ولقد استطاعت أن تربى منهم احدى عشر. وهكذا زودتنى جدتى عن أبى بهذا العدد من العمات والأعمام وبعدد لايحصى من بنات وأبناء العمومة. ولقد تزوج والد أمى مرتين وأنجب ثمانية أطفال مات منهم واحد فقط دون زواج ودون أطفال.

ان أمثال تلك العائلات نادر حاليا: لكن وجودها فى أيرلندا فى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن ليثير قلق أحد مهما بلغت درجة اعالتنا لها من السوء. ومثل أغلب العشائر المتميزة بالخصوبة لم يكن بين أفراد عشيرتى من نبذ المسكرات نبذا كليا، كما أن أغلب أعضائها لم يظلوا حتى الممات متمتعين بكامل قواهم العقلية. لقد توصل أحدهم الى طريقة انتحار جديدة ومبتكرة تماما اذ لم يفكر فيها مخلوق من قبل رغم بساطتها البالغة. هذا بالاضافة الى أنها كانت طريفة ومضحكة. لكن أثناء تنفيذها حزق قريبى بشدة أوقفت دقات قلبه ومات قبل أن ينجح فى قتل نفسه بلحظة واحدة. ووجد المحققون أن موته يرجع لعوامل طبيعية وظلت عملية الانتحار سرا خافيا، ليس عن الجمهور فحسب ولكن أيضا عن معظم أفراد الأسرة.

وكشفت عن هذا السر فى حديث خاص لى مع دوكلى الذى انفجر ضاحكا ثم نشر القصة كلها فى مقالته التالية. ولم يطرأ على باله ولو للحظة واحدة أن القصة حقيقية. ويمكنك أن تتصور الى أى حد كان موقفى شائنا بالنسبة لأرملة قريبى وأخوته.

ولقد حدث مرتين فى حياتى أن أعطيت المحامين بعض التعليمات الصريحة الواضحة، ولكم كانت دهشتى عندما وجدت أنهم لم ينفذوا منها شيئا. لقد ظنوا أن ماقلته لابد وأن يكون مزاحا، أو مجرد مبالغة.

واذا ماحاولت أن أكتب هنا سيرة ذاتية صادقة فاننى سأواجه نفس المشكلة: سأسيئ اساءة بالغة لقليل من الأقارب الذين يعرفون أننى أكتب الحقيقة: وفيما عدا هؤلاء لن يصدقنى أحد.

زد على ذلك أننى لم أتأكد بعد من حقيقة ذاتي. فأنا لا أعرف على سبيل المثال حدود تعقلى وجنوني، فقد مكنتنى موهبتى المتميزة من أن أنال حظا من الشهرة فى لندن. لكن - وكما حدث فى حالة دون كيشوت - قد يصبح الإنسان شخصية مرموقة رغم جنونه الكامل.

منذ عهد قريب اتهمني أحد النقاد بأنني أكن شعورا رقيقا بالكراهية لبقية أفراد البشر. ولو وصف احساسي على أنه فزع لا كراهية لكان أقرب الى الحقيقة. ذلك لأن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يثير فى احساسا جبانا بالخوف الكامل. إننى لا أفكر كثيرا فى مقدار الشجاعة التى يتمتع بها مروض الأسود. إنه فى داخل قفص الأسد يكون على الأقل فى مأمن من شرور الآخرين وليس هناك مايخيف من أسد يجد مايكفيه من طعام، ذلك لأنه لايعتنق مبادئ ولاينتمي الى جماعات أو أحزاب أو الى دولة أو طبقة: باختصار ليس هناك مايدفعه للقضاء على شئ لايريد أن يأكله. لقد أحرق الأمريكيون الأسطول الأسبانى فى الحرب المكسيكية وجاؤا أخيرا الى جر الجرحى من هياكل المراكب التى غدت كالجحيم. وكان تأثير هذا على أحد القادة الأمريكيين أن جمع رجاله وأخبرهم بأنه يرغب فى أن يعلن أمامهم أنه آمن بالله العلى القدير. ذلك مالن يقدم على فعله أى أسد. وحين قرأت الخبر ولاحظت أن الصحف المعبرة عن الرأى العام تعتبر ذلك الحدث ضربا من ضروب الورع الطبيعى المؤثر والجدير بالاكبار، عندها استنتجت أننى لابد وأن أكون مجنونا. أما اذا كنت عاقلا على أية حال من الأحوال فإن بقية العالم لابد وأن يكون على النقيض. اننا لانستطيع أن نتفق على حقيقة مانراه من أشياء.

كان أبى سيدا أيرلنديا بروتستانتيا. لم يحصل على أى ميراث لأنه كان أصغر الأبناء. لم يتعلم حرفة ولم يكتسب مهارة يدوية، كما أنه لم يحصل على مايؤهله للقيام بأى عمل اجتماعى محدد، لكنه كان يعرف القراءة والكتابة والحساب وان لم يجده اجادة كاملة. وهذا مايدعونى الى الاعتقاد بأنه تلقى شيئا من التعليم الأولي. كما ان حديثه ومظهره كان يوحيان بأنه سيد أيرلندى متعلم وليس حمالا فى محطة. لكنه لم يحصل بالتأكيد على درجة جامعية ولم أسمعه اطلاقا يتحدث عن أى مدرسة أو كلية مدعيا أنه أحد خريجها. وعلى أية حال لقد نشأ على الإيمان بأن كل أفراد أسرة شو يتمتعون بنبل فى الطبع يرجع أصله الى شرف أنتمائهم كحلفاء لوليم الفاتح

(وليم الهولندى صاحب الأعمال الورعة والذكرى الخالدة، لا المغامر النورماندي) وكملاك لكثير من الضياع فى أيرلندا أو كأقرباء لهؤلاء الملاك. وانتقل نوابغ الشباب من أسرة شو الى دبلن حيث أسس أحدهم « البنك الملكي » الذى كان يطلق عليه الطاعنون فى السن أيام طفولتى اسم « بنك شو ». ولقد أصبح هذا الشاب فيما بعد بارونا ومؤسسا لبوشى بارك: موطن عائلة شو فى دبلن. وكان أبى أحد أبناء عمومة البارون وعلى ذلك فقد كان من حقه حضور الجنازات وبعض الحفلات العائلية التى تقام فى بوشى بارك. لقد كان كل أفراد عائلة شو بحكم الضرورة بروتستانت ونفاجين (مقلدين لمن هم أفضل منهم) وطبقيين.

ومعتمدا على مايدعيه من تميز طبقي، وبعد أن تنازل مرة أو مرتين وقبل القيام ببعض الأعمال الكتابية، استطاع أبى وبقدر كاف من النجاح أن يثبت أن لعائلته حقا على الدولة. ولقد حصل على وظيفة فى قصر العدالة الأيرلندى نتيجة لذلك. لكن الوظيفة ألغيت وأحيل أبى الى المعاش. وباع أبى المعاش وبدأ يتخذ من الاجراءات مايمكنه من مباشرة تجارة القمح التى لم يكن يعرف عنها شيئا على الاطلاق، وفى تقديرى أنه لم يعرف عنها الكثير حتى يوم مماته. كانت هناك طاحونة تبعد قليلا عن البلدة. وكان من الممكن أن تغطى تكاليفها طالما استمرت آلاتها فى الدوران، لكنى اعتقد أن فائدتها الرئيسية كانت تكمن فى توفير نوع من التسلية لى ولرفيقى المرحين، ابنى شريك أبي.

وفيما يتعلق بجماعة البروتستانت فإنى أعتقد أن أيرلندا هى أكثر بلدان العالم كفرا وتجديفا. لقد عمدنى عمى ولم يحضر أبى الروحي لأنه كان سكرانا وعلى ذلك فقد أمر أحد العاملين بالكنيسة أن يحل محله فى الوعد والقسم. ولقد فعل ذلك بنفس البساطة التى يضع بها مزيدا من الفحم فى نار منتدى الأبرشية. ولم أمنح التثبيت الدينى يوما ولا أعتقد أن أبواى قد منحاه على وجه الاطلاق. وليس عندى أدنى فكرة عن جدية هذا الطقس الدينى بالنسبة للأسر الانجليزية، ذلك لأن البروتستانتية الأيرلندية لم تكن دينا حتى

ذلك الحين: لقد كانت جانبا من جوانب الشقاق السياسى ونوعا من التحيز الطبقي واقتناعا بأن الكاثوليك التابعين لكنيسة روما منحطون اجتماعيا وسوف يذهبون بعد الموت الى الجحيم. تاركين الجنة ملكا خالصا للسادة والسيدات البروتستانت. وكانوا يبعثون بى في طفولتى كل يوم أحد الى احدى مدارس الأحد حيث يردد الصغار من أبناء الأثرياء آيات الكتاب المقدس ويكافأون ببطاقات نقشت عليها تلك الآيات. وبعد ساعة من الترتيل كنا نسير الى الكنيسة المجاورة فى آخر شارع ليسون لنجلس حول قضبان المذبح ونظل نتململ بطريقة كانت لابد وأن تدفع الجالسين بالقرب منا الى أن يتمنوا كما كنا فى أعماق قلوبنا نتمنى أن تنتهى الطقوس والصلاة. وكنت أحتمل كل هذا لا من أجل خلاص روحى ولكن من أجل سمعة أبى وماتتطلبه من احترام. لكننا تحللنا من هذه الطقوس ولم نعد نمارسها أبدا بعد أن انتقلنا الى دوكي.

لقد ساعد عدم ذهاب الطبقة العاملة الى الكنيسة على تحويلها الى مأوى لكل الرذائل الاجتماعية. ان الفقراء فى انجلترا يحظون بعناية رجال الكنيسة الذين ينتشرون بينهم ويبذلون قصارى جهدهم كى يقنعوهم بالذهاب الى الكنيسة، أما الفقراء فى أيرلندا فلم تكن لهم أدنى صلة بالكنيسة البروتسانتية ذلك لأنهم كانوا كاثوليك يتبعون كنيسة روما (وكان جدى يطلق عليهم اسم البابويين) ولا أستطيع القول بأن البروتستانت فى أيرلندا أيام كنت أعيش هناك كانوا أكثر سوءا مما هم عليه الآن بسبب مايسمونه دينهم. اننى لا أستطيع أن أتحدث الا عمن عرفتهم فقط.

تخيل أنك تعلمت أن تحتقر العامل وأن تحترم السيد الماجد فى بلد يسيطر الفقر فيه على كل مظاهر السيادة المهلهلة! تخيل أنك تعلمت أن هناك الها واحدا - سيدا بروتستانتيا يبلغ من الكمال أمثلة - يحتفظ بالجنة مختاره لأفاضل البشر، ويحرمها على دعى وثنى اسمه البابا! تخيل مزاعم طبقة الأشراف الانجليزية فيما يختص بدخل الطبقة المتوسطة! أتذكر أن

ستيفورد Stopford اخبرنى ذات يوم أنه يستشف من بين صفحات كتبى كراهية عميقة ومهينة للمجتمع. حدث ولاعجب!.

ولربما كان من الممكن أن أنظر الى هذه الأشياء فى هدوء لو لم أقاس منها فى طفولتي. ولايرى الغريب عن البلدة الا مايضحكه فى ذلك المنظر المحزن لمجموعة من التجار البروتستانت فى بلد كاثوليكى تقودهم طبقة ثرية تافهة يتكون أعضاؤها من سماسرة البورصة والأطباء ووكلاء الأرض، وتخدعهم تلك المجموعة من السادة أصحاب الأرض الذين ثقلت ديونهم لدرجة أنهم لم يستطيعوا الفرار الى لندن، ولهذا كونوا مايسمى بلاطا وارستقراطية يرأسها أحد المنفيين من رجال البلاط بعد أن حثوه على قبول القيام بعمل نائب الملك مقابل ٢٠,٠٠٠ جنيها فى العام وهكذا جعلوه يعيش فى حالة من الافلاس الدائم، لكنهم فى نفس الوقت جعلوا من زوجته نائبة للملكة. ووسط هذه المظاهر الخادعة والأكاذيب المستمرة. فيما يتصل بالدخل والمركز الاجتماعي. ضاعت كل حقائق الحياة.

والآن ماهى القوة العقائدية التى وجدتها فى أيرلندا بدرجة تكفى لتخليصى من رجس هذه الوحشية؟ بكل بساطة كانت قوة الفن. ولقد تصادف أن كانت أمى تتمتع بموهبة موسيقية رائعة. وكان عليها كى تمارس هوايتها وتشبع رغبتها، أن تتصل بأناس على نفس القدر من الموهبة. ومن هنا بدأ الشك يساورنى عما اذا كان من الممكن أن يكون الله فى الواقع بروتستانتيا طيبا، ذلك لأن أفضل وأروع الأصوات التى كانت تتفاعل مع صوت أمى فى تقديم أعمال أعظم المؤلفين الموسيقيين كانت أصواتا كاثوليكية. كما ثارت شكوكى أيضا فيما يختص بمسألة السيادة والتمييز الطبقى ذلك لأن بعض هؤلاء المغنيين كانوا بلاشك من الباعة وأصحاب المتاجر. فإذا كان أفضل من يغنى بالصوت الثالث (أعلى أصوات الذكور) محاسبا على الأقل وهو بلاشك كاثوليكي، فإن مغنى الأدوار الهزلية لم يكن سوى بائع أقلام وورق، ولم يكن هناك خيار: كان لزاما على أمى - كى تخرج

عن نطاق مايقدم فى الصالونات من أناشيد تافهة ـ أن تتصل بمن يملكون نفس الموهبة الفنية دون مراعاة لحاجز الطبقة أو العقيدة. وفى الواقع كان من الواجب عليها أن تسمح للقساوسة الكاثوليك بالاقتراب منها والتعامل معها كما كان عليها أن تلبى دعوتهم فى أن تدخل الكنيسة الكاثوليكية وأن تغنى هناك قداس موزار.

واذا كان الدين هو مايربط الناس بعضهم ببعض والكفر هو مايفرق بينهم فلابد وأن أشهد اذن، بأننى وجدت دينى ودين بلدى فى عبقريته الموسيقية ووجدت كفره داخل كنائسه وصالوناته.

دعنى أضيف كلمة شكر وامتنان للمعرض الوطنى الأيرلندى وقد كان مأواى المحبب أيام طفولتي. وأعتقد أننى الأيرلندى الوحيد الذى تعود ارتياده، هذا اذا ما استثنينا العاملين به. لكننى أعرف أنه أفادنى بما لم تفدنى به الكاثدرائيتان القديمتان المصادرتان اللتان أعادتهما أرباح تجارة الخمور الى مجدهما الأول.

ومن الطبيعة أيضا يتعلم الإنسان أينما كان. أنها تطبع الكثير من الأيرلنديين بطابع الحزن وتدفعهم الى البكاء على الأيام الخالية. لقد عرض على بالأمس فقط أن أساهم فى رفع شأن بلدى المهان وذلك بأن أجتمع وبعض الأيرلنديين كى نمجد أحداث عام ١٧٩٨. ان ماحدث عام ١٧٩٨ لايثير فى أقل القليل من الإهتمام.

وحتى يحين الوقت الذى يفكر فيه الأيرلنديون جديا فيما ستكون عليه حالة أيرلندا عام ١٩٩٨ فإنهم لن يحصلوا الا على النذر اليسير من وطنية.

المخلص: ج. برنارد شو

لندن: ١٨٩٨

[٩]

من أنا ؟ - وفيما أفكر ؟

ظهرت هذه الرسالة على صورة سؤال وجواب فى عددين من: « الصديق صدوق » وهى مجلة لم يقدر لها الاستمرار طويلا .

١١ : ١٨ مايو ١٩٠١ :

تطلب منى أن أخبرك بشئ عن أبوى ومدى تأثيرهما فى حياتي : من المحال أن أعطيك صورة شاملة كاملة عن نفسى فيما يقل عن عشرين مجلدا . دعنى أخبرك بقصة عن أبي . عندما كنت طفلا أعطانى أول درس فى السباحة ى خليج كيلنى وقد قدم الدرس بخطبة بالغة الجدية عن اهمية تعلم السباحة وبلغت كلماته ذروتها عندما قال :

لقد مكنتنى درايتى بالسباحة وأنا صبى فى الرابعة عشر من عمرى من أن أنقذ حياة عمك روبرت » وعندما رأى شدة تأثرى انحنى ثم همس فى أذنى بطريقة تنم عن ثقته بى « وأقول لك الحقيقة أننى لم أندم فى مستقبل حياتى على شئ مثلما ندمت على فعل ذلك » . وبعدها غطس فى مياه المحيط وأمتع نفسه تماما بسباحة منعشة وظل يقهقه طوال الطريق الى البيت .

إننى لم أتعمد أبدا استخدام أسلوب الانتقالة المفاجئة من الرفيع الى التافة . ان ذلك يظهر فى أعمالى بصورة تلقائية . لكن هنالك بلاشك شئ من الصلة بين قهقهة أبى وماتثيره وسائلى الكوميدية فى أرجاء المسرح .

- متى شعرت لأول مرة بميل للكتابة ؟

ماشعرت يوما بميل للكتابة . لقد كانت الكتابة بالنسبة لى كالتنفس

مجرد عملية طبيعية. ولم يدر بخلدى يوما أننى أتمتع بحاسة أدبية متميزة. كنت أعتقد أن هذه الحاسة شائعة بين كل الناس، ذلك لأن الإنسان الذى يتمتع بموهبة طبيعية لايفكر طويلا فى مقدار اعجازها. ان هواة الفن وجامعية والمتحمسين له هم أولئك الذين لايملكون المقدرة على انتاجه ومثلهم كمثل الفينيسى الذى يريد أن يصبح فارسا، والطائر الذى يرغب فى السباحة. ماأردت الكتابة قط. إننى أعرف الآن بالطبع ان الملكة الأدبية شئ نادر الوجود، لكننى رغم ذلك لا أريدها. انك لاترغب فيما تملك.

● فى أى صورة أخرجت أول عمل أدبى لك؟

أتذكر فى ابهام أننى عندما كنت صبيا كتبت قصة قصيرة وأرسلتها الى احدى صحف الأطفال. كانت عن رجل يهاجم ببندقيته رجلا آخر فى واد ضيق بالبادية. وكانت البندقية هى محور اهتمامي. ولقد ساعد تراسلى وادوارد ماكنلتى على إنماء طاقتى الأدبية الناشئة.

وبعدها أخذت فى تبادل الرسائل لمدة أطول من سابقتها لكن هذه المرة مع سيدة انجليزية تدعى (الينور هودارت) وقد كان بإمكان هذه السيدة أن تنال حظا من الشهرة عن طريق رواياتها المتقدة بالخيال لو أننى استطعت اقناعها بنشر اسمها الحقيقي، أو على الأقل باستخدام نفس الإسم المستعار بدلا من تغييره كلما نشرت إحدى رواياتها.

ونتيجة لهذا التأثير كانت أول أعمالى الروايات الخمس التى كتبتها مابين عامي: ١٨٧٩و ١٨٨٣ والتى لم أجد لها ناشرا. وبعدها أخذت فى كتابة مسرحية من اللون العاطفى الدنس وأظهرت أم البطل فى صورة امرأة سليطة صخابة. لكننى لم أكمل هذه المسرحية أبدا. ومن حسن حظى أننى كنت أفشل دائما ككاتب عبثى ولم تنجح أى من محاولاتى فى تناول الفن من أجل الفن: كانت عديمة الجدوي، تماما كطرق المسامير فى صفحات من الورق.

● تسألنى عن بداية اهتمامى بالسياسة وعن مدى تأثيرها فى عملي:

حسنا، أنت تعرف كيف استمعت فى بداية الثمانيات الى هنرى جورج وهو يتحدث. وتعرف أيضا كيف وجه نظرى الى أهمية الاقتصاد، وقرأت ماركس وأقول ان السر الحقيقى لقوة ماركس يكمن فى التجائه الى اثارة احساس مبهم فى صدور الآخرين. أقصد كراهية القطاعات الكريمة المتعلمة لمؤسسات الطبقة الوسطى التى أوهنتهم وخيبتهم وضللتهم وأفسدتهم روحيا منذ الطفولة. لم يكن ماركس عندما كتب رأس المال يكتب مقالة عن الاشتراكية. إن ماكتبه يعتبر مرثاة ضد البرجوازية مدعمة بأسانيد رسمية تفندها عبقرية يهودية غير متسامحة. لقد وجه ماركس كتابه للطبقة العاملة. لكن العامل يحترم الطبقة البرجوازية ويريد هو نفسه أن يصبح برجوازيا. ان الثائرين من أبناء الطبقة البرجوازية نفسها هم الذين صبغوا العلم باللون الأحمر: لاسال وماركس وليكبخت وهيندمان (أضف اليهم لينين وتروتسكى وستالين). هؤلاء هم الذين صبغوا العلم باللون الأحمر وهم جميعا ينتمون، كما أنتمي، الى الطبقة البرجوازية. أما عن باكونين وكروبتكين. يسارنا الفوضوى المتطرف. فقد كانوا ينتمون الى طبقة النبلاء والعسكريين. ان المفلسين من أبناء الطبقة المتوسطة هم عنصر الثورة فى المجتمع، أما الرعاع فهم العنصر المحافظ. وذلك مايعرفه جيدا الديمقراطى المحافظ: درزائيلي. لقد جعلنى ماركس أعتنق الاشتراكية وأنادى بها وأنقذنى من أن أصبح مجرد رجل صناعته الأدب.

● ماهو أول نجاح حقيقى لك؟ حدثنى عن شعورك نحوه.

● هل يئست يوما من النجاح؟

لم أحظ به أبدا. ان النجاح بهذا المعنى هو ذلك الشئ الذى يأتيك ويبهرك كما حدث فى حالة بيرون وديكنز وكيبلنج. ان ما أتانى كان فشلا متكررا. وعندما حان الوقت الذى تخلصت فيه من الفشل كنت قد أكتسبت

من المعرفة مايغنينى عن التفكير فى النجاح أو الفشل.

● هل يقف الفقر فى طريق النجاح أم يدفع اليه؟

ان الفقر وضيق وقت الفراغ فى مجتمع اشتراكى يسببان عقما مهلكا لتلك القلة القليلة من الناس التى وهبها الله القدرة على التفكير والتدبير والتى بدونها تصبح الاشتراكية ضربا من ضروب المستحيل.

أما اذا كنت تقصد الافلاس الخفيف الوطء، فإن كل ما أستطيع قوله هو أن مجتمعنا قد نظم بطريقة عشوائية بحيث أصبح من المستحيل أن تقول أيهما أكثر اعاقة لتقدم الكاتب وتطوره: المال أم الحاجة إليه، إننى لا أستطيع الإقدام على إعادة كتابة رحلة الحاج وفورس كلافيجرا بعد عكس وضع الكاتبين من الناحية الاجتماعية اى بتخيلى أن بنيان كان سيدا مقتدرا وأن راسكين كان سمكريا. لكن ربما لا أكون واثقا من أن الحاجة الى المال تشكل عائقا فى طريق رجل فقير أو أن وفرته تفسد رجلا غنيا، الا أننى فى نفس الوقت متأكد تمام التأكد أن أسوأ الناس حظا هم أولئك الذين ينتمون الى تلك الطبقة التى تملك مظاهر وتحيزات وعادات الأغنياء دون أن تملك مالهم، والتى تعانى فقر الفقراء دون أن تملك صراحة الاعتراف بالفقر، هؤلاء الذين لايذهبون الى المسرح لأنهم لايستطيعون الجلوس فى مقاعد الصدارة ويخجلون أن يراهم الناس فى أعلى المسرح. ان تهبط من أوج مجد البرجوازية وملكية الأرض الى أحط الدرجات التى يكف فيها حفيد الابن الأصغر عن الصراع من أجل المحافظة على المظهر عندما لايستطيع أن يجعل ٣٠٠ جنيها تبدو وكأنها ٨٠٠ جنيها فى أيرلندا واسكتلندا، أو الخمسمائة جنيها تبدو وكأنها خمسة آلاف فى لندن، أن لاتتلقى العلم فى مدرسة عامة أو مدرسة فنية أو جامعة ولكن فى أكاديمية رخيصة خاصة بأبناء السادة، أن تبعد الفقراء عن قائمة زياراتك ثم تجد بعد ذلك أن بقية العالم يبعدك: هذا هو الفقر فى ألعن درجاته. الا أنه رغم ذلك كان نبعا فاض بالكثير فى أدبنا وصحافتنا. فكر فى اذلال كبرياء الصبى ديكنز وهو يعمل فى مستودع دهان الأحذية، وفيما سببته له أمه من

إستياء لازمه طوال حياته عندما طلبت منه أن يستمر فى ذلك العمل. فكر فى ترولوب وهو يذهب الى احدى مدارس الطبقة العليا مرتديا بنطلونا ممزقا ذلك لأن أباه لايستطيع أن يقنع نفسه بالاستغناء عن أحد الخدم. آه! كن أفاقا أو كن مليونيرا: كلاهما لايعنى الكثير. أما مايعنى فهو أن تكون فقيرا ذا أقارب أغنياء. وهذا هو البلاء نفسه.

وأتت الشيوعية لنجدتي. فمع أننى كنت خاوى الوفاض تقريبا الا أنه كان فى متناول يدى. دون دفع إيجار أو مرتب خدم. ملكية رائعة فى بلومزبرى ومعرض صور لايقدر بثمن فى ميدان ترافلجار وآخر فى ساحة هامبتون. ولقد منحتنى الطبيعة من المقدرة العقلية ما مكننى من الاستفادة بكل هذا الثراء. أما عن الموسيقى كمهنة فقد حصلت فى الواقع على مقابل فيما بعد وذلك عندما ارتويت بأفضلها من أول لندن حتى بافاريا. أما عن الأصدقاء فقد كانت قائمة زياراتى لاتقدر بثمن!

وعلى أية حال ماذا كنت أستطيع فعله بنقود تزيد عن حاجتى للطعام ولكساء والمسكن؟ سجائر؟ أنا لا أدخن. خمر؟ أنا لا أشرب. ثلاثين حلة من فاخر الثياب؟ إننى لا أقبل اى دعوة عشاء توجه الى من أناس يؤمنون بإرتداء مثل تلك الأشياء. إننى أستطيع شراء كل هذه الأشياء حاليا. لكنى لا أشترى شيئا لم أشتره من قبل. زد على ذلك أننى أملك خيالا. وكان كل مايجب على فعله منذ وعيت الذاكرة هو أن أغمض عينى كى أصبح ما أبتغى وأفعل ما أشاء. أى لذة أجدها أنا، جورج برنارد ساردانابلوس، فى مباذخ شارع بوند؟ لقد استنفذت كل أحلام اليقظة الرومانسية قبل أن أبلغ العاشرة من العمر. ان كتاب قصصكم المشهورين يكتبون الآن قصصا كنت أحكيها لنفسى قبل أن أبدل أول مجموعة من أسناني.

سأحاول يوما أن أضع أسسا أصيلة لسيكولوجية الفن الروائى وذلك بأن أكتب تاريخ حياتى كما أتخيله: المبارزات والمعارك وجولات الغرام مع الملكات وما الى ذلك. وتكمن الصعوبة فى أن الجزء الأكبر من هذا التاريخ

مثير جنسيا وبطريقة غير مهذبة، وهذا مايجعل نشره شيئا غير محبب لنفس أى كاتب يتمتع بشئ من الكياسة والرقة (عندما كتبت هذه الكلمات عام ١٩٠١ لم أكن أتخيل أن كاتبا مجردا تماما من الكياسة كسيجمند فرويد يكن أن يظهر بين الناس بل ويبلغ من الشهرة والمقدرة على التنوير. بسبب نقص فيه. ماقد يبلغه رجل أعمى بكتابة مقالات عن فن التصوير).

● مارأيك في الصحافة كمهنة؟

الصحافة اليومية لكونها فوق طاقة البشر وتحملهم تعود الأديب على ترقيع عمله. لكنه من الممكن على الأقل كتابة المسلسلات الأسبوعية. لقد واظبت على كتابة احداها لمدة عشر سنوات متحملا كل ماأستطيع تحمله من معاناة فى سبيل الوصول الى عمق كل جملة أكتبها. وهناك طيش لايمكن وصفه. طيش وليس تفاهة. شئ عفريتى فى النتائج التى قد يتوصل اليها كاتب يحاول الغوص الى أعماق الحقيقة. إن أنصاف الحقائق مناسبة وثقيلة وجادة وتدل على أن كاتبها فيلسوف كبير أو متوسط السن أما الحقيقة الكاملة فلاتخطر غالبا الا على بال طفل أو معتوه. وعندما يشق المفكر طريقه اليها بكل ما أوتى من حنكة وثقافة فإنها تثير الدهشة والضحك معا.

لقد كانت عشر سنوات فى مثل هذا العمل كافية لأ تجعلنى أستاذا فى مهنتي. لكنها لم تكن صحافة يومية وماكان بمقدورى أن أجيد لو أقدمت على كتابة أكثر من مسلسلة واحدة. وما كان بإستطاعتى أن أكتب حتى تلك المسلسلة لو لم أندمج كلية طوال بقية الأسبوع فى عديد من ضروب النشاط الأخري: كسب مقدرات أخرى واغتراف كل مايمكن اغترافه من الحياة والتجربة أيضا. لقد بدأت عملى فى الصحافة عام ١٨٨٥ بمرتب قدره مائة وسبعة عشر جنيها وثلاث بنسات. وتركتها ومرتبى قدره حوالى خمسمائة جنيها، وكنت قد بلغت السن الذى نكتشف فيه أن الصحافة مصدر من مصادر الكسب بالنسبة للشباب لكنها ليست سبيلا من سبل العيش بالنسبة لرجل عجوز. وعلى ذلك فإنى أقول مختتما هذه النقطة أن الصحافة حتى

الأسبوعية منها تتطلب طاقة لاتوافر الا للشباب ومن هم فإنه من الخطأ أن يحاول من تقدم بهم السن أن يجيدوا أو أن يبرزوا فى ميدانها، كما يجب على الشباب أن يحيوا حياة بسيطة رخيصة اذا أرادوا أن يكون لهم من الارادة مايمكنهم من أن يعبروا بحرية عن أفكارهم وهم بالطبع لايفعلون شيئا من هذا القبيل. ولو فعلوا ذلك لصقلت الصحافة موهبتهم الأدبية أكثر مما يستطيع أى شئ آخر أن يصقلها. أقول «لو» ولكن هذا لايحدث. إنها تفسدهم بدلا من أن تصقلهم. ولو أردت عرض مشكلة لوجدت من بين الصحفيين من يملك الخبرة والمقدرة على عرضها وتقديم مايقرب من أن يكون أفضل حل لها. لكنه رغم ذلك لايقدم حلا على وجه الاطلاق ذلك لأنه لايملك الوقت، وحتى لو توفر له الوقت فإنه لن يتقاضى أجرا على تقديم الحل. ولذا نراه يدون المشكله ويهرب من حلها.

هل كنت نباتيا طوال حياتك؟ وكيف كان ذلك؟

لا: لقد أكلت اللحم لمدة خمسة وعشرين عاما وبعدها أصبحت نباتيا حتى آخر أيام حياتي. كان شيللى أول من جعلنى أدرك مقدار الوحشية المتوفرة فيما أتناوله من طعام، لكن التغيير لم يكن عمليا بالنسبة لى حتى عام ١٨٨٠ أو مايقاربها عندما أقيمت مطاعم النباتيين فى لندن.

ولقد كان لاكتفائى بالأطعمة النباتية أثر غريب على نقادي..قد تقرأ مقالة المقصود منها أن تكون عرضا وتقييما لآخر كتاب لي، لكنك تكتشف أن مايفعله الناقد ماهو فى الواقع الا دفاع عن حياته الخاصة ضد حياتى وأن ماتقرأه ماهو الا دفاع من أجل الحياة لرجل مجروح من صميم الفوائد. ويحاول النقاد فى مهابة أن يستمروا فى الكتابة لكن منظر الدم يخنقهم، بينما تتراءى لهم صورة الجثة المرعبة فى أدغال سوق فارينجتون. إن كل هذا العار المقيت ماهو الا توبيخ ضمير رجل من أكلة اللحوم فى حضرة رجل يعتبر برهانا على أن السمك واللحم والدجاج ليسوا من ضروريات النجاح فى الحياة والأدب.

أما عن الأشياء الأخرى التى أولع بها فهم يألفونها وغالبا مايشاركون فيها. لكنها مسألة احساس بالجرم.

- هل أحدثت الحياة الزوجية تغييرا فى آرائك؟

- ماهو مفهومك للحياة الزوجية؟

الحياة الزوجية الحقيقية هى حياة الفتى والفتاة اللذين يقطفان زهرة ويقبلان بتحمل المسئولية ثلاثين عاما من العمل المضنى وبعدها يستريحان كربى بيت. ماذا يستطيع رجل مثلى مستقل الدخل، تزوج فى الأربعين ولا أطفال له، أن يقول لك عن الزواج؟ أنا لا أعرف عنه شيئا إلا كمتفرج.

- ماهو رأيك الصادق فى جورج برناردشو؟

آه، إنه واحد من أنجح أعمالى الروائية، لكنى أظن أنه قد أصبح متعبا بعض الشئ، ان جورج برنارد شو يضجرنى مالم يقل شيئا يستحق أن يقال ويحسن قوله بطريقة (ج.ب.شو). ان جورج برناردشو دجال.

- ماهو تعريفك للفكاهة؟

كل مايثير الضحك لكن أرفع أنواع الفكاهة هو مايثير الضحك والدموع معا.

أريد كلمة واحدة عن معنى الكوميديا العالمية من وجهة نظرك.

ان ذلك الطلب الأحمق للمعنى هو الذى ينتج الكوميديا، إنك تطلب لها تفسيرا فى كلمة واحدة مع أنه يلزمنا من الآن مايزيد عن المليون عاما حتى نستطيع أن نرى العالم كما هو. إننا مانزال فى مرحلة الطفولة الفكرية. ربما يكون هذا هو السبب فى أن تعبيرات وجه الطفل توحى بصورة فيلسوف محترف. ان صراعه فى سبيل الوصول الى حالة من الوعى الجسدانى يستغرق كل طاقته فهو يحاول أن يتعلم كيف يفسر إحساسات عينيه وأذنيه وأنفه ولسانه وأطراف أصابعه. إنه يبتهج ويفزع لأتفه الأسباب. حسبنا أننا مازلنا

أطفالا فى عالم الفكر كما كنا ونحن فى الثانية من عمرنا فى عالم الحس. نحن لانرى الرجال على حقيقتهم: انهم أبطال أو أوغاد، أشخاص مبجلون أو مجرمون، صفاتهم هى الفضائل والرذائل، والقوانين الطبيعية التى تحكمهم هى الآلهة والشياطين، ومآلهم هو الثواب والاستغفار ومنطقهم إستقراء للأسباب والمسببات وغالبا مايكون معكوسا. يأتوننى وقد امتلأت رؤوسهم بتلك الأوهام التى يسمونها «العالم» ثم يسألوننى عن معناها كما لو كنت أنا أو أى شخص آخر يستطيع أن يفسر لهم كل ماغمض عليهم. أليس هذا مضحكا؟ ولكن الملهاة تنقلب الى مأساة عندما يحرقون ويعاقبون ويقتلون ويشنون الحرب، ليفرضوا بالقوة دياناتهم السخيفة وشرائعهم الاجرامية البشعة إنهم يرغمون الجيش والأسطول والكنيسة والقضاء والمسارح ودور السينما والمكتبات والنقابات على مساندتهم فى تدعيم أوهامهم التافهة.

كفي. إنك تتوقع منى ثرثرة عن المطلق والحقيقة والباعث الأول ومسببات كل الأشياء. إننى ألقى بالكتاب فى سلة المهملات اذا ماوجدت فيه أمثال هذه الكلمات.

عم صباحا.

لندن: ١٩٠١

[١٠]
كيف أصبحت خطيباً

في شتاء عام ١٨٧٩ فرض علي «جيمز لكي» وهو صراف بديوان المالية كل المواد التي يهتم بها وهي فن الاصطلاحات الصوتية ولغة أهل جبال اسكتلندا، ودفعني الي حضور اجتماعات جمعية المناظرات التي كانوا يطلقون عليها اسم «زتتكال» وهي صورة مصغرة لما كان يعرف جيدا باسم الجمعية اللغوية التي أسست لتناقش مقالة جون ستيورات ميل عن الحرية. وفي كلا الجمعيتين كانت آراء ميل تحظي بتاييد قوي. كما كانت حرية المناقشة مكفولة تماما سواء كانت في أمور السياسة أو الدين أو الجنس. ولقد قامت النساء بدور بارز في المناظرات، كان من أهم ملامحه مناقشة كل متحدث بعد أن ينتهي من القاء كلمته. كانت النغمة السائدة تتميز بقوة فرديتها والحادها واعتناقها لآراء مالثس واينجر سول وداروين وهربرت سبنسر. بالاضافة الي المام كل الأعضاء بكتابات هسكلي وتندال وجورج اليوت. ولم يكن من السهل اسكات أصوات المطالبين بقانون حماية أملاك المرأة المتزوجة حتي بعد صدور القانون نفسه، كما كان الاستياء علي أشده بسبب ما يلاقيه الخارجون علي أمور الدين من اضطهاد. وللتنديد بمثل تلك القضايا لم تكن هناك كلمات أقوي من كلمات «آني بيسانت»، و«شيللي» اللذين حرمهما قاضي القضاة من حضانة أطفالهما بحجة أنهما عن يقين ملحدان وعلي ذلك فهما لايصلحان لتربية صغارهما. وكانت اشتراكية «روبرت أوين» تعتبر بالنسبة للأعضاء سفسطة مرفوضة، اذ كانوا يؤمنون بضرورة الحرية الفردية التي نادي بها «كوبدين» في مجال الصناعة. ولم يكن أحد يحلم أنه في خلال خمس سنوات سوف تنتزع الاشتراكية الماركسية كل شباب الجيل الجديد وتدفع بالجمعية اللغوية وجمعية «زتتكال» الي كهف دائم الاظلام.

عندما ذهبت مع «لكي» الي اجتماع الزتتكاليين لم أكن قد تحدثت من قبل أمام الجمهور، كما أنني لم أكن أعرف شيئا عن الاجتماعات العامة أو نظامها. كان مظهري يدل علي صلابة وقلة حياء الا أنني كنت في الواقع جبانا شاردا، عصبيا وحساسا الي درجة محزنة. ورغم ذلك لم أستطع أن أمسك عن الكلام اذ نهضت وقلت شيئا في المناظرة وشعرت بعدها أنني قد جعلت من نفسي أضحوكة للآخرين وهذا ماحدث فعلا. ولقد اعتراني من الاحساس بالخزي ماجعلني اقسم بأن أنضم الي الجمعية وأن أذهب اليها كل أسبوع وأن أتحدث في كل مناظرة حتي أصبح خطيبا أو أهلك في المحاولة ونفذت هذا القرار. كنت أتابع المتحدثين في إصرار وكان قلبي يدق في عنف تماما كما لو كان قلب جندي ذاهب الي الميدان لأول مرة. ولم يكن بإستطاعتي أن أستخدم المذكرات المدونة: ذلك لأنني كنت أفقد السيطرة علي نفسي وأنا أقرأ الكلمات المكتوبة. ودائما ماكنت أنسي أهم النقاط التي ارتكز عليها وأنا أمارس هذا العمل المروع.

لابد وأنني أثرت كراهية أعضاء الجمعية فقد كنت أبدو لهم هادئا متكبرا لدرجة دفعتهم الي أن يطلبوا مني في الاجتماع الثالث أن اصعد الي منصة الرئاسة. ووافقت في الحال كما لو كنت خطيب مجلس العموم. وربما أدرك السكرتير لأول وهلة مقدار ما أخفيه من فزع عندما رأي يدي وهي ترتعش الي حد أنني لم أستطع أن أوقع علي تفصيلات محضر الاجتماع السابق الا بصعوبة بالغة. الا أن خشية أعضاء الجمعية من خطبي كانت أقل بكثير من خشيتي أنا منها. لكني لاحظت أن لكلماتي صدي يصعب تجاهله، ذلك لأن خطيب المساء كان في العادة يكرس حديثه للرد علي ملاحظاتي التي غالبا ما أساء فهمها. أضف الي هذا انه بالرغم من جهلي بالاقتصاد الا أنني قرأت في صباي كلمات وكتابات «ميل» عن الحرية والحكومة الدستورية والقضية الأيرلندية. كما أن المامي بداروين وتيندال وجورج اليوت كان كالمام أغلبية المستمعين. ومع ذلك فقد كنت أثير كل موضوع من زاوية غير مطروقة مما يدعو المستمعين الي اعادة التأمل والتفكير. ولاقيت أول نجاح لي عندما

خصصت الجمعية أمسية كاملة للفن. وألقت فيها سيدة ـ ممن يتبعون أحدث الصيحات الجمالية السائدة حينذاك بين أنصار موريس ـ مقالة عن الفن الذي لايعرف عنه أعضاء الجمعية شيئا علي وجه الاطلاق. ومسحت الأرض بتلك الندوة. وقد أعترف لي أعضاء كثيرون فيما بعد بأن هذا الدور الذي قمت به هو الذي جعلهم يعيدون النظر في الاحساس الأول الذي كونوه عني كمغفل مشاكس مغرور.

وواظبت بعناد. أكثرت التردد علي كل الاجتماعات في لندن حيث كانت المناظرات تتبع المحاضرات. تحدثت في الشوارع وفي الحدائق وفي الاضرابات وفي أي مكان وكل مكان يمكن للإنسان أن يتحدث فيه. بإختصار غزوت كل الاجتماعات العامة كما لو كنت ضابطا أصابه الجبن فأصر كلما سنحت له الفرصة علي أن يقتحم خط النار كي يتخلص من جبنه ويتعلم درسه.

قضيت أمسيات أدبية هادئة في لقاءات «ندوة شكسبير الجديدة» بالكلية الجامعية، وأمسيات أخري أكثر اثارة مع أعضاء «جمعية برونينج» وكان «ف.ج. فيرنفول» يرأس كلتا الجمعيتين. ولقد اشتهرت جماعة برونينج بعدد من المتأنقين أصحاب الشعور الطويلة لكنها كانت في الواقع جمعية دينية تؤمها مجموعة من المنشقين علي الكنيسة حيث تناقش العجائز من سيدات المذهب التبشيري عقيدتهن مع فيرنفول ذلك الكاهن العضل الذي لم يكن ليغفر للمسيح عدم دخوله في معركة ساعة القبض عليه في الجثمانية. وعندما أسس فيرنفول «جمعية شيللي» التحقت بها. وفي أول اجتماع عام لها أعلنت أنني مثل شيللي اشتراكي وملحد ونباتي. وقدمت سيدتان من أتباع برونينج استقالتهما في الحال. ولقد استمتعت بالاشتراك في جمعية مناظرات أخري تعرف بإسم «جمعية بيدفورد» وهي الجمعية التي أسسها ستو بفورد بروك قبل أن يعتزل وظيفته كراع لأبرشية بيدفورد ويكرس نفسه للعمل في مجال الأدب.

اشتركت في مناظرات كل هذه الجمعيات. وزالت عصبيتي الزائدة عن الحد. ولقد حدث أن كان من بين الاجتماعات التي أكثر من الترد عليها عام ١٨٨٤ اجتماع بالصالة التذكارية بشارع فارينجتون حيث كانت تعقد ندوات المنشقين علي الكنيسة الرسمية. كان متحدث المساء هنري جورج. وهو أمريكي غاية في الأناقة والبلاغة. رائدا أمريكيا في مجال الدعوة الي تأميم الأرض وإتباع نظام الضريبة المفردة. ولقد سحرني بأناقته وبلاغته ودفعني الي الخروج من ساحة المجادلات اللا أرادية العقيمة الي ساحة علم الاقتصاد. قرأت من مؤلفاته التقدم والفقر. وذهبت الي اجتماع هيندمان، وهو تحالف بين الماركسين والديمقراطيين، حيث أعلنت احتجاجي علي الموقف الغير ودي الذي اتخذوه تجاه جورج. وطردوني من الاجتماع محقرا مهانا، ذلك لأنني كنت أبدو في نظرهم مجرد شخص مبتدئ وجاهل بما خطه كارل ماركس من آراء رائعة في الجزء الأول من كتاب رأس المال.

وقرأته في الحال وعدت لأعلن أنني قد اهتديت بما قرأت. وفي الحال تحول الاحتقار الي فزع ذلك لأن أتباع هيندمان أنفسهم لم يكونوا قد قرأوا الكتاب الذي لم يكن ميسرا الا في ترجمة فرنسية لديفيل وكانت تلك النسخة موجودة في قاعة القراءة - مأواي اليومي - بالمتحف البريطاني. ولقد أصبحت منذ تلك الساعة خطيبا له رأي ومنهج، ولم أعد مجرد مبتدئ يحاول السيطرة علي فن مخاطبة الجماهير.

وفي الحال تقدمت بطلب لعضوية «اتحاد الديمقراطيين». لكنني سحبت طلبي عندما اهتديت الي مقر «الجمعية الفابية» التي تكونت حديثا والتي تعرفت فيها علي مجموعة مثقفة من مفكري الطبقة المتوسطة وهي الطبقة التي أنتمي إليها، وأفضلها علي أي طبقة أخري. أما عن طائفة هيندمان من العمال أصحاب التعاليم الماركسية المزيفة فلم تعد بالنسبة لي سوي عقبة يجب التخلص منها. وبعد اعتناقي للاشتراكية الماركسية ذاع صيتي كداعية من دعاتها، ولم أعد في حاجة للبحث عن جمهور المناظرات: لقد بدأ الجمهور

نفسه يبحث عني ولقد حدث هذا عندما قبلت دعوة من ناد للراديكاليين كي أحاضرهم في «وولويتش». ولقد فكرت في بادئ الأمر أن أعتمد علي محاضرة مكتوبة، اذ بدا لي أنه من الصعب أن أتحدث لمدة ساعة كاملة دون أن أرجع الي نص مكتوب ولم أكن قد تعودت الحديث في المناظرات الأكثر من عشر دقائق. لكن اذا كان علي أن أحاضر رسميا عن الاشتراكية لمدة ساعة فإن الكتابة تصبح متعذرة لضيق الوقت: كان علي أن أرتجل. اتخذت من كلمة «اللصوص» عنوانا للمحاضرة وحاولت أن أبرهن علي أن صاحب الدخل الذي لايقدم مقابلا لدخله يسئ الي المجتمع بنفس الدرجة التي يسئ بها اللص اليه. وتحدثت بسهولة لمدة ساعة. ومن بعدها تعودت دائما أن أرتجل الحديث.

واستمر هذا النشاط لمدة اثنتي عشر عاما حاضرت خلالها عن الاشتراكية بمعدل ثلاث مرات علي الأقل كل أسبوعين. تحدثت كلما وأينما دعيت. وكان مبدئي هو أن أتحدث أولا لمن يطلبون أولا: عندما كان يقدم لي طلب كي أحاضر كنت أعطي الطالب أول ميعاد شاغر لدي سواء كانت المحاضرة في ركن أحد الشوارع أو في صالة حانة أو في السوق أو في قسم الاقتصاد بالجمعية البريطانية أو في معبد المدينة أو في مخزن أو حجرة صالون. وتراوح عدد المستمعين بين العشرات والألوف. وكثيرا ماتوقعت المعارضة، لكنها كانت نادرة. الا أنني كنت علي وشك دخول السجن مرتين، وذلك بسبب المشاكل التي أثارها رجال البوليس وهم يحاولون منع الاجتماعات التي يعقدها الاشتراكيون في الشوارع (ودائما ماكانوا يفشلون في النهاية، اذ أن الطوائف الدينية التي كانت تزاول نشاطها بنفس الصورة كانت تساعد الاشتراكيين في مقاومة البوليس): كانت المرة الأولي في مخزن أدوات ترميم المراكب بشارع دود حيث استسلم رجال البوليس صباح اليوم الذي تطوعت فيه بتحديهم. وكانت المرة الثانية بعد عدة سنين في «تشيلسي» حيث ثار بيني وبين عضو جمعية اشتراكية مناهضة حوار حول رمز وشرف الاستشهاد. وعند الاستفتاء علي نتيجة الحوار هزمني خصمي بصوتين وقد ارتحت لذلك في قرارة نفسي.

ولقد استمرت أول خطبة لي صباح يوم أحد أربع ساعات في الهواء الطلق أمام جماهير ترافورد بريدج في مانشستر. كما ألقيت واحدا من أفضل أحاديثي في هايد بارك تحت سيل من المطر وكان جمهوري يتكون من ستة من رجال البوليس أرسلوا لمراقبتي بالاضافة الي سكرتير الجمعية التي طلبت مني الحديث وقد نشر مظلته فوق رأسي. وقررت أن أثير إهتمام هؤلاء الستة من رجال البوليس. فبالرغم من أنهم كانوا مكلفين بالاستماع الي الا أنهم كالعادة لم يعيروني أدني اهتمام بعد أن اقتنعوا بأنني غير ضار. ومازلت أستطيع كلما أغمضت عيني أن أري معاطفهم الواقية وهي تلمع تحت المطر.

ولم يحدث مطلقا أن تقاضيت أجرا مقابل ما ألقيه من أحاديث وغالبا ما عرضت علي جمعيات الأحد الاقليمية مبلغ العشرة جنيهات التي تدفعها عادة مقابل هذا النوع من المحاضرات بشرط أن أتجنب الخوض في شئون السياسة والدين. وكان ردي الدائم أنني لا أحاول مطلقا أن أجادل الا فيما يختص بأمور السياسة والدين وأن الأجر الذي أتقاضاه هو مجرد ثمن تذكرة السفر بالدرجة الثالثة لو كان المكان يبعد كثيرا بحيث لا أستطيع السفر علي نفقتي الخاصة. ولقد أكدت لي جمعية الاحد أنه يمكنني بهذه الشروط أن أتحدث عما أشاء وكما أشاء. ولكي أتجنب احراج المحاضرين الآخرين الذين يتكسبون بما يقولون كان الحساب يسوي بطريقة الأخذ والعطاء: بمعني أن أتقاضي الأجر والتكاليف المعتادة ثم أردها كهبة للجمعية. وبهذه الطريقة ضمنت حرية الحديث كاملة وحصنت نفسي ضد تهمة احتراف اثارة الشغب. ولقد حدث في انتخاب ١٨٩٢ علي سبيل المثال أن قام رجل أثناء القائي خطابا في قاعة المدينة بدوفر وطلب من الحاضرين الا يستمعوا لمثير شغب ماجور من لندن. وفي الحال عرضت عليه أن يشتري ماسيدفع لي من أجر بخمسة جنيهات وعندما تردد خفضتها الي أربعة ثم عرضت أن أجعلها خمس شلنات ـ نصف جنيه ـ شلن ـ ست بنسات. وعندما رفض الشراء حتي بمجرد بنس واحد أعلنت أنه لابد وأن يعرف تماما أنني قد وصلت علي نفقتي الخاصة. ولو لم يكن بمقدوري أن افعل ذلك لكان من المحتمل أن يفشل

الاجتماع الذي كان صعبا وعدائيا (اذ أن دوفر دائرة انتخابية فاسدة وسيئة السمعة).

ولقد أدركت كم كان هذا التطوع الكامل ضروريا وأنا أرقب سلوك خطيب محترف استأجرته «جمعية دوق أرجيل للحرية والدفاع عن الملكية» بثلاثة جنيهات في الأسبوع كي يتبعني ويخطئ آرائي أينما ذهبت، ولسفرنا سويا نشأت بيننا علاقة طيبة. كان دائما يلقي نفس الحديث وكنت دائما ألقي نفس الرد المفحم. وعندما انفك اسار الجمعية التي استأجرته جاء يعرض خدماته علي الجمعية الفابية. ولقد أصابته الدهشة عندما علم أن المتحدثين الفابيين لايتقاضون أجرا وأنني كنت في الواقع أحاضر بلا مقابل.

ولقد غامرت ذات مرة وبنجاح في القيام بخدعة مثيرة في اجتماع عقد لتأييد حق المرأة في الانتخابات. بقاعة سانت جيمز في لندن. اذ حدث قبل أن أتحدث مباشرة أن دخلت مجموعة عدائية ورأيت أن عددنا محدود وأن أي تغيير في برنامج الاجتماع لن يكون لصالحنا. كان الدخلاء اشتراكيين من مناهضي الفابية يقودهم رجل أعرف جيدا أنه في تلك الآونة كان مضطربا الي حد الجنون تقريبا بسبب مايعانيه من مشاكل خاصة ومايواجهه من مشاغبات عامة. وطرأ لي خاطر وهو أن نحرضهم علي فض الاجتماع بطريقة تسئ الي سمعتهم بدلا من أن نسمح باجراء تعديل يمس كرامتنا. والقيت خطابا استفزازيا تسيطر عليه نغمة الاثارة والتحدي ما جعل قائد المجموعة. وقد صعقته الكلمات بطريقة ماكان ليتحملها. يندفع الي المنصة كي يرد علي حديثي. وفي الحال اقتحم أنصاره المنصة ظانين أنه يقود هجوما وفضوا الاجتماع ثم عقدوه ثانية بعد أن نصبوا قائدهم رئيسا للجلسة. وعندئذ طلبت منهم أن يستمعوا الي وقد استجابوا لذلك كنوع من الانصاف، وكان هذا مكسبا آخر لي مما أرضاني الي حد كبير. ورغم أنه في هذا الاجتماع لم توجه أي ضربة ولم يحدث أي ضرر، الا أن صحف الصباح التالي طالعتنا وقد وصفت منظرا كله عنف وتخريب. مما لايرغب في أكثر منه أشد التلاميذ حبا للعراك.

لم أتحد أحدا علي وجه الاطلاق في مناظرة علنية، اذ بدا لي أنه ليس من العدل أن يقوم خطيب جماهيري محنك بتحدي خطيب مبتدئ نسبيا الي مبارزة باللسان لم تكن لتزيد في قيمتها عن اي نوع آخر من أنواع المبارزات. لكنني اشعر الآن بالأسف لعدم اقامة المناظرة التي حاول أن ينظمها الحلف الاشتراكي بين تشارلز برادلف وبيني وقد كنت أنا نفسي ما أزال مبتدئا آنذاك. لقد كان برادلف بطلا فذا ذا مقدرة صاعقة في الحديث والاقناع. كنت بالتأكيد سأبدو كمجرد ملاكم خفيف الوزن وهو يحاول أن يهزم وزنا ثقيلا لم يخسر مباراة واحدة: لكنني علي الأقل كنت سأتمكن من أن أقول كلمتي. لقد دعاه «الحلف الاشتراكي» الي الاشتراك في مناظرة واختارني الأعضاء ممثلا لهم رغم أنني لم أكن عضوا. وانتابني الفزع، لكنني لم أستطع الانسحاب. وعلي أية حال لقد اشترط برادلف أن أرتبط بكل مواثيق الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي وهو هيئة تناهض الفابية مناهضة قوية. كان الواجب علي بالطبع أن أدعه يملي مايشاء من شروط ثم أضرب بها عرض الحائط، لكنني لم أدرك ذلك بسبب حداثتي. ولقد اقترحت ببساطة أن يكون موضوع المناظرة هو: هل تفيد الاشتراكية الشعب الانجليزي؟ واشترط لكي يقبل هذا الموضوع أن يكون تفسيرنا للاشتراكية مطابقا لتفسير «جماعة هيندمان». ورفضت هذا الالتزام. ولم تقم المناظرة. وأظن أنه كان يقصد ذلك. وشعرت براحة كبيرة اذ كنت أشك في مقدرتي علي القيام ضده باي دور فعال.

لم أغفر لنفسي أبدا ضياع هذه الفرصة، لكنه لم يكن جبنا مني قدر ماكان عدم ثقة كثيرا ما أصابني في تلك الأيام المبكرة، اذ كنت في الواقع متحدثا أفضل وخصما أصلب مما كنت أظن. ولقد قابلت برادلف من قبل وفي عقر داره بقاعة العلوم في سيتي رود. كان مقعدي في المؤخرة ووقفت. لكنني ماكدت أنطق بأول جملتين حتي انتفض برادلف قائلا: «ان السيد خطيب. تقدم الي المنصة». وتقدمت تحوطني نظرات ملؤها الإعجاب والاستغراب. وكرس برادلف أغلب وقته للرد علي كلمتي. كان من الواضح أن رأيه في يفوق رأيي أنا في نفسي. ويسعدني أن أتخيل أنه رفض مناظرتي

لنفس الأسباب التي من أجلها رفض أدمندكين أن يشترك بالتمثيل مع ماكريدي في مسرحية واحدة. ولقد تحاور وهيندمان فيما بعد في موضوع «الثمان ساعات كيوم عمل». كان واثقا من أنه سوف يسحق هيندمان، لكنهما لم يلتزما بالموضوع ولم يصلا الي نتيجة حاسمة مما أثار حنق أنصارهما. وتقرر إعادة المناظرة علي أن تكون بيني وبين المرحوم: (ج.ف فوت) وهو خليفة برادلف في رئاسة «الجمعية القومية العلمانية» ومتحدث من الدرجة الأولي. وفي قاعة العلوم تناولنا الموضوع بقوة وعنف كبيرين وتساوينا في النواحي البلاغية. لكنني في الاقتصاد كنت أرسخ قدما من «فوت» وأعتقد أنه كان لابد وأن أفوز لم تم التصويت. ولقد طبعت المناظرة في كتيب نشره جورج ستاندرينج.

لقد أكسبتني أحاديثي العامة مؤهلا من أهم مؤهلات العمل السياسي ألا وهو التعود علي عمل اللجان، اذ كنت أختار في الحال عضوا باللجنة التنفيذية في أي جمعية التحق بها. وفي البداية كنت أفعل غالبا مايفعله المؤلفون عادة في فردانيتهم وفوضويتهم البوهيمية عندما يقدمون استقالالتهم اذا ما هزموا لأي سبب من الأسباب. ولقد فعلت ذلك عندما رفضت «جماعة العودة الي الأرض» اقتراحي بإضافة الاشتراكية الي برنامجها. ولم أتخذ مثل هذا الموقف بعد ذلك أبدا اذ سرعان ماتعلمت أيضا أن المهيجين من أعضاء اللجان دائما مايعتقدون وبالاجماع انه لابد من فعل شئ لكنهم لايستطيعون تحديد مايريدون. إنهم يتكلمون ويتكلمون ولايصلون الي أية نتيجة تذكر. وعلي ذلك فالعضو الذي يحتفظ برأي محدد ولايعرضه الا اذا ارتبك الآخرون تماما، يصبح سيدا للموقف حتي اذا لم يوافقه أحد فيما يقول. وبهذه الكيفية يصبح الفرد الذي لايؤيده أحد قائدا وغالبا ماكنت هذا الفرد.

ان نقص الخبرة بأعمال اللجان وفن مخاطبة الجماهير يصيب المفكرين بعجز لاينجو منه حتي أعظمهم موهبة وأثراهم خيالا ويمكن التدليل علي ذلك بحالة (هـ.ج. ويلز) الذي خضت معه مناظرة مشهورة عندما حاول أن يسيطر علي الجمعية الفابية بضربة واحدة. كانت لي خبرة عشر سنوات

كمتحدث ورجل لجان بينما كان ويلز مجرد مبتدئ. وليس مهما أن أقول أنني قضيت عليه تماما: لقد وفر علي المشقة وقضي علي نفسه. اذ لم يستطع الا أن يسئ السلوك والتصرف ومن حسن حظه انه فعل ذلك بعنف جامح مما جعل أعضاء الجمعية الفابية يدركون بذكاء حقيقة الموقف ويعلنون. وهم يصرفون النظر عنه كمتحدث لايطاق. أن تقديرهم له كرائد من رواد الاشتراكية لم يهتز، كما أن تقديرهم لي كمتحدث فنان لم يزد عما كان عليه.

ويجب ألا أترك الخطباء المبتدئين يفترضون أنني اكتسبت الفن الخطابي بمجرد الممارسة. لقد عالجت الممارسة عصبيتي فقط ولقد عودتني أن أتحدث للجموع والأفراد علي السواء. لقد وصفت في مكان آخر كيف تعرفت علي ريتشارد ديك مغني الأوبرا العجوز الذي كان يعتقد أنه اكتشف طريقة جديدة في غناء القصائد لن تمكنه، عندما يسيطر عليها سيطرة كاملة، من تجديد حياته الفنية فقط ولكنها ستحدث أيضا تجديدا في المجال الحضاري. ورغم ذلك مات فقيرا مدقعا في مستشفي الكلية الجامعية. وعلي أية حال لقد علمني في تلك الأثناء أنه يجب علي الخطيب كي يكون مفهوما أ يعيد دراسته لحروف الهجاء وأن ينطق الحروف الساكنة بقوة كل علي حدة، وأن يميز بين الحروف الأجنبية وادغام حروف العلة الانجليزية. وبناء علي ذلك أخذت في التدريب علي نطق حروف الهجاء كما يتدرب المغنى غلي اخراج الطبقات الصوتية المختلفة حتي لم أعد في خطر من أن أنطق الحروف والكلمات مدغومة بعضها في بعض، أو أن أتخيل أن دراسة نطق اللهجات العريضة تقل في أهميتها عن دراسة فن الخطابة الكلاسيكية. ويجب علي المتحدثين الذين يواجهون الجماهير ان يأخذوا دروسا في الخطابة علي يد أستاذ لغويات متخصص اذا مكنتهم الظروف بشرط ألا يبدو هذا النوع من التكلف في صناعة الفن. وعلي الممثلين الناشئين أن يتجنبوا الممثل العجوز كما يتجنبون الوباء اذا ما احترف تعليم التمثيل دون أن تكون له دراية بعلم الأصوات.

لم أستطع في نهاية الأمر أن ألبي كل الدعوات التي كانت توجه الي. أصبح تكرار نفس الأشخاص ونفس المناقشات أمرا مملا ومتعبا كما غدوت في خطر من أن أصبح مجرد ثرثار لايجيد الحديث الا في موضوع واحد. ولقد رأيت مافيه الكفاية من مصير منظمي النقابة العمالية الذين بدأوا حياتهم ممتنعين عن تعاطي المسكرات، ثم أرغمتهم الحاجة الي أن يغرقوا أنفسهم في الشراب كي يستطيعوا اذكاء حماس جمهورهم المتجدد بنفس خطبهم القديمة. وفي عام ١٨٩٥ لم أعد نفس الخطيب المرموق. لقد انتهيت كنجم من نجوم الخطابة الهواة بعد أن ساءت صحتي وتبعها زواجي عام ١٨٩٨. ومنذ ذلك الحين وأنا لا أتحدث الا في المناسبات الخاصة فقط أو في المؤتمرات العامة للجمعية الفابية أو في مجلس مدينة سانت بانكراس حيث رشحت عضوا عندما كان لايزال مجلس كنيسة.

لكني لم أنس ما اكتسبته من براعة فنية طوال تلك السنين التي مارست فيها فن الخطابة والحديث. لقد لازمتني هذه البراعة حتي النهاية، عندما اعتزلت الأداء عام ١٩٤١ وأنا في الخامسة والثمانين من عمري.

* * *

[١١]

صداقات مثمرة

بعد عدة أسابيع من التحاقي بجمعية الزتتكاليين استرعى انتباهي متحدث ظهر يوما واشترك في المناظرة. كان في حوالى الواحدة والعشرين من عمره، طوله أقل من المتوسط بقليل، تتميز قدماه ويداه بصغر الحجم، ويبدو وجهه من الجانب أفضل من وجه نابليون الثالث مع تمتعه بنفس الشارب والأنف الامبراطوري. كانت له جبهة رائعة ورأس طويل، وعينان تعلوان أنفا وفما في غاية البلاغة (كما يقول علماء الفرينولوجيا: علماء معرفة قوى النفس بالنظر الى حجم الجمجمة وشكلها)، وشعر ملحوظ الكثافة والقوة والسواد. كان ملما بكل مايتصل بموضوع المناظرة. لم يكن فقط أكثر مما يعرفه المحاضر نفسه، بل كان أيضا يعرف أكثر مما يعرفه أى شخص من الموجودين. لقد قرأ كل ماكتب: ذكر كل الحقائق المتصلة بالموضوع، استخدم عدة ملاحظات مكتوبة قرأها وأنشر عليها ثم رماها الواحدة تلو الأخرى وأنهى حديثه في هدوء ووضوح خيل الى أنهما يبلغان حد الاعجاز.

كان هذا الرجل هو سيدني ويب: أكثر رجال انجلترا مقدرة، وكفاءة. وكان أفضل ماتعلمته في حياتي هو أن فرضت عليه صداقتي وحرصت على استمرارها اذ لم أعد منذ تلك اللحظة مجرد شخص منشغل بتوافه الأمور بل غدوت طاقة فعالة قادرة يحركها كل من «ويب» و«شو» في نفس الوقت.

ولقد برهن ويب (الذى أصبح فيما بعد البارون باسفيلد وهو مدفون الآن في مقابر ويستمنستر بعد أن الححت في طلب ذلك) على أنه أقدر وأكفأ رجال الادارة والمؤرخين الذين يعملون على تحسين أحوال العالم. ولقد تنبأت بذلك بطريقة أو بأخرى عندما كنت أنا وهو مجرد تكرتين. وكتلميذ لجون

ستيوارت ميل استطاع أن يدرك حقيقة أن الملكية الخاصة لمصادر الانتاج مضافا اليها حرية التعاقد لابد وأن ينتج عنها حكومة تمثل أصحاب رؤوس الأموال. وبناء على ذلك تجد الطبقة الحاكمة نفسها فى مواجهة مباشرة مع الطبقة العاملة وتحل الحرب الطبقية محل الديمقراطية الحقيقية. لقد عرف ذلك كل من آدم سميث ومالثوث وريكارد وأوستن وماكولي، لكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا بديلا. أما ويب فقد رأي، بوصفه واحدا من كبار الموظفين المدنيين، أنه من الممكن تماما اتخاذ خطوة اصلاحية بديلة وذلك بأن تؤم الدولة كل مصادر الانتاج وتشرف مباشرة على كل الصناعات الحيوية بها. وكان فى متناول يده قائمة مليئة بالأمثلة الدامغة التى تدل على وجود ونجاح هذا البديل. وعلى هذا الأساس كان ويب اشتراكيا مؤمنا.

وكان الاختلاف هائلا بين «شو» فى حد ذاته وشو بعقلية «ويب» ومعرفته وتجربته فى العمل الرسمي. وبما أننى كنت ومازال مشعوذا مسرحيا لاسبيل الى تقويمه، وبما أن ويب كان من أبسط العباقرة لذا كنت غالبا ما أحتل وسط المسرح بينما يأخذ ويب مكانه الغير مرئى فى كوشة الملقن.

دفعنى تحولى للاقتصاد بواسطة «هنرى جورج» الى الاتصال بمجموعة من الزراعيين يطلق عليها «رابطة إصلاح الأرض» ولقد استمر وجودها عدة سنوات بعد أن تغير اسمها الى «الحلف الانجليزى لاسترداد الأرض». وهنا قابلت جيمزلى جونز أحد أساتذة كلية ايتون، وسيدنى أوليفير وهنرى هايد تشامبيون، بالاضافة الى بعض الاشتراكيين من رجال الدين المسيحى من أمثال ستيوارت هيدلام. وسايمز نوتينجهام وسارسون وشاتلورث الذين انتظموا تحت إسم «طائفة القديس ماثيو». وأذكر أن سايمز كان يقول بأن تاميم الأرض سيجعل كل شئ يستقر وقد أجبته على ذلك بقولى أن ذلك لن يُحدث أبدا، مادام رأس المال ملكية خاصة وليس ملكا للدولة. أما سارسون فقد قال، بعد أن اطلع على البند الأول من بنود الكنيسة الانجليزية، بأن أتباع تلك الكنيسة قوم ملحدون. ولقد أصبح معروفا كزميل «سيسل شارب» بعد أن أعد معه كتابا يحتوى على مجموعة من الأغانى الشعبية لمقاطعة سومرست.

كان جوينز نباتيا محبا للخير العام والاصلاح الاجتماعي ومن اتباع شيللي. ولقد أقصوه عن مركزه في «ايتون» لأنه قام بجولة في أيرلندا مع هنري جورج وقبض عليهما البوليس معا بعد أن ظن أنهما يمثلان إحدى الجماعات المعادية. ولقد تزوجت أخت جوينز من مدير مؤسسة في ايتون يدعى «سولت» وكان هو أيضا نباتيا محبا للخير العام والإصلاح الاجتماعي ومن أتباع شيللي وديكوينسي. وعلى ذلك فما أن ادخر مايكفيه ليعيش في أحد الأكواخ المتواضعة في الريف، حتى هجر المؤسسة وترك ايتون ثم أقام بعد ذلك رابطة لمحبي الخير العام والاصلاح الاجتماعي. وتوطدت عرى الصداقة بيني وبينه هو وزوجته التي تعودت أن أعزف معها بعض الألحان الثنائية على أعرق بيانو ينقل من ايتون الى أحد أكواخ «سري». ولقد وصفت أول زياراتي لهما في الريف في مقاله نشرت في جريدة «بول مول» تحت عنوان «يوم أحد في تلال سري». كما كتبت العديد من مناظر مسرحيات مازحة ومسرحيات بلا مزاح فوق عشب تلك التلال أثناء زياراتي لهما. ومن هنا نشأت الصلة التي تربطني بالانسانيين، ومن بينهم «ادوارد كاربنتر» أحد أصدقاء سولت المقربين الذي كنا نطلق عليه اسم «البدائي النبيل»، والذي كان هو أيضا يعزف بعض الألحان الثنائية مع «كيت». ولقد دفعني الى انتعال صندل ولكني سرعان مانبذت الفكرة إذ أدمى الصندل قدمي بعد أول مسيرة طويلة.

وفي هذا المحيط لم يكن هناك مجال للحديث عن هنري جورج أو كارل ماركس ولكن غالبا ماكثر الكلام عن وولت ويتمان وثوريو. وكان أسوا ماحدث لهذه المجموعة هو موت جوينز الذي قتله عجز الأطباء عن علاج اعتلال قلبه ونصحهم له بتناول المقويات الكحولية وهي علاج من الواضح أنه فظيع ومهلك رغم أنه مازال سائدا ولن أغفر لهم هذا الخطأ أبدا. ولقد ترك جوينز بعد موته مجلدا يحتوي على ترجمة ممتازة لمجموعة من الأغاني الثورية التي كتبها الثوريون الالمان عام ١٨٤٨، ونشر سولت عدة مقالات عن شيللي وجيمز تمسبون وجيفريز ودي كوينسي ثم ختم كتابه بذكريات عن ايتون

وترجمة لفرجيل. ولقد كتب سيرته الذاتية تحت عنوان «سبعون عاما بين البدائيين».

ولنعد الآن لحظة الى «جمعية إصلاح الأرض» حيث قابلت سيدني أليفير الذى كان هو وسيدني ويب صديقين حميمين وموظفين كبيرين بمكتب المستعمرات. وعندما أسست الجمعية الفابية عام ١٨٨٤ لفت نظرى اسمها وكتيب نشر عنها تحت عنوان «لماذا تتسم الاغلبية بالفقر؟» ولقد حثثت ويب على الانضمام للجمعية بعد أن أقنعتنى كتابات ماركس بأن الحركة ليست فى حاجة الى صاحب نظريات هيجلى بقدر ماهى فى حاجة الى كشف القناع عن الحقائق الرسمية للحضارة الرأسمالية وكان بإمكان ويب أن يفعل ذلك. ولقد شكلت أولى مقالاته «حقائق للاشتراكيين»، بداية طيبة وفعالة للمبادئ الفابية.

أما عن أليفير الذى مات بارونا عام ١٩٤٣، فقد جمع بين مقدرة ادارية وحسن طوية يبعدان كل البعد عن الاستبداد بالرأي. ولقد وصفته فى الجزء الذى أسهمت به في الكتاب الذى نشر عن حياته . ولقد كون أليفير أثناء وجوده فى أكسفورد صداقة مع جراهام دالاس الذى إنضم الينا فيما بعد. ولعدة سنين كان ويب وأليفير ودالاس وشو والديمقراطى المحافظ «هيوبرت بلاند» هم قادة الفكر ومخططو السياسة الفابية.

وبما أن رفاقى فى الجمعية الفابية كانوا رجالا على درجة غير عادية من العلم وقوة الشخصية، فقد استطعت بناء على وجودى معهم أن أكتب بمعرفة وادراك متميزين مما جعل انتاجى الأدبى يختلف تمام الاختلاف عن انتاج الكاتب العادى الذى لم يخرج عن نطاق دائرة الأدب. وعلى ذلك فإن شو الذى ذاعت شهرته حتى ملأت الآفاق كان فى الواقع مشهورا ومميزا لأنه وجد فى الجمعية الفابية مجموعة ناقدة ناقشت أفكاره وشذبتها بأسلوب لامثيل له. وعندما كنت أبدو فيما أكتب شديد الأصالة قوى الإبداع، لم أكن فى الغالب لأزيد عن كونى مجرد ناسخ وناقل يتميز ببراعة درامية وأدبية نادرة تماما

وصقلها جهد عنيد متواصل.

ولقد خلصني رفاقى من الكثير من الهراء والجهل والسوقية الريفية اذ كان نقد كل منا للآخر نقدا قاسيا لايجامل ولايرحم. وعلى أية حال لقد كان هناك صراع كبير بين طباع وأمزجة أعضاء القيادة الفابية ،كثيرا ماتعددت الصراعات والانقسامات فى الجمعيات الاشتراكية الاخري، ذلك لأن الانجليز يميلون بطبعهم الى المشاغبة. وأعتقد أننى قمت بدور فعال فى تهدئة هذه الخلافات بطريقة أيرلندية بدت شديدة الغرابة فى انجلترا. فكلما نشب عراك كنت أتخلى عن الجميع وأركز على المشكلة ذاتها، أحللها بطريقة تقريرية واضحة وبعبارات، تتسم بالكثير من المبالغة، وتكون النتيجة أن يتفق الجانبان على أن الخطأ كله يقع على كاهلي. وهكذا شهر الجميع بى كمشاغب عنيد، لكنهم سامحونى بدعوى أننى أيرلندى مخبول يتمتع بمكانة مرموقة.

وكثيرا ما أطريت نفسى وأنا أعزو ذلك البقاء الفريد للجمعية الفابية فى أيامها الأولى - بينما تهاوت جميعات منافسة كانت تحتقرها - ليس فقط الى سياستها ولكن أيضا الى ذلك العنصر الأيرلندى الذى أسهم فى إدارتها.

ويكفينا هذا عن الصداقات الفابية التى أسهمت فى صنع « جورج برنارد شو» المتألق.

* * *

[١٢]

هل أنا شخص مثقف؟

لا أستطيع أن أكرر كثيرا أنه بالرغم من أننى لم أحصل على مؤهلات أكاديمية الا أننى كنت فى الواقع أكثر ثقافة من أغلب الدارسين الجامعيين. لقد نشأت فى بيت يعشق الموسيقى وكانت تلك الموسيقى هى الموسيقى «المدروسة» التى بدأت بـ «هاندك Handel » والموسيقى التصويرية التى بدأها « جلاك Glack » وموزارت Mozart وللاثنين كيان ثقافى فى الفن الحديث لايستطيع أن ينافسه أدب اللغات الميتة باستثناء تراجم جيلبرت مرى الرائعة والتى تعتبر انجليزية وحديثة تماما كأى عمل مبتكر فى لغتنا. وهى تذكرنا بأن شكسبير أيضا كان مترجما وناقلا للقصص القديمة ولم يكن مؤلفا لها. ومع أن أسرتى كانت تتسم بالتعاطف الا انه يمكن القول بأنها كانت مجردة من الحب، لكن هذا لم يكن ليعنى الكثير بالنسبة لطفل إستطاع أن يغنى بمهارة قبل أن يتعلم فى الكنيسة أصول الدين وكان فى تلك الأغنيات التى تعلمتها فى طفولتى مايكفى أى طفل من عاطفة ونبل أحاسيس.

ولم يتوقف هذا التعليم أبدا لقد بدأ من روسينى Rossini ومايربير Mayerbur وفردى Verdi حتى فاجنر Wagner ومن بتهوفن-Beethov-en الى سيبليوس Sibelius ومن المخرج البريطانى لهاندل Handel ومندلسون Mendelssohn الى الموسيقى الانجليزية الحقه لادجار Edger وفون وليامز Vaughan Williams ومن أسلوب النغم الكامل لدبسى De-bussy والأسلوب الملون لسكونبرج Schonberg الى تجارب سيريل سكوت Cyril Scott فى الفوضى المنهجية التى بدأت عندما أصبح التتابع المحظور وتنافر الأصوات وغموضها و «العزف الناشز» للنصوص القديمة أحدث الاساليب الموسيقية. ولقد أثبتت أغلب هذه المقطوعات الموسيقية صحة المبدأ

الذى نادى به أوسكار وايلد عندما قال: «تجنب أحدث الأساليب والا فسوف يعفو عليك الزمن تماما فى ظرف ستة أشهر» لقد أرهفنا آذاننا عندما عزف لنا فاجنر فى تانهويزر تساعياته الرئيسية دون إعداد وعندما فعل نفس الشئ فى المقطوعة الثالثة عشر. إن هذه المعزوفات لاتثير أحدا هذه الايام لكنها بالتأكيد أثرت فى أنا الذى أستطيع ان أتذكر أننى قد انفعلت بدرجة بالغة عندما سمعت افتتاحية بروميثيوس القوية لبيتهوفن وهى تبدأ دون سابق اعداد بسابعة منخفضة فى صوت الباص العميق.

ماقولكم فى هذا اذا ما قورن بجعجعة الكتب المدرسية؟ هل باستطاعة أى خريج جامعى - من ايتون أو هارو أو وينشستر أو رجبى - حشوا رأسه دون رحمة بفرجيل وهومر وهو راس وجيوفينال أن يبزنى فيما درست؟ هل تعقيد وخلط أشعار جون جيلين والملاح القديم بطريقة تبعد كل البعد عن الاتزان النفسى وطبعها فيما يبدو الآن فى صورة شعر يعتبر أكثر تثقيفا من تتبع أسلوب بيتهوفن وهو يحول موسيقى الزخرف الى موسيقى تعبيرية، ثم أسلو ذلك العبقرى الفذ موزارت وهو يجمع مابين الاثنتين؟.

سوف يذكرنى البعض بأن هناك موسيقيين جامعيين، دكاترة فى الموسيقى من أمثال ستانفورد وباري. لكن هذه الدرجات العلمية لاتزيد فى تأثيرها عن جعل حامليها يعتقدون بأنهم يؤلفون فى حين أنهم لايفعلون شيئا أكثر من أن يملأوا أوراق الموسيقى بتقليد لمؤلفين عفا عليهم الدهر، تاركين فى نفس الوقت أساتذة من أمثال باخ والجار، وكل منهما لم يتلق درسا واحدا فى فن النغم. لقد علمتنى مربيتى حروف الهجاء، لكنى لم أتعلم من أحد كيف أكتب مسرحياتى التى نبذت على أنها أعمال غير مسرحية. ولم يتغير هذا الرأى الا بعد أن جنيت من ورائها الكثير من المال وعندئذ فقط قيل بأننى خليفة شكسبير.

ان الخبرة الفنية بتطور الفن المعاصر تعتبر أكثر تثقيفا من أى دراسة للوثائق القديمة. ولايستطيع أى ممتحن مهما بلغت مقدرته على الحفظ أن

يلمس التطور الذى حدث من عهد ايسكلس الى عهد يوريبيديز: كما لمست أنا التطور الذى حدث من عهد دونيزتى الى عهد فاجنر ومن بوجويرو الى جوجوين ومن ليدر الى ويلسون ستير ومونيت ومن كانوفا الى رودين ومن سكرايب وساردو الى ابسن ومن بارى سليفان الى ارفنج ومن كولينسو الى اينج. ومن تنيسون الى براونينج ومن ماكولى الى ماركس، ومن ماكس ويسمان الى هربرت دنجل، ومن تندال الى كلارك ماكسويل وبلانك وأينشتين ومن كنجدم كليفورد الى هاردي: باختصار من عشقى للاستماع مرارا وتكرارا لروائع السابقين الى ذلك الضيق الذى يعترينى كلما فكرت فى التحول المفزع الذى آراه الآن.

ان الامتحانات فى التعليم الأكاديمى أفضل من لاشى فأى فرد دارس للتطور الذى حدث من عهد أرسطو الى عهد لوكريتيوس ومن أفلاطون وسقراط الى بلوتينس، ومن ثكيديديز الى جيبون، ومن بطليموس الى كبرنيكوس، ومن سانت بيتر الى روبرت أوين، ومن أكويناس الى هس ولوثر، ومن اراسموس الى فولتير، يستطيع على الأقل أن يعرف آخر ماتم تحقيقه وأن يعطى شهادات لمن يملكون المقدرة على استذكار كل ذلك مرة أخري. لكن العلم الحقيقى يكمن فى التجربة الحية. إن أكثر الخريجين علما قد يصبحون جهلة بلهاء اذا ماكتفوا بمجرد الدرجات العلمية التى حصلوا عليها حتى ولو تم حشو رؤسهم بمعرفة سطحية لعدة لغات ميتة وبما لاقيمة له من علم الجبر. إن الاختلاف الحيوى بين القراءة والتجربة لايمكن أن يقاس بأسئلة الامتحانات. وبناء على قوة هذا الاختلاف أعلن بكل غطرسة وكبرياء أننى من أفضل المثقفين فى العالم وأستبعد بهذه المناسبة ٩٥٪ من المشهورين فى الدراسات الأكاديمية كمجرد مجموعة من الحمقى باستثناء قلة من المواهب التى تستحق الاحترام.

لقد أنقذنى هذا الإعداد السابق من الهلاك فى مجال الأدب. وعلى ذلك فعندما رشحنى وليم آرثر كناقد للتصوير، وكان قد رفض هذا العمل لعدم استعداده له، انطلقت كما ينطلق الصاروخ. ومازالت كتاباتى عن كل

الفنون الجميلة صالحة للقراءة بالرغم من مضى ستين عاما على نشرها ولقد فتحت لى لندن كل أبواب معارضها وحفلاتها الفنية خلال الفترة التى تلت الرفض الاجماعى لما كتبته من روايات. لقد أثارت أفضل رواياتي اشمئزاز القراء المحترفين فى دور النشر، لكننى وصلت الى قمة الشهرة كناقد دون مقاومة، بينما لم يستطع الوصول الى ماوصلت اليه كثرة معاصرة من الأدباء المبتدئين الذين تلقوا مافيه الكفاية من الدراسة الأكاديمية دون أن يتذوقوا الفن ويألفوه فى بيوتهم كما تذوقته وألفته منذ الطفولة.

لقد ارتقت هذه السنين التى قضيتها فى عملى كناقد. بثقافتى الفكرية وذلك بان أرغمتنى على أن أمعن التفكير قبل أن أصدر حكما وأن أميز بين المواهب المتقدة والأعمال الفنية لمن ذاع صيتهم من المشهورين الذين انتهت شهرتهم بانتهاء حياتهم أو بعد ذلك بقليل، وبين العبقرية التى خلقت لا لعصر واحد ولكن لكل العصور. لقد استمعت الى أعمال تبشر بالخير من مبتدئين حديثى التخرج، لكنهم لم يكونوا يعرفون قيمة ماقد تعلموه ولذلك انحط انتاجهم وأصبح مبتذلاً بعد مارفعت عنهم الوصاية التعليمية. ومن خلال هذه التجارب وأمثالها يستطيع الناقد أن يصبح بارعا فى تحليل مايتناوله من أعمال. والناقد الذى لايملك المقدرة على التحليل يسهل استغفاله بمنتهى البساطة.

إننى مازلت أتعلم وأنا فى الثانية والتسعين من عمري.

أما عن اللغات والرياضيات فلم أعد نفسى فيها إعدادا كافيا أ ننى أستطيع قراءة اللغة الفرنسية بنفس السهولة التى أقرأ بها الانجليزية. وفى ايطاليا وأسبانيا أستطيع أن التقط الأخبار من الصحف المحلية، كما أعرف من الألمانية مايكفينى لفهم أغلب الخطابات التى تأتيني، ولا أستطيع القول بأننى ناجح من الناحية اللغوية فى المحادثة. أما عن الرياضيات فقد أجدت الحساب ككاتب سابق (لست معصوما من الخطأ حاليا)، لكن المستويات العليا تفوق طاقتي. اننى أستطيع أن أفهمها وأتخيلها فقط ولا أدعى أية براعة فيما يختص بها.

انني بليد من الناحية الفنية لكنني كنت في أيامي أبدو اذا ماقورنت بغيري وكأنني طاقة خارقة.

وإذا كنت في تعليمي مدينا بالكثير للكتب الشهيرة والصور العظيمة والموسيقى الرفيعة. الا أنه كان من الممكن أن أصبح أكثر جهلا مما أنا عليه لولا انتقالي وأنا في سن العاشرة من الشارع الذي ولدت فيه حيث كان منتصفه يواجه حقلا لاتروق رؤيته، سرعان ماحجبته عنا لوحات الاعلانات. لقد انتقلنا من هذا الشارع الى «توركا كوتدج»: بيت صغير فوق تل دوكي يطل على خليج دبلن من جزيرة دوكي الى هيد هاوث، وعلى خليج كليني من الجزيرة الى براى هيد. وفي أسفل التل كان البحر ينبسط شاسعا متقلبا ومن فوقه كانت السماء تمتد بلا حدود.

لم تكن السعادة يوما هدفا من أهداف حياتي، فأنا مثل اينشتين لست سعيدا ولا أريد أن أكون سعيدا، كما أنني لا أملك الوقت أو حاسة التذوق التي تمكنني من الاستمتاع بغيبوبة يمكن الحصول عليها بقليل من الأفيون أو بكأس من الخمر، رغم أنني جربت أفضل أنواعها مرتين أو ثلاث مرات في الأحلام. لكني انتشيت في طفولتي بلحظة سعادة غامرة عندما أخبرتني أمي أننا سوف ننتقل الى دوكي. وهناك كان على أن أفتح عيني فقط لأرى صورا يعجز أي مصور عن ابداع مثلها. ولم أكن لأصدق أن هذه السماء قد وجدت من قبل في أى مكان آخر في العالم حتى قرأت كلمات شكسبير: «هذه السماء المهيبة المنقوشة باللهب الذهبي». وعندها تساءلت في دهشة: أين أمكنه أن يرى مثل هذا المنظر ان لم يكن قد رآه من توركا كوتيدج؟.

لقد أشاع هذا المكان في نفسي بهجة لازمتني طوال حياتي.

أيوت سانت لورانس

٣ أغسطس ١٩٤٧

* * *

[١٣]

ماهي عقيدتي الدينية

لقد أصبحت بحكم تعميدى فى طفولتى واحدا من أعضاء الأسقفية البروتستانتية لكنيسة أيرلندا. لكنى لا أستطيع أن أؤمن بأكثر من مذهبين من مذاهب تلك العقيدة (عشاء القديسين الربانى والخلود مابعد الموت) وإيمانى بهذين المذهبين إيمان غير تقليدي. كما أننى لا أومن ببنودها التسعة والثلاثين التى وضعت لضمان السلام والهدوء السياسى كنقطة تلاق بين كل من الروم الكاثوليك والمتطهرين، اذ أن الآراء التى تحتويها هذه البنود تتضارب مع بعضها البعض تضاربا يجعلها غير مقبولة لمن يملكون المقدرة على التفكير بطريقة منطقية. لكنى أوافق على قانون الإيمان المنسوب الى القديس أثناسيوس الذى عارضه بعض معاصرى من رجال الكنيسة المتحررين معتقدين أن الفقرة الخاصة باللعنة فيه تتضمن الايمان بجحيم مادي. إننى اوافق على هذا البند اذ أرى أنه يعنى فيما يعنيه ان العالم فى حاجة الى الادراك أكثر من حاجته الى الإيمان، وأن الذين لايملكون الإدراك الكافى لقبول متناقضاته الظاهرة على أنها تعبير صحيح لحقيقة بيولوجية قد يوصفون بلاغياً بأنهم ملعونون فكرياً.

ولو منحت التثبيت الدينى لامكن إتهامى بالردة بناء على مثل هذه الشكوك وطبقا لما يسمى بقانون التجديف. وبما أننى لم أثبت دينيا فإنه يمكننى اذا ما وجه الى الإتهام أن أدافع عن نفسى على أساسٍ أن الذنب ليس ذنبى أنا، بل هو ذنب أمهاتى وآبائى الروحيين (وقد ماتوا جميعاً).

وهذا يترك مجالا للسؤال: اذا لم تكن من رجال الكنيسة البروتستانتية فماذا تكون؟

لقد تعودت فى البداية أن أرد على هذا السؤال بقولي : « انى ملحد » . ولم تكن الإجابة شافية، إذ أن مايحتاجه عقلاء الناس هو أن يعرفوا مايؤمن به الآخرون لا ما لايؤمنون به . وعلى أية حال لقد كانت هناك موجة اضطهاد وحشية فى ذلك الوقت ضد الملحدين الذين لايخفون الحادهم، إلا إذا كانوا من أصحاب الثروات الطائلة . ولقد استخدم هذا العنف الوحشى فى طرد برادلف من مجلس العموم مما أثار الرعب قلب جون برايت الذى ماكاد يصل حتى رأى ستة من رجال البوليس وهم يجرون برادالف الى خارج المبني . كما سجن ج. و. فوت ـ خليفة برادلف فى رئاسة الجمعية العلمانية القومية ـ لمدة عام لأنه نشر صورة لصمويل وهو يمرخ شاؤول فى ملابس عصرية . ولقد كانت مسألة شرف بالنسبة لزملائهم من المرتدين أن يمنحوهم تأييدا كاملا ومؤكدا وذلك بأن يعلنوا أنهم اما ملحدون أو لأ أدريون . وفضلت القول بأنى ملحد لأن الإيمان بالله فى ذلك الوقت كان يعنى الإيمان بالمعبود القبلى المسمى « يهوه » . ولم يكن من الممكن أن أدعى أننى « لا أدري » متظاهرا بأننى لا أعرف شيئا عن وجود أو عدم وجود ذلك الاله . ومازلت أقول وأنا أتعامل مع المحافظين من أصحاب مذهب « العصمة الحرفية » أننى لا أومن بمعبودهم هذا، وعلى ذلك فإن بإمكانهم وفقا لأغراضهم أن يستبعدونى كملحد .

ماذا كنت إذن؟ عندما أصبح ج. و. فوت عاجزا عن الوفاء بديونه وأثارت عريضة افلاسه مسألة من يخلفه لو استقال من رئاسة الجمعية العلمانية القومية، وضعنى بعض الأعضاء وعلى رأسهم جورج ستاندرينج ضمن قائمة المرشحين، ودعونى لألقى كلمة فى الجمعية حتى يمكن الحكم على مقدار صلاحيتى ولقد برهنت الأحداث فيما بعد أننى لم أكن أسوأ من رشحوا لشغل هذا المنصب . ولكن بعد أن ألقيت كلمة عن « التقدم فى الفكر الحر » بدا الغضب واضحا فى وجوه أصحاب مبدأ العصمة الحرفية (وهم موجودون فى الجمعية العلمانية القومية بنفس الكثرة التى يوجدون بها فى جيش الخلاص) مما جعلهم يوحون الى ستاندرينج أن فرصتى فى النجاح أقل بكثير

من فرصة رئيس أساقفة كنتربرى لو رشح نفسه . لقد سرت الرعدة فى أجسادهم وأنا أعلن أن الثالوث الأقدس ليس استحالة رياضية، لكنه التوحيد المتعارف عليه بين الأب والابن والروح فى ذات فرد واحد، وأن عقيدة الحمل بلا دنس هى جزء من الحقيقة المقدسة التى تقول بأن كل حمل طاهر، وأن تقديس الروم الكاثوليك لمريم هو، نتيجة لهذا، اضافة ضرورية تضع الأم الى جوار الأب فى الثالوث الأعظم، وأن يسوعى ماهر يستطيع أن يحول أى علمانى عادى الى الكاثوليكية الرومانية . ولم يكن تحول مسزبيسانت الى الثيوصوفية آنذاك قد صدمهم وهزهم .

لقد أعلن تشارلز واتس، وهو من أقدر القادة العلمانيين، انه ليس ملحدا أو لا أدريا، ولكنه عقلاني . وكان هذا الموقف لايجابيته أكثر قوة من موقف برادلف . الا أن شخصية برادالف البطولية جعلته يحتفظ بمكان الصدارة وسط خضم الأحداث حتى أدى انتصاره على مجلس العموم الى تحطيمه ثم الى قتله فى النهاية . لكن العقلانية تتطلب إيمانا بأن العقل ليس مجرد وسيلة فقط لكنه دافع . ولقد جنبنى ما أتمتع به من فكر نقدى مغبة الوقوع فى مثل هذا الخطأ . كنت أعلم أن روبسبيير عندما أقام آلهة للعقل، اكتشف بعد ذلك أن العقل مجرد أداة للفكر وكان عليه أن يوافق على ماقال به فولتير من أنه اذا لم يكن هناك اله فإنه من الضرورى أن نخترع واحدا .

ان الحكام المتمرسين فى حكمهم للجماهير لابد وأن يقيموا حسابا للشرف والضمير والروح الجماهيرية ومحاسبة النفس فى السلوك تجاه الآخرين، والوطنية والتضحية بالذات فى متابعة العلم والانتصار على الظروف : بإختصار كل الفضائل الظاهرة وكذا مايقابلها من رذائل، وكلها حتمية لكنها لا عقلانية . وبما تعودته من أسلوب واقعى أقول أن العقل يستطيع أن يدلك على أفضل الوسائل . أتوبيس أو ترام أو نفق أو تاكسى للذهاب من بيكاديللى الى « بتني »، لكنه لايستطيع أن يفسر لك لماذا تريد الذهاب الى « بتني » بدلا من البقاء فى بيكاديللي . ولقد ارتبطت العقلانية أيضا بالمادية . وكنت وما أزال من المؤمنين بالمذهب الحيوى — وأحد من هؤلاء الذين يعتبرون الحيوية سرا

غامضاً تمام الغموض بالرغم من أنها أكثر الحقائق تجسيدا وثباتا. انني دائما ما أُستخدم المادة والعقل لكنني لست من أتباع المذهب العقلاني أو المذهب المادي.

ولربما قيل على الأقل أنه كان من الممكن أن أعلن أنني تطوري؛ لكن الفكرة السائدة في ذلك الوقت كانت تفترض أن داروين اخترع نظرية التطور. لقد فعل العكس تماما عندما أظهر أن كثيرا من التطور والنمو الذى يعزى لاله خالق، كان من الممكن أن يوجد صدفة دون هدف أو وعي. وسمى هذه العملية عملية الاختيار الطبيعى . وكان رد الفعل ضد الكنيسة والكتاب المقدس حينذاك قويا بين المتشككين من أصحاب الفكر مما دعاهم الى قبول نظرية الاختيار الطبيعى قبولا كاملا دون سؤال أو اعتراض. ولقد أصر فايسمان . أعظم أتباع الدارونية فى تلك الآونة. على أن كل حركاتنا وأفعالنا لاتزيد عن كونها مجرد انعكاسات لا ارادية.

ولقد ظل هذا الفكر مقبولا الى أن أدرك سامويل بتلر فجأة. وكان التيار الجديد قد جرفه بعيدا لمدة ستة أسابيع. أن داروين قد نفى وجود العقل من العالم عندما ألغى وجود الهدف فى التاريخ الطبيعي. وفى الحال بدأ يظهر أنه قد نفى الفضيلة أيضا ذلك لأن العلم، كبديل للدين، يطالب بإعفاء الأفراد من كل الاعتبارات الإنسانية الكريمة. لقد رفع العلم بعض المعتوهين من أمثال ليستر وبافلوف الى مرتبة التقديس واعتبر أن تشريح الحيوان الحى هو الطريق الوحيد لفهم علم الأحياء وتبجح باحصائيات ساذجة لاقيمة لها بنفس التهور الذى تبجح به المؤمنون بالعصمة الحرفية وهم يتحدثون ماسموه بالبيئة المسيحية، وأعلن أنه لايوجد على وجه الاطلاق أى اختلاف علمى بين الجسد الحى والجسد الميت حيث أنه لايوجد بين الاثنين أى اختلاف كيميائي، ونبذ طقس المعمودية بكل وداعته وشاعريته كخرافة بربرية وأحل محله خمسين تلقيحا ساما، بهدف تلقيحنا ضد المرض، وتنبأ بانتهاء الحياة من فوق الأرض بعد أن تفقد الشمس حرارتها وتبرد. وعموما اندفع فى عربدة تتميز بالسذاجة والتعصب الأعمي، كان من نتيجتها أن ارتفعت أصوات تنادى بالعودة الى

المسيحية أو الى أى عقيدة تتضمن مبادئ ميخا فى العدالة والرحمة والتواضع أمام فداحة قصور وجهل عملياتنا العقلية. وبالرغم من أن اتباع داروين كانوا يفضلون مواجهة الاستشهاد على انكار ايمانهم بداروين أو اعلان ايمانهم بالله، الا أنهم كانوا سفلة وبلاضمير فيما يختص بأمور المال والنساء.

ماذا أقول إذن وأنا الفنان البيولوجي عندما يطلب مني تعريف عقيدتي؟ أنا كاثوليكى لأننى شيوعى (والكلمتان تعنيان نفس الشئ) وأتمتع بقدر كاف من الذكاء يمكننى من أن أدرك أن حضارتنا بحالتها الراهنة لايمكن أن تحافظ على وجودها دون قاعدة شيوعية عريضة توفر الحراسة للجسور والطرق وإمدادات المياه وإضاءة الشوارع وتقيم محاكم العدالة والمدارس والكنائس والسلطة التشريعية والادارية والقانون الدستورى والجيوش والأساطيل والقوات الجوية الى آخره. وكلها قضايا بارزة على نحو صارخ فى مواجهة الاغلبية العظمى الجاهلة التى تعتبر أن كلمة شيوعى ماهى الا تعبير سوقى بذئ وأن الشيوعية لاتزيد عن كونها مجرد تجسيد لكل ماهو شائن وشرير. ولكن اذا قلت بأننى كاثوليكى فسوف ينظر الى على أننى عضو فى إحدى الكنائس المسيحية الرسمية، وكلها كاثوليكية فى نظامها الداخلى سواء كانت رومانية أو انجليكانية أو رومية أو غير ذلك، وكلها أيضا حافلة بأوهام وخيالات تستخدم لتخدير مشاعر تابعيها مثل وهم التكفير عن الذنوب الذى يتمسك به الفسقة خوفا من عذاب الجحيم ولذا فهم لايجرؤون على اقتراف الإثم طوال ستة أيام دون أن يتطهروا بدم المسيح فى اليوم السابع. وكلهم يتعلقون بأكذوبة خلود الذات التى تفقد الإنسان العادى إحساسه بالخوف من الموت. وكما يقول مارك توين: «الإنسان العادى جبان بطبعه».

وفيما يختص بالوصية الرئيسية فى الدين المسيحى: «ليحب كل منكم أخاه»، فإننى لا أتبعها، وذلك لأننى عندما أتأمل البشرية فى أشخاص أقلية من السيدات والسادة الأثرياء الذين يمجدون الحرب وينغمسون فى الخرافة دون مبالاة بجماهير الطبقة العاملة الفقيرة، فإنى لا أجد نفسى مدفوعا لانكار حبهم فقط. بل والى كراهيتهم أيضا. وأرى أنه من الضرورى أن تحل محلهم

مجموعة من الحيوانات الأكثر إدراكا، لو قدر لهذه الحضارة أن تنقذ من الخطر الذى يتهددها. إننى فى الواقع لا أستطيع أن احب هتلر وبافلوف وأتباعهما. وحبى لهم لايزيد عن حبى لنيرون وتركويمادا، محقق محاكم التفتيش الأسباني.

ولو قلت بأننى من أتباع المذهب الحيوى لوضعنى العلماء الذين يعترفون بوجود القوة الحيوية فى صفوف الماديين، ذلك لأنهم يرونها كمجرد شئ آلى تماما مثل البخار أو الكهرباء.

ولو قلت ببساطة أننى تطورى لوضعت فى قائمة الداونيين. ولو رفضت داروين لافترض البعض أننى لا أعلق أهمية على الدور الذى يلعبه العقل والاختيار الطبيعى فى مصير البشرية، اذ أن العرف السائد لا يألف الا كل ماهو متطرف: سناج او كلس، يمين أو يسار أبيض أوأسود. ولست أبيض ولا أسود، ولكنى رمادى عتيق لأننى شديد الجهل. وكل القطط تبدو رمادية فى الظلام.

كما أننى لا أقبل حتى ذلك المنطق المسلم به والذى يقول بتسلسل العلة والمعلول، اذ أرى أن العكس هو الصحيح. أن الهدف أو الغرض أو التأثير المقصود هو الذى يتسبب فى إبراز مايسمى بالسبب، هذا اذا ما استثنينا الحالات التى تلعب فيها الصدفة المحضة دورا خارجا عن ارادة الإنسان. فإذا ما أطلقت النار على جارى فإن الخطأ لن يكن خطأ البندقية والزناد، كما أن الحبل لن يكون سببا فى اعدامى شنقا: كلاهما ناتج عن تصميمى على القتل وعن احساس هيئة المحكمة بالعدالة.

وعلى ذلك وبما أن برجسون هو فيلسوفى المفضل فإننى أقر بأننى تطورى خلاق. وعند هذا الحد كان يجب على أن أترك هذا الموضوع اذ قد بلغت من العمر مالا يمكننى من إتباع أساليب جديدة فى المداورة، لولا أننى مازلت أواجه بسؤال عن الله وعن مكانته فى عقيدتي. وعندما أرد على هذا بسؤال «وما هى مكانة الله فى عقيدتكم؟»، يتساوى الرد فى النتيجة أن الكنائس

تسلم بوجود اله قادر، وهو بكل وضوح إما غير قادر أو غير رحيم، ذلك لأن العالم ممتلئ بالشر قدر ماهو ممتلئ بالخير لدرجة أن أقدر مفكرين من اكلسياستس الى شكسبير كانوا متشائمين، أما المتفائلون فقد سلموا بوجود شيطان كما سلموا بوجود اله. وكان على كلا الفريقين أن يقدرا فعالية قوة طبيعية تطل عليها الكنيسة اسم «الله» ويطلق عليها العلماء «التكيف الوظيفي» أو «الاختيار الطبيعي» أو «قوة الطبيعة الخلاقة» أو «الأسطورة الجبرية» أو «المخطط الكوني» وأطلقت عليها إسم «القوة الحيوية والرغبة فى التطور»، كما سماها برجسون «الحيوية الجوهرية».، وقال كانت بأنها «الأمر الحتمي» وأطلق عليها شكسبير عبارة «الاله الذى يشكل أقدارنا مهما بلغت ارادتنا فى صنعها». وهم جميعا يصلون الى نفس النتيجة: اندفاعية غامضة تجاه قوة آعظم تسيطر على أحوالنا، وفهم أعمق للحقيقة والطبيعة. وفى سبيل هذه الاندفاعية وهذا الفهم يغامر رجال ونساء بحياتهم مواجهين الموت الذى يتعرض له المستكشفون والشهداء ومضحين براحتهم وأمنهم دون مراعاة لمختلف الاحتمالات.

وبما أن هذه القوة التى لايمكن تعليلها، رغم مايطلق عليها من أسماء مختلفة، تواجه كل الأديان كحقيقة لاسبيل الى انكارها فلربما يكون من الأفضل تسميتها «الله» وهذه أفضل كلمة دارجة، للتعبير عن هذه القوة. وعلى ذلك فإن الكثير من الخلاف بين الانجليكية فى ابسط صورها والتطورية الخلاقة يكمن فى المقدرة على التحليل والتخيل. ومن المؤكد أن آلهه الكتاب المقدس وهم خمسة على الأقل يوصفون على الورق بأنهم أقوياء لايعتريهم ضعف، قادرون على كل شئ ويحيطون بكل شئ علما، بينما تستمر القوة الحيوية عن طريق التجربة والخطأ، ومهما كانت خيرة فإنها تخلق مشكلة الشر باخطائها وتجاربها الفاشلة، ولاتستطيع اى سلطة ادارية أن تقوم بواجباتها من الناحية العملية على افتراض أنه توجد أو جدت على وجه الإطلاق أو ستوجد قوة قادرة منزهة عن الخطأ وعليمة بكل شئ. وعندما يتحول الملحد الى أخ مؤمن أو العكس فإن التعليق النهائى فى هذه الحالة يكون: «لاجديد، انه نفس

الشئ» . ان فكرة الاله المنزه عن الخطأ خيال ربما استدعته ضرورة سياسية كما هو معهود فى حالة البابا أو اللجنة التشريعية لمجلس اللوردات لكنها رغم ذلك خيال .

إن مسمياتنا ليست بذات أهمية على الاطلاق، وأنا أنفى وجود أى هدف لى لفرض مسمياتى على الآخرين. اننى لا انسى تحذير المسيح وهو يقول: «اذا حاولنا أن نزيل ماتعلق بالديانت القائمة من شوائم فإننا نقضى على الطيب والخبيث معا ونترك الناس بلا دين» . إننى أرفض مبدأ التكفير. انه من غير اللائق أن يسمح السادة والسيدات لشخص آخر أن يكفر عنهم خطاياهم بأن يقدم نفسه قربانا ويعانى عذاب ميته قاسية. لكنى أعرف كحقيقة مسلم بها أن طائفة «النظامية» التى تؤمن إيمانا كاملا بهذه الخرافة البغيضة قد حولت عمالنا وزوجاتهم وأمهاتهم من مخلوقات همجية الى مخلوقات متحضرة نسبيا، وأن أية محاولة لاقناعهم باعتناق التطورية الخلاقة قد تجعلهم أشد خطورة وأكثر همجية مما كانوا عليه، بلا خشية من اله فرد وبلا خوف من عذاب النار. ان تحويل القرويين السذج من الإيمان الى الشك بواسطة أفكار الحادية سلبية وعلم يفوق مستوى ادراكهم قد يضع نهاية للحضارة. رغم أنها لن تكون المرة الأولى التى يقضى فيها الإنسان على حضارته. وربما وضع نهاية للبشرية كما وضع من قبل نهاية الدينوصور والماموث والمستودون. ان بإمكان عملية النشوء والارتقاء الخلاق أن تحل محلنا خلقا آخر، لكن علينا فى نفس الوقت أن نعمل من أجل بقائنا وتطورنا كما لو كنا آخر ماوصلت وماستصل اليه الخليقة.

إن الإنهزامية هى أسوأ مايصيب الإنسان.

❊ ❊ ❊

تصحيح أخطاء كتاب السيرة

المحافظ المبجل ونستون تشرشل يقرر :

«إننى اقتدت الى معبد وكنيسة انجيلية لاتقيم وزنا للأساقفة أو طقوس الدين»

أبدا، ان الكنيسة فى الدوائر الأيرلندية البروتستانتية لاتقيم وزنا كبيرا للأساقفة أو الطقوس الدينية (أو ربما بدت شعائرية فى اشعالها الشموع فوق المذبح): ويطلق لفظ معبد على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والفرق بين الكاثوليكية الرومانية والبروتستانية يفوق كل الفروق الموجودة بين أتباع الكنيسة الانجليزية والخارجين عليها فى كل من انجلترا وويلز، ففى أيرلندا أما أن تكون بروتستانتيا أو لاتكون. ولايهم مطلقا إذا كنت بروتستانتيا، أن تذهب الى الكنيسة الرسمية أو الى مقر «جمعية النظاميين» أو الى الكنيسة المشيخية: وقد يشترك الشريف أو نائب الحاكم فى صلاة المنشقين على الكنيسة لو حلا له ذلك، أما اذا خطى خطوة واحدة داخل المعبد الكاثوليكى فعليه أن يتوقع شرورا لاحصر لها.

والرأى الذى يقول بأننى نشأت منذ الصغر كأحد الخوارج الويسلين رأى خاطئ الى حد كبير. لقد كان جو الأسرة التى نشأت فيها يتميز بحرية فكرية ساخرة. وأذكر عندما بلغت العاشرة أن أبوى أهملا حتى مجرد التظاهر بالذهاب الى الكنيسة من باب المحافظة على احترام الآخرين لهما. أما عن نفسى فقد توقفت، بعد أن فكرت مليا، عن اقامة صلواتى على أساس أننى ملحد. وبما أن صلواتى كانت موضوعات مطورة من تاليفى فقد شعرت أننى بتركها أقدم تضحية عادلة فى سبيل المبدأ. ولم يحدث مطلقا أن أكترث أبواى بحقيقة أن «الابن شو» قد غدا كافرا.

«انه يخطب فى الفنادق وعلى قارعة الطريق».

ولماذا فى الفنادق؟ لقد خطبت فى كل مكان آخر من أول المجتمع البريطانى الى أرصفة الميناء والأسواق وفى كل بقعة من بقاع المدينة، لكن نادرا ما خطبت في الفنادق. لقد عاملنى هنرى جيمز فى رهبة تمتزج بالدهشة لأن شخصا أخبره أننى وقفت يوما على جسر النهر وخطبت فى المارة حتى اجتمع حولى جمهور لا بأس به. وسألنى جيمز عما اذا كان هذا صحيحا حقا وعندما أجبته بأن هذا هو ماحدث فعلا، صاح فى استغراب: «اننى لا أستطيع أن أفعال ذلك اننى لا أستطيع أن أقنع نفسى بفعل ذلك». ودائما ماكنت أؤكد أن الهواء الطلق هو أفضل مدرسة للخطيب الجماهيري.

لقد بلغت القمة كخطيب معروف أثناء الانتخابات العامة التى تلت حرب ١٩١٤-١٩١٨. وقد تملكتنى الدهشة عندما سدت الطرق القريبة بالجماهير التى لم تستطيع الدخول.

وكان وداعى لمنصة الخطابة بكل أضوائها فى دار أوبرا المتربوليتان بنيويورك بعد خطبة ناجحة تماما استمرت تسعين دقيقة وكان لها تأثير السحر، لكني ظللت بعدها متعبا لمدة ثلاثة أيام متتالية. وعندها عرفت أننى قد أصبحت بسبب كبر سنى غير قادر على ممارسة هذه اللعبة.

وبجانب هذا فان جريدة الأخبار الاذاعية قد نحت المنصة جانبا ومازال باستطاعتى أن انفذ الى قلوب المستمعين وقلوبهم وأنا أتحدث لعدة دقائق فى الاذاعة. ومن ذا الذى يفضل الحديث الى عدة مئات من الناس فى حين يمكنه بنصف المجهود أن يوصل صوته للملايين؟

«فى عام ١٨٨٩ يظهر عليه لاول مرة قليل من التأثير الماركسي»

هذا التاريخ متأخر، فروايتى الاشتراكى المنعزل التى كتبتها عام ١٨٨٣ تمتلئ بالماركسية الخالصة وعندما اسست الجمعية الفابية ١٨٨٤ واخترتها

مسرحا لنشاطى كنت قد استوعبت من كتابات ماركس ما استطعت أن أجده باللغـة الفـرنسيـة، فـفى ذلك الحين لم يكن قـد نقل الى الانجليـزية من تلك الكتابات مايستحق الذكر.

« *وفيما بعد القى بماركس جانبا وتحول الى سيدنى ويب* » .

أبدا، ما ألقيت بماركس جانبا فمازلت كما كنت دائما ماركسيا فيما يتعلق بالجوهريات . عندما هاجم فيليب وكستد . أحد أتباع جفونز. نظرية القيمة الشهيرة لماركس، كان على أن أدافع عنها حيث أنه لم يكن هناك من هو أفضل منى للقيام بهذه المهمة. لكنني لم أكن حتى ذلك الحين أعرف شيئا عن الاقتصاد النظري.

واستمرت دراستى لهذا الموضوع عدة سنين وأنا أحضر الاجتماعات الخاصة التى كان وكستد يحاضر فيها عن نظرية جيفونز. ولقد وجدت بعد أن تمت سيطرتى على النواحى الايجابية فى سياسة الاقتصاد الرأسمالى أن أعضاء الحركة الاشتراكية جميعا بما فيهم ماركس لم يستطيعوا فهمهما، كما وجدت أن وكستد قد أصاب حيث أخطأ ماركس فيما يختص بنظرية القيمة المجردة. ولقد كان ماركس. كما يثبت فى تذييل له عن ريكاردو. لايعرف شيئا مطلقا عن قانون الايجارات رغم أنه قانون أساسى فى الاشتراكيـة. كما أن نقص تجربته الادارية وكذا اتصاله الشخصى بالمجتمع الانجليزى سواء بالطبقة العاملة أو الرأسمالية قد سبب له عجزا خطيرا كسياسى واقعى بالرغم من أنه هَز العالم كله بازاحة النقاب عن مساوئ الرأسمالية التى حدد مصيرها فى الميثاق الشيوعي. ولم يكن سيدنى ويب. وقد اتخذ جون ستيورات ميل رائدا له. يهتم بشئ من هذا على وجه الاطلاق. لقد اتبع ميل حتى آخر مراحله فى الاشتراكية وعلى ذلك فلم يكن هناك مايدعوه الى اعتناق المبادئ الماركسية. لقد كان ويب. ككل. رجلا فذا فى قدراته وبساطته، ولقد قال أسكويث فى وصفه له: انه قديس. وربما أصبحت بدونه مجرد واحد من ظرفاء الأدب.

« كان يدعو دائما الى أن تسيطر الدولة على كل أنواع الثروات ومع ذلك فعندما قرر لويد جورج - لأول مرة فى تاريخ الميزانية - أن يفرض ضريبة تصاعدية على أصحاب الدخول الكبيرة، لم يرتفع صوت بالاحتجاج أعلى من صوت هذا الفابى الغني ».

كان من الواجب على وزير سابق لوزارة المالية أن يكون ملما بما هو أفضل من ذلك. وهذه هى الحقائق : عندما زادت حدة غضب النساء المطالبات بحقهن الانتخابي، طلبت مسزجاكوب برايت من كل ذات يسار من النساء أن ترفض الابانة لزوجها عن دخلها حتى لايعلن عنه لمصلحة الدخل القومي. وعند ملئى لكشف الضريبة الذى وصلنى بعد أن انتشر نداء مسز جاكوب، كتبت فى المساحة المخصصة لدخل زوجتى أننى لا أعرف عنه شيئا ولا أملك أى سلطة قانونية لاجبارها على أن تظهرنى عليه. ولقد هزت هذه الكلمات جباة الضرائب وأفقدتهم توازنهم. وعندما ظنوا فى البداية أننى أثير المتاعب بمحاولة التهرب من دفع الضريبة، بينت لهم أن باستطاعتهم فرض أى تقدير وأخبرتهم بالرقم الذى أعتقد أنه قريب من الحقيقة، وأخبرتهم بالاضافة الى ذلك أننى كنت دائم الاصرار على أن يكون لزوجتى محاميها وصيرفيها الخاصين (اذ أنها تزوجت مغامرا فى ميدان الأدب) وعلى ذلك فانا لا أعرف فى الواقع كم يكون دخلها. كما شرحت لهم موضوع مسز جاكوب برايت، وتحدثت عن الاحتمالات التى قد يواجهونها اذا لم يجدوا حلا للموقف وكانت النتيجة أن صدر قانون الانصاف الذى نسب الى والذى يمكن الزوج وزوجته من أن يكون لكل منهما ايراده الخاص. وكلما أعلن بطريقة غامضة أننى اشتكيت من شئ ما تكون النتيجة أن يقال أننى أثير أحقادا قديمة لأنهم لم يعفونى تماما من دفع ضريبة الدخل.

لقد عارضت أيضا كل أنواع الضرائب المفروضة على العقار الثابت (ضريبة التركات) واصرزت على أن الدخل فقط هو الذى يمكن أن تفرض عليه ضريبة. صحيح أنه لو كان دخلك خمسة جنيهات سنويا فان السمسار

الذى تتعامل معه قد يجد من يدفع لك فى مقابله سبعين أو مائة جنيها نقدا من رصيده السائل. وعلى هذا الأساس يفترض البعض بطريقة تبعد كل البعد عن المنطق أو وزير المالية يستطيع أن يحصل دائما على أى مبلغ يريده من المال وذلك بمضاعفة الدخل القومى على الورق عشرين مرة ثم يفترض بعدها أنه بامكان جامعى الضرائب تحصيل المبلغ الكلى فى أية لحظة. هذه سفسطة مدمرة. ان رأس المال والرصيد الدائن هما حالتان افتراضيتان فيما يختص بالأغراض الحكومية. وكم أتمنى أن يرتفع صوتى أكثر وأكثر معلنا تذمرى وسخطى فى حالة حدوث شئ كهذا، ذلك لأن أى غبى فى وزارة العمال قد يخدع بسهولة ويسلك مثل هذا المسلك وتكون النتيجة لاشئ سوى مجموعة من سندات البورصة يعرضها أصحابها للبيع ولايجدون من يشتريها، حيث أنها فقدت قيمتها بعد أن أصبحت بلا رصيد.

«ان هذا المفكر وهو من ألمع المفكرين الاشتراكيين يصف الشيوعية على أنها: لحن جنائزى يعزف لموت قرد».

هذا القول غير دقيق تماما. لقد سميتها «اللحن الجنائزى لدفن ثعبان سمك مقلي».

وتشير الكلمات التالية الى زيارتى لروسيا عام ١٩٣١:

«خرجت جماهير غفيرة جيدة التدريب لتعلن عن ترحيبها وقد كانت أوشحتها حمراء وكذا لون أعلامها. دوى صوت الموسيقى وارتفعت هتافات الطبقة العاملة تشق عنان السماء».

مجرد خيال «لم تكن هناك أية فرقة موسيقية أو أى علم أو أى وشاح أحمر أو أى هتافات فى شارع من أول الرحلة الى آخرها، بالرغم من أننى عوملت، بلاريب، كما لو كنت كارل ماركس نفسه وبالرغم أيضا من اننى استقبلت استقبال فخما (كان من الغريب أن يتضمن اجتماعا عاما ووجبة خفيفة وموسيقي) فى قاعة النبلاء التى تتسع لأربعة آلاف شخص وقد امتلأت

عن آخرها. كانت الكلمات قصيرة. ارتدى أحد العازفين ملابس السهرة وقد بدا هذا مضحكا، ارتدى أحد الخطباء قميصا وبنطلونا وكان هذا يبدو طبيعيا للغاية. تحدث انكارسكى ولقد أمضى هو وليتنوف وقتا طويلا فى صحبتي، ذلك لأنهما. كما اكتشفت فيما بعد. كانا يريدان رؤية روائع الانجازات السوفيتية التى لم يرياها أبدا من قبل بسبب ضيق الوقت. لقد قوبلت بكل ماهو ممكن من حفاوة وترحاب دون أية رسميات. وكان لغياب الرسميات وهراء الخطابيات أثر رائع فى نفسي.

وبلغت الرحلة ذروتها عندما التقينا بستالين. وكان حارس الكرملين الذى سألنا عمن تكون هو الجندى الوحيد الذى رأيته فى روسيا. وأجاد ستالين القيام بدوره، وهو يستقبلنا كما لو كنا أصدقاء قدامى وتركنا نفرغ ما فى جعبتنا من حديث قبل أن يأخذ دوره بكل تواضع. وكانت مجموعتنا تتكون من لورد آستر وزوجته وفل كير (الذى حصل قبل وفاته على لقب مركيز لوثيان) وأنا. كما حضر ليتفنوف وقلة من الروس. وفى طريق دخولنا مررنا بثلاث أو أربع حجرات جلس فى كل منها موظف أمام مكتب، وجالت بخاطرنا فكرة وجود مسدس يمكن تناوله بسهوله من أحد الأدراج.

بدأت المقابلة بهجوم عاصف شنته ليدى آستر التى أخبرت ستالين أن البلاشفة لايعرفون كيف يعاملون الاطفال. وأخذ ستالين لحظة ثم أوما باحتقار وهو يقول: «انكم تضربون الاطفال فى انجلترا». وفى الحال طلبت منه ليدى آستر أن يكف عن هذا الحمق وأن يرسل سيدة على قدر معقول من الذكاء كى تتعلم فى «معسكر مارجريت ماكميلان» الطريقة المثلى فى معاملة الأطفال وتهذيبهم وتعليمهم وهم فى سن الخامسة. ولم يتوان ستالين عن أخذ مذكرة بالعنوان واعتقدنا أن ما فعله لايزيد عن كونه مجرد مجاملة. لكن ماكدنا نصل الى انجلترا حتى فوجئنا بوصول «المرأة الذكية» تصحبها ست أخريات، والكل متعطشات للتعلم ولقد أرسلوا كما ينبغى الى دبتفورد حيث أنفقت عليهن ليدى آستر الكثير من المال.

تحدثنا بعد ذلك فى السياسة التى وجد فيها « فيل » مجاله كرجل قرأ كارل ماركس وألم بكل ما يمكن معرفته عن الشيوعية العلمية. ولقد شرح كيف انقسم حزب الأحرار الانجليزى وانحاز أغلب أعضائه الى اليمين، تاركين بقية الأعضاء بلا راع. ولم يكن بامكان تلك البقية أن تنضم الى حزب العمال لأن حزب العمال كان فى ذلك الحين فى مرحلة التكوين من الناحية السياسية. ولقد كانت الحاجة تدعو الى أن تنضم مجموعة من دارسى الشيوعية العلمية الى الجناح اليسارى من حزب العمال تحت قيادة لويد جورج. واقترح فيل أن يوجه ستالين دعوة رسمية للويد جورج كى يزور موسكو ويرى عظمة روسيا السوفيتية.

قابل ستالين الاقتراح بمرح بالغ، كان من الواضح أن الاقتراح قد أطربه كما أطربني. وكانت اجابته طويلة مهذبة لكن تغلب عليها روح الفكاهة والمرح. وعلمنا من الترجمة أنه من غير الممكن توجيه دعوة رسمية الى شريك « رانجل » فى الغزوة التى قام بها الجيش الابيض. ولكن اذا ذهب لويد جورج الى روسيا بصفته الشخصية فسيلقى كل التسهيلات وسيقابل بكل ماهو جديد به من احترام.

ولقد حاول لورد آستر أن يقنع ستالين أن انجلترا تكن الكثير من مشاعر الود تجاه السوفيت وأنه لايوجد فى المستقبل مايمنع من اقامة صداقة علي أساس من الفهم المتبادل. ولقد بلغ حماس آستر حدا جعلنى أرى أنه من اللازم أن ألفت نظر ستالين الى أن لويد جورج، رغم عدائه العنيد للبلشفية، يمكن أن يلعب دورا فى هذا المجال. وسألت ستالين عما اذا كان قد سمع علي وجه الاطلاق عن اليفر كرمويل ومبدئه المحفوظ فى مقطع أحدى الأغنيات الشائعة فى أيرلندا:

« ثقوا فى الله يا أبنائى ولا تستخدموا البارود ».

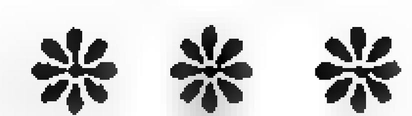
وعندما استوعب ستالين هذه الكلمات أشار الى أنه لن يستخدم البارود

بالتأكيد وتجاهل الاشارة الى الله. وسألته بعد ذلك عما اذا كان من الممكن توجيه دعوة الى مستر تشرشل لزيارة روسيا واعتقد ان مزاجه قد امتزج بشئ من التهكم وهو يقول انه سيكون سعيدا برؤية مستر تشرشل فى موسكو.

كانت روح المرح تشع فى كل احاديثه. ان باستطاعته أن يضحك. وعندما خرجنا (بعد منتصف الليل) كنا نظن أن المقابلة لم تزد عن النصف ساعة الا قليلا، وعندما نظرنا الى ساعاتنا وجدنا ان المقابلة استمرت ساعتين وخمسا وثلاثية دقيقة.

سيدموث

سبتمبر ١٩٣٧



المرحوم الأستاذ أبلجر:

كان الأستاذ أبلجر ابن مفتش بوليس أيرلندى وكان أحد المعجبين بأعمالى لدرجة أنه كرس الكثير من الوقت، الذى استطاع قدر الامكان أن يقتطعه من عمله الرسمي، كى يكتب سيرتي. ولقد كتبت له الكثير من الخطابات ردا على ما طلبه من معلومات وعندما انتهى من الكتاب الذى أرخ فيه لحياتى وعرضه على ناشر أمريكى وجد الناشر أنه يحتوى على بعض العبارات المهينة. ورغم أنه قبل الكتاب لميزاته الأدبية، الا أنه طلب شهادة بتصديقى وموافقتى وكان من المستحيل. كما سأوضح فى الصفحات التالية. أن أكتب مثل هذه الشهادة وعلى ذلك فلم ينشر الكتاب ولكن بما أن المخطوط ما يزال فى أيدى القائمين على تنفيذ وصية المؤلف وبما أننى لا أستبعد احتمال نشره بعد موتى تحت عنوان الحقيقة عن برنارد شو، أو أى عنوان مماثل لذلك

أرى أنه من الأفضل أن أعلن اجابتى عليه.

بالرغم من أن الأستاذ أبلجر اتخذ الأدب مهنة له، الا أنه ورث سلوك أبيه ووسائله البوليسية فى تقييم عبارات وأدلة المتهمين أو المشكوك فى أمرهم وقد بيت النية على محاكمتهم بتهمة الخروج على القانون. كما أخذ عن أبيه أسلوبه فى جمع القرائن الدالة على الحياة الشخصية لمن يتعامل معهم من أفراد.

ولم يكن النقد الفنى هو ما يهدف اليه الأستاذ: كان هدفه الوحيد هو البحث عما يسئ الى سمعة أو مايتسم بالخروج على القانون. باختصار لم يقم الأستاذ بعمل الناقد أوعمل كاتب السيرة، لكنه ببساطة قام بعمل رجل البوليس السرى دون أن يكلفه بذلك مفتش رسمى أو مدع عام.

وأسجل هنا ما أنا بحاجة اليه من تعليق.

باركنا سيللا كتمار

٧ أغسطس ١٩١٩

❋ ❋ ❋

عزيزى أبلجر..

انك بالتأكيد ستكون السبب فى موتي. تقول فى تصويرك لقصتى أنها قصة يجد فيها البطل الطيب - أبى - نفسه مدفوعا الى ادمان الخمر بعد أن يكتشف خيانة زوجته، ويترك فى النهاية كى يموت وحيدا فى أحد الملاجئ.

أمن الواجب على أن أبدى لك الحقائق مرة أخري، وإذا فعلت فهل روايتى الثانية ستكون أكثر فاعلية من روايتى الأولى - التى لايتطرق اليها الشك - فى أن تخرج من رأسك المأفون هذه المادة الزائفة التى تتضمنها أخبارك البوليسية ؟

أبعـد عن تفكيرك لحظة « ج.ج.لي » الرجل الذى علم أمى الغناء ثم أصبح زميلا لها، انه لم يكن قد ظهر بعد على مسرح الأحداث. كان أبى فى تلك الآونة رجلا أعزب متوسط العمر، ليس له من عدو سوى نفسه ولايكرهه أحد لأنه لايخيف أحدا.

كان ظريفا فكه الكلمات، يكتب الشعر من آن لآخر كي يسلى به الناس وكان ثانى أبناء عمومته هو السير روبرت الذى اتخذ من « بوشى بارك » مقرا له. وعليه فقد اعتبر أبى نفسه من عائلة اقطاعية، لكنه كابن أصغر لم يكن على شئ من الثراء ومازال أكثر اخوته يعيشون فى ظروف طيبة ويتمتعون بمراكز اجتماعية عالية. كان يشرب الخمر لكن ادمانه لم يكن ناتجا عن ضعفه أمام الشراب بل كان نتيجة لاضطراب عصبى : حالة مرضية تعيسة وضحاياها هم أشر المتحمسين لمحاربة الادمان. انهم يحتجون ويدعون الى القضاء على اللعنة التى أصابتهم. لقد ظهرت هذه الحالة فى الاسرة من قبل، ومقدر لها أن تظهر مرة أخرى بين أبناء عمومتى وأولادهم. ولايذكر أحد هذه الحقيقة للعذارى من سيدات الأسرة اللائى يبعدن عن كل الموضوعات الكريهة حتى يتزوجون.

أما عن أمى فقد ربتها عمتها التى كان يبدو أنها قد قررت أن تورثها أملاكها ولقد نشأت نشأة صارمة لم تتح لها الفرصة فى أن تعرف شيئا عن ادارة المنزل أو أى شئ لايليق بسيدة. ولقد كانت لبعض الوقت محل ترحيب من آل شو الذين يعيشون فى رغد من العيش: احبها سير روبرت واعتبرها الأخرون مكسبا اجتماعيا، لكن أبى كان يشرب حتى الثمالة فى حفلاتهم وكلما دعوه للعشاء حتى أصبح من المستحيل دعوته أو دعوة زوجته دونه. افلاس ونبذ وثلاثة أطفال ومنزل يبلغ ايجاره خمسا وثلاثين جنيها سنويا، وزوج سكير كان يبدو بوضوح أنه لن يستطيع النجاح فى تجارته : كانت هذه حالة أمى عندما اكتشف « لي » صوتها وتعهده بالتدريب أثناء تجواله بحثا عن مغنين وممثلين وكل مايصلح مادة لنشاطه الموسيقي. لقد أخبرتك بكل هذا وبتفصيل أكثر، وكان استنتاجك هو أن أمى ارتكبت جريمة الزنا مع موسيقى

محتال. وبذلك دفعت زوجها الطيب الوقور الصامد ببطولة الى أن يدمن الخمر حتى يستطيع النسيان.

لم يمت أبى فى ملجأ. لقد تركته زوجته وأولاده فى آخر سنين حياته ليعيش وحيدا فى دبلن قبل وفاته بعدة سنوات وذلك لسبب هام جدا وهو أنه كان قد فقد المقدرة على اعالتهم، ولأن الحياة معه خلت تماما بالنسبة لهم من كل امل أو تطلع لما هو أفضل، وبفعلهم هذا أزاحوا عن كاهله عبئا عجز عن أن يتحمله، كما سره أن يتخلص منه، رغم أنه كان قد امتنع عن شرب الخمر وغدى من أفضل خلق الله. لقد فعل كل مايستطيع أن يفعله من أجلهم: استمر حتى موته يرسل لهم جنيها كل أسبوع. وفى نفس الوقت عاش عيشة مريحة جدا فى مسكن محترم حيث قدر ته صاحبة البيت حق قدره حتى حانت منيته ودفن مع آبائه فى مقابر جيروم. وقد سار فى جنازته كل سادة آل شو. وأعتقد أن الفترة التى عاشها وحيدا كانت من أسعد فترات حياته، اذ لم يعد هناك «لي» أو زوجة أو أبناء كبار. وفى أخريات حياته أقنعته بعض المقالات، وبعض ما أرسل اليه من قصاصات الصحف أن ولده سيصبح «رجلا عظيما» وسيحقق كل ما فشل الأب فى أن يحققه.

هذه هى حقيقة الأحداث التى تعرض لها أبى وهى كما ترى خالية من البطولة. لكنك حر فى أن تتعاطف معه كما تشاء وأنت تكتب عنه. كان فى الواقع عطوفا ومحبوبا كأى رجل عادي. أخبرنى ذات مرة كيف وجد فى صباه قطا ضالا وكيف أخذه الى البيت وأطعمه، لكنه فى اليوم التالى تركه فريسة لكلبه الذى طارده ثم قتله. ولقد ظل ضميره يؤنبه حتى تلك اللحظة التى كان يقص فيها قصته علي. ولقد قال لى محذرا بأن من يستطيع الاقدام على مثل هذه الفعلة الشنعاء لايستحق ولايمكن أن يحظى بأى سعادة أو حظ طيب فى مستقبل أيامه. وكثيرا ما أنب نفسه وشعر بالهوان. وعندما لم يكن هناك ما يضحكه كان يتشاغل إما بقرض شاربه والهمس بلعنات يصبها من أعماق فؤاده وإما بالاستسلام لموجات من الضحك المكتوم. كان شريك أبى فى العمل يتميز بشئ من حدة الطبع. واعتقد أبى أن الذوق والطيبة والرقة التى

كان يهدئ بها مشاعر من ساءهم سلوك شريكه هي التي جعلت العمل يستمر. ولقد ساعدت على ذلك بالتأكيد.

أما حديثك عن الوراثة فلامعنى له ذلك لأن أمي كانت هي الأخرى عطوفة جدا. كانت أعجز من أن تؤذى طفلا أو حيوانا، كما كانت تكره أن ترى زهرة مقطوعة أو ملقاة على الأرض. ولو عانت أى امرأة ما عانته أمي لما ترددت في كراهية ابي، لكنها لم تشعر تجاهه بأى احساس بالمرارة. لم تكن تحترمه بكل ما تعنيه كلمة الاحترام لانه كان عاجزا عن القيام بما يكسبه احترامها. لكنها. طبقا للسلوك الأيرلندى الطيب. أخذته على علاته دون تأنيب ودون أن تثير ضده أية قضية أخلاقية. وكنا جميعا على وجه التقريب نعامله بنفس الأسلوب: كان وضعه في البيت هو تماما الوضع الذى لايستطيع الا أن يشغله. وضع الأب بكل ماتمثله هذه الكلمة من معان. ولم يكن باستطاعة «لي» رغم نشاطه وحيويته ان يستحوذ على شئ من مشاعرنا تجاه أبينا.

وكان فشل «لي» في لندن يرجع كلية الى الظروف الاجتماعية التي أرغمته على أن يختار بين الدجل أو الموت جوعا، رغم أن هذا الفشل كان مسبوقا بعدة سنوات من النجاح. وتبعته أمي الى لندن لتتخذ من الموسيقى مهنة لها ولتقدم أختي لوسى الى مجتمع لندن كمغنية أولي. ولقد تعاونت معه في لندن كما فعلت من قبل دبلن. لكنها هجرته في الحال عندما وجدت أنه قد تخلى عن منهجه التعليمي وادعى أنه قادر على ان يمكن تلامذته من الغناء مثل «باتي» بعد اثنتى عشر درسا. وامتنعت عن رؤيته لعدة سنين قبل موته. ولم تكترث مطلقا عندما بلغها خبر وفاته، وبنفس الطريقة لم يثر فيها موت أبى اى أحساس بالاكتراث. لقد كان موت أختى أجنز هو مبعث حزنها الوحيد في هذا المجال وأذكر بهذه المناسبة أن أبى كان يجد في مشهد الجنازة ما يثير احساسه بالمرح ولقد ورثت عنه هذه الصفة. انني لا أحزن أبدا لكنني لا أنسي.

أعتقد أن فى هذا مايكفى عن تقديرك لفضائل أمى كزوجة ! أما عن تعليقك على آرائى فى الاقتصاد فهو لايعتبر نقدا. انك تعترض باستمرار وعن قصد على أشياء لم أقلها أبدا، كما تشتكى من افتراضات لم أناد بها اطلاقا، ولو ناديت بها لاينتهى الأمر بحجزى فى احدى مستشفيات الأمراض العقلية. ان مسرحياتى ليست مقالات فى الاقتصاد الا اذا كانت هذه نفس نظرتك الى مسرحيات شكسبير.

صحيح انه من المستحيل على جاهل بالاقتصاد ان يكتب مسرحية بيوت الارامل أو ماجور باربرا وصحيح أن مهنة مسز وارن هى عرض اقتصادى لتجارة الرقيق الأبيض. كما أنها أيضا ميلودراما. ان هناك صلة اقتصادية بين كاشل بيرون وسرتربوس، ومسز وارن وأندرشافت اذ تزدهر أحوال كل منهم نتيجة لنشاط مشكوك فيه. لكن هل باستطاعة أى انسان. الا اذا كان أستاذا جامعيا مغفلا، فارغ الرأس، مخبولا بتصحيح أوراق الامتحانات. أن يستنتج أن كل مسرحياتى لاتزيد عن كونها مجرد مقالات فى الاقتصاد وأنها ليست مسرحيات شخصية وحدث وقدر حياة تماما كمسرحيات شكسبير ويربيديز؟

أما عن آرائى فى التعليم فلاجديد فيها ولاشذوذ. لكنى أشرت الى أن المدارس كما هى عليه الآن لاتصلح كمدارس، وكذلك الأمر بالنسبة للمدرسين: انها ليست مدارس وليسوا مدرسين، بل على الاصح سجون ومساجين وسجانين حيث يحتفظ بالتلاميذ لمنعهم من اقعاد آبائهم واقلاقهم.

كما أشرت أيضا الى أن علم التربية والدين يجب أن يوضعا فى مرتبة التعليم الفنى كضرورة من ضرورات الحياة المتحضرة، بدلا من اعتبارهما مجرد ثقافة حرة غير الزامية وأرى أن يكون تدريسهما اجباريا وجدليا فى نفس الوقت. ان الثقافة الحرة يجب أن تكون اختيارية كما يجب أن تدار بواسطة مؤسسات تتطوع للقيام بها. هذه الاقتراحات مطروحة للمناقشة أما عن الاقتراح الخاص بالمدارس والمدرسين فلا صلة له بالسياسة التعليمية على وجه الاطلاق وعليك ألا تخلط بين الاثنين والا اعتراك الاضطراب والهذيان الى حد الجنون.

انك على خطأ تماما وأنت تكتب فى هذرك الجامعى عن الفتى البارع الطموح. لم أكن طموحا يوما ما، لأننى مثل هاملت أفتقر الى الطموح. كما أننى لم أكن يوما بارعا بطريقة غير عادية. لقد ارتفعت بمجرد الجاذبية وصدفة التمتع بموهبة مربحة. لقد ظللت عالة على أبوى المرهقين حتى قاربت الثلاثية وأنا مفلس وذلك بسبب خجلى وعدم طموحي. ان قصتك الخيالية عن الشاب الذكى الطموح المتشبع بكارليل وامرسون (لم أقرأ لأى منهما كلمة واحدة) والذى يضيق بضآلته كموظف كتابي، تبعد كل البعد عن الحقيقة. ان الكتبة هم أكثر خلق الله تعاليا وكبرا. انهم يحتقرن أساتذة الجامعات ويعتبرونهم مجرد تلاميذ يجهلون حياة الواقع بطريقة مزرية. لادر اية لهم بالعمل ولايقدرون أبدا على تحمل المسئولية التى يتحملها اى انسان راشد. وللحق أقول اننى لم أكن مرتاحا لعملى فى مكتب. لاننى كنت كوتد مستدير فى حفرة مربعة، ولكن لم يحدث اطلاقا أن خجلت من عملي.

واذا لم يناسب قصتك أن تؤمن بأن «لي» فيما يختص بعمله كان عبقريا، فمن الأفضل أن تغير قصتك. أقول لك: لقد كان عبقريا وأنا أوسع منك معرفة وأكثر دراية، ذلك لأننى كناقد موسيقى خبير استمعت الى كل موسيقيي العصر العظام كما استمعت الى تلامذة كل أساتذة الغناء الكبار. تقول بأنك لاتملك الدليل. هل بحثت؟ قد يستطيع أى المانى أن يملأ عدة صفحات بقائمة بعدد الحفلات الموسيقية التى أقامها «لي» فى دبلن وبعدد المقطوعات التى عزفت فيها. ذلك ميسر وموجود فى أعمدة الصحف. وبستطاعتك أن تفعل ذلك اذا أردت أن تضيع وقتك وألا يقرأ لك أحد. أى آثار أخرى يستطيع أن يتركها قائد فرقة موسيقية؟

وعندما تقول أن الفقر لاتسببه الحاجة ولكن يسببه سوء التوزيع، فانك تعنى أن الفقر لا يرجع الى عدم وجود ثروة تكفى الجميع، ولكنه يرجع الى أن هذه الثروة لاتوزع بالعدل. أنت على خطأ. اننا لاتملك من الثروة مايكفى الجميع. لكننا قد نملك منها مايكفى اذا ماسادت المبادئ الاشتراكية.

والآن تقبل لعناتى القلبية لأنك أجبرتنى على أن أخبرك ثانية بما أخبرتك به من قبل بكل دقة وتفصيل.

انطلق واستجم. ان عقلك مضطرب بسبب ماتقوم به من عمل غير طبيعي. اننى الفت نظرك الى أنه من السهل ان تقضى على انسا ن باعطائه مادة أدبية أكثر مما يستطيع أن يستثمر. وهضمك للمادة حاليا مضطرب وغير طبيعي.

المرحوم ابن عمى الاسترالى تشارلز شو:

ابن العم العزيز تشارلز:

ان مجتمع استراليا أكثر هرجلة مما كان عليه المجتمع الايرلندى فى القرن التاسع عشر. وككل البرتستانت فى أيرلندا كان من الضرورى أن يتمسك ال شو بادعاءاتهم الطبقية. ولكن يجب عليك أن تفرق بين الانواع المختلفة لهذا الادعاء. عندما طلب منى أبى ألا العب مع زملائى فى المدرسة من أبناء أصحاب المتاجر أو الورش كالحداد مثلا، كان لايطالب بأكثر مما طالب به كل أمثاله من الآباء كى يبعدنى عن التعرف على أناس غير مرغوب فيهم. وعندما أخبرونى أن مصير الكاثوليك جميعا هو الزج فى نار جهنم، كان من المستحيل على ألا أستنتج أنهم نوع منحط من الناس وأنه ليس من المناسب أو المرغوب فيه أن يختلط بهم بروتستانتى من آل شو. كان هناك خطان اجتماعيان فاصلان: الأول بين بائع الجملة وبائع القطاعى والثانى بين كنيسة روما وكنيسة أيرلندا وكانت الكنيسة الرسمية حينذاك. ولم يكن بامكان أى فرد من آل شو أن يقيم علاقة اجتماعية مع صاحب متجر كاثوليكي. وكان من الطبيعى أن يفرض الآباء من آل شو هذه الحقيقة على أبنائهم. وكانت النتيجة أن يثوا فيهم روح الادعاء والتعاظم وثبتوها.

لكن هناك نوعا آخر من الادعاء أقل الزاما من سابقة. وبهذا النوع امتلأ

كتابك مما جعله مسليا. انه الادعاء القائم على تمجيد العشيرة: الاعتقاد بأن «آل شو» عائلة مترفعة ذات نفوذ وأنها تنتهى أو ترجع فى أصلها الى طبقة السادة من ملاك الأرض. وبالنسبة لكل أفراد عائلة شو المقيمين فى أيرلندا يبدو هذا الأمر وكأنه حقيقة من حقائق التاريخ الطبيعي.

أننا مازلنا نستاء اذا ما قيل أننا طبقة متوسطة. وهذا ما حدث فى حالة أحد أفراد العائلة عندما أصبح رئيسا للبوليس فى «هوبارت». ولقد لازم هذا النوع من الادعاء عمى الأكبر عندما هاجر الى استراليا وكل ماتستطيع أن تفعله هو أن تلهو به وتسخر منه فلا جدوى منه فى عصر ما بعد الماركسية.

أما عن قولك بأن أبى لم يحطم حياته الزوجية بادمانه الشراب، فهو أكثر محاولاتك يأسا في الكتاب كله. ولقد قادتك هذه المحاولة الى الاساءة إليه بطريقة شنيعة عندما عقدت مقارنة بينه وبين والد «اروين بتلر». كان بتلر يخاف أباه ويكن له كراهية شديدة. وكان على حق، اذ أن فكرة أبيه عن التربية الورعة التى أرادها لولده كانت لاتزيد عن حشو رأسه بقواعد اللغة اللاتينية والآن لا يستطيع أحد أن يكره أبي. وعندما أستعيد بذاكرتى بعض المناسبات التى أهملته فيها أدرك السبب في وقوف د. جونسون تحت ماء المطر في ليتشفيلد ليكفر عن نفس الخطيئة. كان أبى سئ الحظ، غير مدرب وغير ناجح، لكنه تغلب على ادمان الشراب (وهو حالة مرضية تعسة، اذ سبب له الكثير من الشقاء) عندما سقط يوم أحد على عتبة الباب وهو فى حالة سكر شديد، مما أثار فزعه وجعله يدرك أنه بفعله هذا يقضى على نفسه. ولقد امتنع عن شرب الخمر منذ ذلك الحين.

ورغم ذلك فلابد وأنه أصبح أكثر سعادة بعد أن هجرناه جميعا. وأنا مدين لك لأنك وفرت لى الدليل على هذا: لقد استطاع أن يجدد علاقته بأخوته وأخواته بعد أن أبعاد عنهم عاملان: أولهما حالة الادمان التى وصلت حد المرض العصبي، ولقد أجمع كل أفراد عائلة شو على أنه قد أصبح صعبا لايطاق من الناحية الاجتماعية بعد أن عب فى احدى حفلات بوشى بارك

مقدارا هائلا من الخمر مما جعله يتخلى عن وقاره تماما. ومنذ ذلك الحين انقطعت الصلة بيننا وبين اخوته واخواته.

وكان وقع هذه الجفوة قاسيا على أبي، لكن الأكثر قسوة من ذلك كان احساسه بأن أفراد أسرته أنفسهم قد ابتعدوا عنه. وعندما اقمنا فى مسكن مشترك مع جورج لى زميل أمى الموسيقي، غدى أبى مجرد لاشئ وذلك بسبب نشاط «لي» وشدة جاذبيته. كما أنه لم يجد أى راحة حقيقية فى مصاحبة أبنائه بعدما كبروا وأصبحوا فى سن لاتمكنه من اللعب معهم. هذا بجانب شكهم الدائم فيما اذا كان سيعود متزنا أو سكرانا. لم يكن أقاربه فى حاجة الى رؤيته، كما أن أمى لم تكن فى حاجة الى رؤية أقاربه: كانت تركز كل اهتمامها فيمن يجيدون الغناء، وكان معظمهم من الكاثوليك الذين لايصلحون لمصاحبة أى بروتستانتى من آل شو، بالرغم من أنهم كانوا أفضل كمواطنين وأكثر لطفا كأصدقاء.

وأدعك لتتخيل الأثر الذى خلفته فى كلماتك وانت تؤكد بكل قوة أن أى فرد من آل شو لا يمكن ان يهبط الى مرتبة الغوغاء ويصبح سكيرا وعلى ذلك فلا بد وأن أكون ماجنا كذابا. ولو كنت معى فى تلك الآونة لاقتنعت بما أقول. لكن لا تندفع الى النقيض وتستنتج أن كل آل شو كانوا سكيرين. لقد أدمن الشراب ثلاثة فقط من بين آحد عشر فردا، كف اثنان منهم - أبى ووليم بارنى - فجأة عن الشراب فى نفس الوقت الذى أعتقد فيه الجميع أنه من المستحيل عليهما أن يقدما على فعل ذلك.

والآن فكر فى نتيجة هجرى له وأنا فى العشرين من عمري. كنت آخر من عاش معه من أفراد الاسرة. لكنى حذوت حذو الآخرين: تركته، وهربت الى لندن. وكان فى رحيلى منتهى اسعاده وراحته. لقد رحلت زوجته من قبل. هل كان هناك ما يمنعه من العودة الى أسرته وقد هجره أيضا ابنه الذى كتب خطابا للرأى العام يعلن فيه أنه ملحد وذلك أثناء الاجتماعات الدينية التى عقدها المبشران مودى وسانكى لايقاظ الروح الدينية فى دبلن؟ تقول لى

انهم استردوه وجعلوه سعيدا بقدر ما جعلناه تعسا. انه ليبهجنى أن أسمع ذلك.

أما عن وجبات الغذاء التى تصفها والتى كان يتناولها مع أخيه هنرى أيام الآحاد فقد كانت مستحيلة أيام كنا معه. ولقد استقبلته أخته اميلى كارول ووجدت فيه انسانا فطنا خفيف الدم. وعندما قابلت فى ايستبورن آخر الأحياء من نسل العمة اميلى حدثتنى عن بعض النوادر اللطيفة التى اعتاد أن يقولها. لا أعتقد أنه كان يريد أبدا أن يرانا ثانية. لكن هذا لايعنى أنه كان بيننا أى شعور بالعداء. ولقد كان الود بينه وبين اختى لوسى كاملا عندما حدث وزارت دبلن فى الفترة التى مات فيها. ولقد مات وهو فى أسعاد حالاته.

ان عدم اكتراث أى منا لموت الآخر جعلنا نبدو فى صورة الاسرة الغير متعاطفة. وتصميمك على أن قلوبنا كانت تجيش بالأحاسيس الفيكتورية. ومايتضمنه هذا القول من جمال خيالى بالنسبة لكل النساء وشجاعة فذة فى كل الرجال. يبلغ ذروته فى تصويرك لحياة أختى لوسى وشخصيتها. ان الصورة التى تقدمها ليست فقط غير صادقة، لكنها تتعارض أيضا مع الواقع تعارضا كاملا. كانت لوسى خارج البيت محبوبة من الجميع: لقد حطمت الكثير من القلوب، لكن قلبها لم يتحطم أبدا. ولسبب لا أعرفه تزوجت وهى فى منتصف العمر. وأفضل ما أقدر على تخمينه هو أنها أحبت أسرة زوجها وقد كانوا من أعمدة كنيسة أرفنج وعلى قدر كبير من الاحترام. ولقد اكتشفت أم زوجها أن الفراش هو أفضل مكان للمعيشة. ولقد مكثت فى الفراش خمسة عشر عاما أو مايقاربها حتى ماتت. ولم تغتنم لوسى أيا من الفرص التى هيأها لها جمالها وغناؤها كى تندمج فى المجتمع الاقطاعي: كانت تعلم أنها لن تستريح فى وسط كهذا بسبب قلة المَال وَضعف مركزها الاجتماعى كمغنية محترفة. وعلى ذلك فقد وجدت أنه من الأكرم لها أن تظل بين أناس يحترمونها ويدللونها بدلا من أن تعيش بين أولئك الذين ينظرون اليها فى استخفاف وعدم احترام. لم تكن فى حاجة الى أن تتظاهر بما

تظاهر به آل شو أو الى التمسك بعراقة أسرة أمها. ورغم ذلك كانت تكره الحياة البوهيمية وتخجل منها. ولقد أحست أم زوجها ـ طريحة الفراش ـ بهذا الأمر وأخذت على عاتقها مهمة تدريبها على كيفية التعامل مع المجتمع. ولقد كانت لوسى فى أشد الحاجة الى ذلك، اذ أن أمى التى تدربت بما فيه الكفاية تركتنا جميعا كى ندرب أنفسنا. ولقد كانت لوسى دائمة الاحتجاج على ذلك لكنها تنفست الصعداء، عندما بدأت أمها الجديدة تعلمها كيف تتعامل مع المجتمع، وبذلك استحقت شكر لوسى واعترافها الدائم بالجميل.

كان زوجها ـ كاتب التأمينات السابق ـ وسيم الوجه جميل المحيا وكان طموحه الوحيد هو أن يصبح مغنيا صادحا فى أوبرا خفيفة. ولقد مكنه عمله الكتابى فى المستعمرات من أن يوفر خمسين جنيها. وبهذا المبلغ تمكن من أن يرشو أحد مديرى فرق الاوبرا المتجولة كى يسمح له بالقيام بالدور الرئيسى ليلة واحدة. وأعتقد أنهم بعد تلك الليلة لم يستطيعوا الالقاء به الى قارعة الطريق. كان يغنى بصعوبة، لكنه رغم ذلك كان يستطيع أن يقدم شيئا، كما أن تذوقه للغناء جعله يشعر أن المسرح هو مكانه المناسب. كان مدمن قمار ونساء. وفى المسرح قابل لوسى وتزوجها، لكنها ملته بعد فترة وأبعدته ثم استعادت طريقتها الأولى فى الحياة كعانس متحررة. ولقد استمرت هذه الحالة عدة سنين حتى علمت بالصدفة أنه أثناء زواجه منها كان على علاقة بامرأة أخرى وأتتنى فى نوبة من نوبات الغضب وقالت أنها لابد وأن تحصل على الطلاق. وأخبرتها بأن الطلاق لن يزيد عن كونه عملية شكلية حيث أنها قد سبق وطلقت من الناحية العملية. لكنها صممت أن تتخلص منه بطريقة قانونية. وكان زوجها على استعداد لأن يترك القضية دون دفاع بشرط أن تتنازل عن النفقة والتعويضات وطبقا لذلك تم الطلاق واستعادت لوسى اسمها الأول.

ثم تبدو لمحة من اللمحات التى تميز آل شو. يظهر زوجها فيما بعد وحيدا وبلا مأوى يقضى فيه أمسياته. وتفتح لوسى باب بيتها فى الحال وتستقبله كمتشرد ضال، رغم أنها كانت لاتطيقه كزوج. وعلى ذلك فقد داوم على

زيارتها حتى مات، وعندها حل محله أخوه الذى كان مديرا لاحدى المحلات الكبرى فى لندن. ولقد مات الاثنان قبل لوسى ولم تذرف عليهما دمعة واحدة. وكان أبوانا قد ماتا منذ فترة طويلة ولم يعد لها من أقاربها المباشرين أحد على قيد الحياة سواي. كنت أزورها فى فترات متباعدة كلما كان هناك داع للقاء. ولقد قمت بزيارتها بعد ظهر أحد الأيام للاطمئنان على صحتها التى لم تكن على مايرام. جلست بجانبها وقد لازمت الفراش. وبعد برهة قالت: انني أموت» وأخذت يدها بين يدى لاشجعها ونطقت الكلمات التقليدية .«لن تموتي. بعد قليل ستكونين على مايرام». وساد الصمت. ولم يكن هناك صوت سوى أنغام بيانوا صادرة من بيت قريب (كان المساء لطيفا وكانت النوافذ مفتوحة)، حتى سمعت حشرجة خفيفة فى حلقها. كانت ما تزال ممسكة بيدي. ثم استوت أصابعها. ماتت.

وأتى الطبيب فى الحال. كان على أن أسجل حالة الوفاة. وسألته عما سيقرره فى الشهادة عن سبب موتها، ثم أضفت قائلا أننى أعتقد أنها ماتت بداء السل الذى قاست منه سنين طويلة بعد أن أصابها التهاب رئوى وأنهى حياتها على المبسرح. وأجاب بالنفى قائلا انها قد شفيت تماما من السل، وسألته «ما السبب اذن؟» وأجاب :« لقد ماتت جوعا». واعترضت على قوله مؤكدا له أننى كنت أمدها بما يكفل لها حياة طيبة. وعندئذ أخبرنى أنه لم يستطع اطلاقا منذ حرب ١٩١٤-١٩١٨ أن يجعلها تأكل بما فيه الكفاية. لقد حدث أثناء الغارات الجوية أن اقيمت قاعدة مدفعية مضادة للطائرات جانب حديقتها مما نتج عنه تحطيم نوافذ البيت وما به من أوان خزفية، كما أصابها صوت القذائف بصدمة عنيفة. ولقد أخذوها الى ديفون بعيدا عن المنطقة المعرضة للقاذفات الألمانية لكنها لم تسترد قابليتها للطعام بعد ذلك أبدا.

لم أدع أحدا لحضور مشهد حرق جسدها فى جولد زجرين لأننى لم أكن أعرف أحدا من أصدقائها. لكنى وجدت المعبد مزدحما بمعجبيها عندما وصلت الى هناك. لقد عبرت بصراحة فى وصيتها عن رفضها لاقامة أى قداس ديني. لكنى شعرت فى وجود كل أولئك الناس أنه من الصعب على أن أقذف

في النار، كما لو كانت سطلاً من الفحم، لذا ألقيت حطبة جنائزية أنهيتها بترديدي مرثاة من «سيمبلين»:

لاتخافي وميض البرق ولاكل رعب الرعد القاصف

لأن هذه الرثاة كانت تتناسب تقريبا مع ما أخبرني به الطبيب.

كانت لوسي تملك من المقدرة الأدبية ما يمكنها من كتابة ونشر قصة أو قصتين على طريقة رودا بروتن. وفي منتصف حياتها ألفت ردیئا نشره أحد المعجبين بها وقد تصادف أن كان ناشرا. والكتاب عبارة عن مجموعة نصائح في صورة خطابات موجهة من امرأة عجوز الى امرأة في مقتبل العمر. ولقد كتبته بأسلوب تهكمي فظ أثار أمي وكاد أن يصدمني أنا شخصيا.

وعليك أن تستشف مابقي مستعينا بالملاحظات التي كتبتها على هامش نسختك المطبوعة على الآلة الكاتبة. وستجد فيها مايفتح عينيك ويجعلك ترى بوضوح تلك الأسرة التي استطعت أن تشغف بها وتمجدها في استراليا.

الى هنري تشارلز دفين:

قرأت بروفة صفحاتك عن «جوهر برنارد شو» (لماذا لاتقول جوهر الشيفيانية؟)، ولم تبعث في نفسي من الكرب ما تبعثه عادة تلك الكتب التي تكتب عني. وسأتناول مباشرة تلك النقاط التي تبدو لي قابلة للنقد. وسأكتب عنها بنفس الترتيب الذي وردت فيه بالكتاب دون أي محاولة للربط فيما بينها.

● صفحة ٩: تعزى الى هنا أنني أعلنت أن مسرحياتي أفضل من مسرحيات شكسبير. هذا غير صحيح. في مقدمة مسرحيات للتطهريين يوجد فصل عنوانه «أفضل من شكسبير؟» (لاحظ علامة الاستفهام). وفي هذا الفصل أناقش القضية التي أثارتها حقيقة أن شخصيتين رئيسيتين من شخصياتي التاريخية قد قدمتا من قبل في أعمال شكسبير. ومناقشتي لاتتضمن أية أشارة لما تقول انت به. وهو فيما أعتقد يذكرني بما كتبته في مقدمة عقدة اللاعقلانية. ولكي لا أطيل عليك أن ماقلته هو أنه ليس باستطاعة

أحد أن يكتب مسرحية أفض من لير ولا أوبرا أفضل من دون جيوفاني. وباختصار أقول أنه قد تم التوصل من قبل الى أعلى قمم النجاح الممكنة فى مجال الإنتاج الفني. ولكن ليس معنى هذا أن أى كاتب مسرحى عادى لايمكنه أن يكتب عن قيصر شكسبير وبطريقة أفضل اذا قرأ «ممسين» و «فيريرو» بالاضافة الى أعمال «بلوتارك». وليس معنى هذا أيضا أن «ابسن» لايستطيع فى مجاله الخاص أن يبز شكسبير فى المهارة والعمق والذكاء. ان التباين الهائل بين ابسن وشكسبير هو الذى دفعني الى أن أحمل على الجزء المزيف من شهرة شكسبير. لكن الفكرة التى تقرر أننى ادعيت صراحة أن مسرحياتى أو مسرحيات أى انسان آخر أفضل من مسرحيات شكسبير فكرة سخيفة ومنافية للعقل.

● صفحة ١٥: كل ماكتبته عن التدخين مضحك وسخيف ويعنى ببساطة أنك تدخن. هل ذهبت مرة الى محطة السكة الحديدية فى احدى القرى ودخلت عربة التدخين؟ اذا استطعت ان تفعل ذلك دون أن تمتلئ نفسك بالاشمئزاز لحظة واحدة على الأقل فلابد وأنك فاقد لحاسة الشم. عندما عدت من معركة «كاربنتر - بيكيت» كان على أن أغير كل قطعة من ملابسى قبل أن أستطيع الاقتراب من أى شخص دون أن أعتذر له. ما الداعى لتجاهل مثل هذه التجارب والكتابة عن «المسالم عاشق الغليون الهادئ؟». اننى بالطبع أتحمل التدخين من الناحية العملية. والا حكمت على نفسى بالنفى من المجتمع الانساني. لكننى لا أتغافل حقيقة أن التدخين عادة كريهة وضارة. وعبارتك التى تقول بأننى «أعدل اعتراضاتى على التدخين عندما يصبح رمزا للتذمر والثورة كما هو فى حالة المرأة» عبارة خيالية محضة. اننى أكره رؤية امرأة تدخن. ولكن هذا لايمنعنى من ان أعرض فى مسرحياتى نساء يدخن ان فيفيا وارين تدخل السيجار لأن الشخصية الحية التى أخذت عنها تفعل ذلك كما تدخن لوكا السجائر لأن فتيات بلغاريا يفعلن ذلك. انهن يدخن تماما كما تفعل برودبنت فى الجزير الأخرى لجون بول. لكن حتى ذلك يجب على ألا أفعله الا اذا تأكدت من أن الممثل - أو الممثلة - بيستطيع أن يتظاهر

بالتدخين دون أن يفعل ذلك حقيقة، كما يقال عن ونستون تشرشل. تقول ان «مسألة التبغ مسألة فردية محضة». لماذا تخصص أماكن للتدخين اذن، ولماذا يمنع التدخين فى غير هذه الأماكن اذا لم يكن أحد يتأثر بالدخان سوى المدخن؟ تقبل نصيحتي: اترك التدخين. حاول التطريز بدلا منه. ان بستانى حديقتى لايدخن. انه يطرز.

● صفحة ١٦ (وفى صفحات أخرى كثيرة):

تقول اننى ألوم شكسبير وديكنز لأنهما يكتبان عن السكر والبذاءة بطريقة تثير الضحك. أنا لا ألومهما: اننى أقول ماقاله كيجان: «ان كل دعابة لاتعتبر هزلا فى رحم الزمن». ان أكثر آرائى جدية كانت تبدو لى فى لحظاتها الأولى وكأنها مجرد دعابات. وباستطاعاتك أن ترى هذا التطور فى ديكنز نفسه. ان مسز ماكستينجر فى دومبى وولده تعتبر عنصرا من عناصر الاضحاك فى توقعات عظيمة. وفيما يختص بالسكر فى أعمال شكسبير، عليك أن تعقد مقارنة بين سير توبى بلتش وبين كاسيو والملك فى هاملت. ان كثيرا من الأشياء التى اتخذتها مادة للهزل فى مسرحياتى سوف يستخدمها الكتاب فى المستقبل كمادة للماساة.

● صفحة ٣٤: «يعتبر بتلر واحدا من أعظم الكتاب المحبوبين».

لقد كتبت هذه الكلمات قبل ظهور مذكرات فستنج جونز. ولو قد تصادف وقرأت نقدى للمذكرات لأدركت لماذا أخبرك الآن بأن استخدامك لكلمة «محبوب» جرئ بعض الشئ الا اذا كنت تؤمن أن كل العباقرة محبوبون. لقد كانت أوجه الشبه بين بتلر وأبيه كبيرة جدا، أكبر مما كان يتوهم. ولو وهب الموقر ثيوبولد بتلر عقلا قويا بدلا من عقله الضعيف لأصبح تماما مثل ولده العظيم.

● صفحة ٤٣: هل تعتقد جديا أنه كان من الواجب على وليم بليك أن يكتب «زواج النعيم والجحيم» طبقا للمبادئ الأخلاقية التى تنادى بها مجلات الأديرة؟ حاول مجرد تجربة اعادة كتابة تلميذ الشيطان بنفس تلك

الشروط لترى أى نوع من المسرحيات ستصبح بعد اعادة كتابتها . اننى لم ألتق أبدا بشخص يدعى أنه وجد شيئا مميزا فى شخصية ديك دادجون . هل قابلت أنت مثل هذا الشخص؟ ان احدى حسناتك هى أنك تكون فى قمة الذكاء حيث تكون ذكيا، كما تكون وبوضوح أيضا فى قمة الغباء حيث تكون غبيا .

● صفحة ٥٣ : إن التسامح المذهبى عبث لا طائل من ورائه . اننى لا أستطيع أن أنظر بتسامح الى التعاليم التى سنتها الكلفنية للأطفال . ولو ملكت المقدرة على اضطهاد أصحاب تلك التعاليم لاضطهدتهم بنفس القدر الذى يضطهد به الحكم البريطانى هؤلاء الذين يؤمنون بحرق النساء فى الهند بعد موت أزواجهن . وعلى كل سلطة متحضرة أن توضح الخط الفاصل بين ما يمكن ومالايمكن تحمله .

● صفحة ٧٢ : هل أدخلت فى روعك حقا أنه فيما يختص بالعلاقة بين الجنسين لاتوجد أنثى سوى أنثى العنكبوت؟ ان آن وايتفيلد فى مسرحية الانسان والانسان الأسمى لاتسيطر على رؤياى تماما كما تسيطرعلى رؤياك . كما أن ماساة مسز «نكس» ليست ماساة عنكبوت وقد فاتها ان تدرك أن التغير الذى حدث لنكس نتيجة الحب الجسدي هو كل ماتقدسه مسز جورج فى الأسقف الذى حاولت الابتعاد عنه قدر طاقتها . وفى بعض الفقرات التالية تلاحظ أن ماجور باربرا ولسبيا جرانثام ولينا زباتوسكا أبعد مايكن عن النحلة والعنكبوت ومثلهن فى ذلك مثل أقل رجالى حبا فى النسل . ويبدو لى أن مانفكر فيه هو تلك القاعدة العريضة من الناس الذين يقفون من الجنس موقفا محايدا تقريبا قدر ماتسمح به ظروف الحياة، و«آن» بالطبع لاتمثل هؤلاء . ويأتى بعد ذلك أناس . وعددهم كبير أيضا . ينظرون الى الجنس من الناحيتين الجسدية والنفسية وكأنه شئ عادى جدا، لايستحق منهم وعيا أو ادراكا معينا . قد يعتقد العنكبوت أنه ينسج خيطه ويصطاد فريسته لمجرد اللهو، أو ربما كطقس دينى يؤديه لاله عنكبوتي، وهو لايعلم أنه ان لم يفعل ذلك يموت . لكن نوع المسرحيات الذى أكتبه يصبح مستحيلا تماما اذا لم أمنح شخصياتى مقدرة الادراك والتعبير الذاتى التى لايمتلكونها فى واقع الحياة . ولو لم تتكلم

الحيوانات لاستحالت كتابة قصص ايسوب الخرافية.

على أية حال قد يكون بيننا خلاف جوهرى فيما يختص بهذه النقطة. فلست متأكدا من أننى لن أقدم للمسرح يوما امرأة لاتحب الامومة ولاتنقصنى معرفة هذا النوع من النساء. اننى لم أقابل أبدا ما تسميه بالمرأة التى تشبه الدجاجة فى احتضان بيضها والتى تعتبر نفسها أولا وأخيرا جهاز تفريخ للأطفال. ولكنى من جهة أخرى لم أقابل مطلقا امرأة أصابها الأسى لأنها وضعت طفلا. ولقد وجهت هذا السؤال لكثيرات ممن لايحببن انجاب الأطفال وكانت اجاباتهن هى ما أقول به.

وبخصوص هذا الموضوع تقول (صفحة ٨٤)« سيقول شو بالطبع ان هذا ضرب من ضروب النفاق الخبيث» اننى لا أحلم بقول شئ يتميز بكل هذا السخف والجهل.

فى حديثك عن الغيرة أقدمت على سهو غريب مما يجعلنى أشك فيما اذا كانت لك أية تجربة شخصية فى هذا المضار. ان جوليا فى زير النساء تعتبر دراسة فى الغيرة تماما مثل ليونتيز فى حكاية شتاء. ومع ذلك فلا يبدو أنك لاحظت أنها غيور. ان الغيرة هى التى تجعلها غير محتملة وبطريق لاتطاق. وفيما يختص بهذه النقطة أحب ان أضيف أنه لايبدو أنك تقيم وزنا للدور الكبير الذى يقوم به الكاتب المسرحى فى تقديم شخوصه المسرحية، هذا الدور الذى يقوم على دراسة للنماذج الحية. إن بعض شخصياتى صور طبق الأصل من النماذج الموجودة فى واقع الحياة: ولقد استخدمت النماذج بالنسبة للبعض الآخر تماما كما يستخدمها المصور. إنك تكتب عن شخوص مسرحياتى وكأنهم ليسو بشرا، بل مجرد تجسيد لأفكار تجريدية.

● صفحة ٩٣: إنك تفترض هنا أننى مثل ماكولي، فى زمن ماركس، أرى التاريخ فى حركة التنوير الشاملة. أنا لا أرى ذلك. اقرأ التعليق الذى كتبته فى قيصر وكليوباترا أو دليل للثوار. وسترى أننى أعتبر التضليل الماكولى أخطر أنواع التضليل.

• صفحة ١٠٢ : إنك تنسى أن « جريجورى لن » كان فى الواقع بين ذراعى مسز جيونو عندما وصلت زوجته فى صحبة جيونو. انه يقرر حقيقة عندما يقول انه على الرجال ان يغازلوا أغلب النساء لأن التحدث اليهن مستحيل. لكن هذه الحقيقة لاتوفر ما هو فى حاجة اليه من أمان، عندما تكون المرأة رقيقة طيبة وأنثى مغرية فى نفس الوقت. إن موضوع المسرحية هو سيطرة القوة الحيوية على أخلاقيات وضمير الطبقة العاملة. ولقد وصفها بيرون فى الفقرة التى تستشهد بها من « دون جوان »، وهى تظهر هنا ولأول مرة فى صورة حدث مسرحي. ومع ذلك فمن الواضح أنك لاترى فيها شيئا سوى ملحوظة تافهة يبديها جريجوري.

• صفحات :١٠٤-١٠٦ : اننى لا ألغى الأسرة، فالمجموعة المكونة من أب وأم وأطفال هى الوحدة الاجتماعية الطبيعية، رغم أنها فى حد ذاتها ضيقة ولا اجتماعية.

• صفحة ١٠٦ : « المعنى فى بطن الشاعر» هو ماتصفه بأنه الأكثر احتمالا بمعنى أن الحياة العائلية ليست قدر الشاعر: « الحياة أكثر نبلا من ذلك » . ان مكانه هو الليل المتلألي، بالنجوم وليست الحجرة المريحة ذات المصباح الزيتي. أما عن حلك البديل:« انها ستعود الى على أية حال أن آجلا أو عاجلا » فهو حل شديد السخف.

• صفحة ١٤٣ : عندما تقول مسز وارين ان وسيلة المرأة الوحيدة الى حاية طيبة هو أن تخلص لرجل يستطيع أن يخلص لها فإن كلماتها تتضمن الزواج كما تقول، ولكنها تشير أيضا الى أن النساء اللائى يملكن موهبة تمكنهن من الربح، يصبحن فى غير حاجة إلى الاعتماد على الزواج أو الدعارة كوسيلة للوصول الى مستوى أفضل من مستوى التسول. ولكن هذا لايحدث الا فى حالة المواهب النادرة. انك تعلق على ماسبق بطريقة تدعو الى الحيرة عندما تقول:« لو اهتمت المرأة كما يهتم الرجل باستخدام مقدرات أفضل وحصلت على مؤهلات أكثر، فمن المؤكد أنها تستطيع أن تشق طريقها وتحيا

حياة طيبة». ويفهم من مضمون كلماتك أنه باستطاعة فتاة ولدت فى محل لبيع السمك المقلى فى أقصى الشرق أن تمارس - لو شاءت - كل المهن الحرة. وهذا يدل على أنك لاتدرك الحالة الحقيقية لحياة الفقراء. «إذا لم يكن لديهم خبز فلماذا لا يأكلون كعكا؟»: هذا المثل ينطبق على ماتقول. ومع ذلك فإنك تشير إلى أن الرجال الذين لايجدون بديلا للبغاء يتعرضون لنفس حالة الفقر والحاجة.

● صفحة ١٤٦: إنك تظهر هنا - ليس للمرة الأولى فى الكتاب - إنك تعتبرنى مجرد كاتب مسرحي، رغم أننى ألقيت مئات الأحاديث ونشرت كتبا ضخمة عن الاشتراكية الفابية مقابل كل مسرحية أكتبها. ان وراء مسرحياتى فكرا اجتماعيا يجعلها تختلف جذريا عن تلك المسرحيات التى يكتبها مؤلفون تنحصر كل معرفتهم بالمجتمع فى مجرد المامهم بآداب المائدة واستخدام الألقاب.

● الجزء الأخير من كتابك فى صفحات ١٤٦ - ١٤٧ خاطئ تماما. إننى لم أدرك أبدا «عبث التحدث الى المقاعد الخالية». لم تكن المقاعد أبدا خالية. ان ماتحققت منه هو عدم جدوى الحديث عندما تمتلئ المقاعد كلها، فلا فائدة ترجى من اجتماعات تزحمها الجماهير. من الواضح أنك لم تتبع أعمالى فى مجال الاشتراكية ومن الأفضل الا تشغل بالك بها، إلا إذا كنت مستعدا للقيام بدراسة تستغرق وقتا طويلا.

أما عن مشكلة الشر، فلست كما تقول «راضيا عن تركها دون إبداء رأي». إن «بسنت» - على العكس مما تقول - يسأل: «ماذا عن الشر؟» ثم يجب على السؤال. إن وراء كل أعمالى نظرية مدروسة للتطور الخلاق. ولقد عبرت عنها بإسهاب لأول مرة فى الفصل الثالث من مسرحية الانسان والانسان الأسمي. إنها ما يؤمن به بتلر وبرجسون. أما عن عبارتك «التهكم الخفى من ذات الله» فهى مجرد ترديد مبتذل لما قال به بيرون ولما نادت به لا أدرية القرن التاسع عشر.

● صفحة ١٥٨ : لايمكن فرض « الإحساس بالشرف » على الأطفال بواسطة معلميهم. ان الإحساس بالشرف وهج مقدس ينبع من روح الطفل ويمكن للمعلمين افساد هذا الاحساس اذا ما وجهوه توجيها خاطئا (مبادئ الشرف المعمول بها في المدارس العامة على سبيل المثال). لكن الإحساس الطبيعي دائما مايتمرد على أى تضليل. ودائما ما يرفع العباقرة النقاب عن وجوه الأدعياء.

● صفحة ١٦١ : تتحدث عما أنادى به من أنه لابد وأن « تفسر العقائد بحيث تصبح معقولة ». لكنك تذهب إلى حد الادعاء بأننى أطالب بإخضاعها للحقيقة والمنطق. وهذا مايدفعك الى تخيل أننى أعتبر الرجال والنساء جميعا مفكرين ومنطقيين، رغم أنك توافق على أن مسرحياتي الكوميدية تثبت عكس هذا القول. وغالبا ماتكون الحقيقة أغرب من الخيال.

إن مايشغل تفكيرك هو إصرارى على إظهار التأثير الضار الذى تحدثه المعتقدات فى نفوس من لايستطيعون الايمان بها من أصحاب العقول المفكرة. وتكون النتيجة أنهم إما أن يديدوا ظهورهم للدين والحياة العامة واما أن يتحولوا الى مجموعة من المنافقين. وليس لصحة العقيدة أية صلة بهذا الشأن. إن ما أريد قوله هو أن العقيدة الرسمية تصبح مصدر للاذى والشقاق فى حالة عدم الايمان بها، أما إذا آمن بها الناس فإنها لاتسبب شيئا من ذلك، رغم أن ما ينكره الناس من عقائد قد يكون صحيحا وما يؤمنون به قد يكون زائفا.

● صفحة ١٨٦ : إن وصفك للديمقراطية على أنها « حماقة مدججة بالسلاح » يحتوى على الكثير من الصدق. لكن فاتك أن تدرك حقيقة أننى أعتقد أن « المحامى والقس ورجل الأدب والسياسي » يشكلون فى إجمالهم خطرا أكبر مما يشكله عامة الناس الذين لم يحولهم ماتسميه بالتعليم الثانوى إلى مجموعة من السفهاء والحمقى.

لقد خططت بعض الملاحظات على هوامش الصفحات التالية لصفحة ٢٠٠، حيث أعتقد أنك تبدو شكسا من حين لآخر كما حدث فى أشارتك

السابقة بخصوص التدخين. ومن المحتمل أنك لم تقرأ مقدمتى للكتاب التعليمى السنوى لعام ١٩١٩ الذى حددت فيه بعض الفروق بين التعليم الفنى والتعليم النظرى وهو لايقل عن الأول فى أهميته، وخصوصا ذلك النوع الذى يتضمن التعليم الدينى الذى أعتبره ضربا من ضروب التعليم الفني.

أما فيما يختص بمسألة ضرب الأطفال، فأنا الكاتب الاجتماعى الوحيد الذى قال بوضوح أنه يجب ترك الأطفال كى يتعلموا عن طريق تجربة الصواب والخطأ، وأنه يجب معاقبتهم اذا ما أساءوا بطريقة لاتحتمل. لكننى قررت فى اصرار أنه اذا اقتصر التعليم على ضرب الطفل بدلا من إعطائه إجابات محددة لأسئلة محددة، فإن أمثال سكويرز وكريكل يصبحون خيرة المدرسين. كما أن مهنة التدريس ذاتها لاتصبح فقط مجرد عمل يخلو من المهارة ولكنها تصبح أيضا عملا مشينا. وتدفعنى ملاحظاتك الى الشك فى أنك كنت مدرسا بلا ميل للتدريس . تقول اننى كنت تلميذا غير قابل للتعليم فى مدرسة غير صالحة. لكن ماذا تعنى بعبارة: «صبى غير قابل للتعليم»؟ لقد كنت تواقا الى المعرفة، مهتما بكل ماهو حولي، لكننى لم أستطع قراءة الكتب المدرسية بالرغم من أننى كنت أستطيع تقريبا قراءة أى شئ آخر. ان المدرسة التى تعرف الآن بكلية ويسلى كانت بلاشك مدرسة غير صالحة للتعليم، لكنها كانت ومازالت من أفضل مدارس الدولة. لقد كان شيللى فى ايتون فتى غير صالح للتعليم فى مدرسة سيئة ولكن ليس بالمعنى الذى تعنيه. من المحتمل اننى كنت من أكثر صبية أيرلندا قابلية للتعليم. واذا لم أكن قد تعلمت فى المدرسة شيئا يذكر سوى أن المدرسة سجن وليست مكانا للتعليم فان النتيجة هى أن فن التعليم لم يصبح بعد علما.

● صفحات ٢٠٨ - ٢٠٩ : إن شخصية ديوبيدات تمثل رأيا أحبه وأعلنه وهو أنه لايوجد انسان مكتمل الضمير. إنه يتمسك بالشرف فى نطاق مصالحه واهتماماته، لكنه لايكترث ولايدقق فيما لايهمه من أمور. ومن النماذج العديدة التى ساعدت على خلق شخصية ديوبيدات شخصية ذلك الانسان الذى يرتاب بصورة مروعة فى كل مايتعلق بمعتقداته الدينية والسياسية والذى

كان يفضل أن يشنق على أن ينكر حرفا واحدا، لكنه كان يتجرد تماما من الضمير إذا ما أصبحت القضية قضية مال ونساء: كان بلاخجل فاسقا ومقترضا، ولا أريد أن أقول أنه كان لصا . واذا ما قورن برجال يسلكون سلوكا سويا فيما يختص بأسرهم وحياتهم العامة فانه كان يبدو سفيها، بل إنه كان فى الواقع سفيها . ولكن كانت هناك لحظات تتضاءل فيها الكثرة اذا ماقورنت به : عندما تحين لحظة المخاطرة والتضحية من أجل العقيدة . إن ديوبيدات جاد تماما عندما يقول وهو على فراش الموت إنه خاض معركة منتصرة . وهو يعنى بذلك أنه لم يضيع وقته فى تصوير فتيات صغيرات يلهين مع كلاب الصيد كى تعرض صورهن وتباع فى الأكاديمية الملكية، بدلا من أن يبذل قصارى جهده فى مجال فنه . لقد كتبت كثيرا عن البوهيمية الفوضوية، قلت أنها لعنة تحل بالفنانين كما أعلنت أننا لانعانى نقصا فى شخصيات الناجحين من العاملين المتزنين الشرفاء . ودائما مارفضت أن تكون الموهبة مهما علا شأنها، عذرا لأى انحطاط فى السلوك . إلا أننى رغم ذلك أعى تمام الوعى أن أخلاقيات الطبقة البرجوازية ماهى إلا مجموعة من الفضائل الرخيصة التى تستخدم كستار لإخفاء مجموعة من الرذائل المخيفة . وعلى ذلك فليس باستطاعتى أن أتقبل رفضك لديوبيدات بحجة أنه مجرد وغد سافل . لقد كانت له عقيدة ومبدأ . ولقد تمسك بعقيدته ومبدئه .

● الصفحات ٢١١- ٢١٢ : إننى لا أكن عطفا خاصا « للمجرم فى زنزانته » اننى أثور على قسوة أن يوضع أى انسان فى زانزنة . والحل البديل عندى . وهو قتل المجرم إذا استحالت الثقة فيه . قد يبدو له خاليا من أية لمسة من لمسات العطف . إننى لا أكره « العنف الجسمانى مهما كان نوعه » . لقد حصل منى المرحوم سيسل تشيسترتون على تفسير كامل لوجهة نظرى فيما يختص بهذا الموضوع . إن الأشرار والأغنياء دائما مايستخدمون العنف الجسمانى كسلاح للقضاء على أصحاب الفضائل والفكر . ومجرد الإحساس بضرورة ترديد هذه الكلمات فى الوقت الحاضر ماهو إلا دليل على أننا مازلنا نخضع لنزعات عاطفية طائشة . ان أهم معارك الشرف فى المجتمع المتحضرهو ألا

نخوض المعارك الفكرية بقبضات اليد وألا نقابل الجريمة بالتعذيب. لقد كان بول جونز على حق عندما رفض أن يجلد أحد المتمردين، لكنه أبدى استعداده لقتله إذا دعت الضرورة.

لكن يجب على ألا أزعجك بإثارة اعتراضات أخرى تافهة. أوافقك تماما على النتيجة التى وصلت اليها وهى أن شو «اللامع» ماهو إلا واعظ يتمثل عمله فى أربعة أو خمسة موضوعات كان من الممكن أن تثير كثيرا من الملل، لولا أنه يملك شيئا من مقدرة الفنان. لقد أدركت روح المسرحيات ولبابها بطريقة قد تكون مستحيلة لو لم تجد لذة فى قراءتها والاستمتاع بها، ولقد استمعت بها بطريقة كان من الممكن أن تكون مستحيلة لو لم تكن القوة الحيوية فى داخلك متوافقة مع القوة الحيوية فى داخلي. اننى لم اتوقع منك أن تناقش اعمالى حتى أدق تفصيلاتها. لكنك أثنيت عليها بطريقة مؤثرة وكافية لدفع الناس للمجئ الى والاستماع الى مايجب على أن أقوله لهم. ولذلك أشكرك. وهذه هى المرة الأولى التى أقرأ فيها كتابا عن نفسى وأهتم بكل ماجاء به.

السيرة التى كتبها ماكمنوس فى كتاب ونستن: ج.ب.شو فى التسعين.

• صفحة ٣٣: ليس هناك شئ أكثر زيفا من هذه الصفحة التى تصور حالتى العقلية وأنا أعبر القناة الأيرلندية. وفيما يختص بأغراضى وأهدافي، لقد تركت أيرلندا لأنه لم يكن لى هناك اى مستقبل واضح المعالم، إذ كانت دبلن قفرا جرداء فى مجال الفن فى الفترة مابين هجرة «لي» وحركة البعث المسرحى التى قادها «و.ب.ييتس»«وليدى جريجوري» أما فكرة غزو لندن فلم أكن لأحلم بها أو بامكانية تحقيقها أكثر مما يحلم اى قروى مهاجر بإمكانية غزو الولايات المتحدة.

• صفحة ٣٣: لم يكن شعرى الأحمر النحاسى يشبه شعر أختى اجنز بصورة جلية. لكنى كنت «حيوانا أشقر» من النوع الدنيمركي.

● صفحة ٣٦ : دائما ماكنا نتحدث عن بيت جدتى فى « روندتاون » ومايحيط به من مناظر أخاذة. لقد قيل لى أنه تبدل الآن : النصف مساكن والنصف الآخر محلات.

لم نتعلم بالتأكيد . نحن معشر آل شو . ان نبجل أواصر الصلة بالانجليز. لقد كنا فيما يختص بهذه الصلة نعتبر أنفسنا طرفا يتمتع بقدر كبير من الشهرة والامتياز.

لم أر أبى أبدا وفى يده كتاب . لكن لابد وأنه كان قارئا فى صدر شبابه. لأنه كان ملما بروايات سكوت . وكان يشجعنى على القراءة. قرأت له رحلة الحاج. وأذكر أنه صحح لى نطق إحدى الكلمات.

لم تنجح العملية التى أجراها سير وليم وايلد لعلاج حول عين أبي. لقد عالج الحول الطبيعي لكنه تسبب فى إحداث حول أسوأ منه فى الاتجاه الآخر.

ليس هناك مبالغة كبيرة فى الحديث عن تذوق أبى للفكاهة وإحساسه بها. لقد كان يحب السخرية من المواقف التى تتأزم فيها الأمور. ولقد ورثت عنه هذا الحب. عندما أوشك الخراب أن يلم بشركة كليبورن وشو بسبب إفلاس أحد مدينيها لم يستطع كليبورن أن يمسك دموعه: أما عن أبى فقد اتجه الى المخزن وأخذ يضحك وحده. ان الأيرلنديين الذين يتمتعون بحاسة الفكاهة يواجهون الكوارث وهم يضحكون.

لم يكن جدى صاحب ضيعة فى دبلن: كانت أملاك أجداده فى مدينة كارلو (ولقد ورثتها بعد موت ولده وأعطيتها لمجلس الحى بعد أن أديت ماعليها من ديون). لقد عاش فى أترارد كسيد ريفى يقضى معظم وقته فى صيد الطيور والسمك وبناء القوارب وأعمال النجارة الخاصة به كأى هاو بارع.

● صفحة ٣٧ : لم تكن العمة الين فى حجم الأقزام بالرغم من أنها كانت حدباء. ولم تكن سانت برايد بالقرب من شارع سينج. لقد كانت فى

منطقة الأكواخ وأزيلت مبانيها منذ زمن طويل حيث لم يكن يقطن هناك سوى فقراء الكاثوليك. إن تاريخ تعميدى مدون فى سجلاتها. لكنى لا أعرف على وجه التحديد ما إذا كانت هذه السجلات قد حرقت فى قصر العدالة أثناء الحرب الأهلية أم أنها محفوظة فى مكتبة كلية ترينتي.

• صفحة ٣٩ : لم يكن باستطاعة أى فرد ممن يشتغلون بالأعمال الكتابية فى المدينة أن يعيش فى شارع سينج، فأغلب سكانه كانوا تجارا من أمثال أبي، لم يكونوا موسرين. لكنهم من الناحية الاجتماعية كانوا أرفع مقاما وأعلى منزلة من أصحاب الدكاكين.

كان «بوشى بارك» ومازال بيتا ريفيا فى رثفارنهام خارج مدينة دبلن تماما، بالرغم من أن عنوان البريد هو ترينور.

• صفحة ٤١ : لم يضحك أبى أبدا وهو سكران. وعندما حدث أن اتجه إلى حائط كوخ دوكى معتقدا أنه الباب ومحولا قبعته الطويلة الى آلة موسيقية وهو يضرب الحائط برأسه، لم يصدر الضحك عنه هو. كان ولده وأخو زوجته هما اللذان يضحكان.

• صفحة ٤٢ : لابد وأن الآنسة كارولين هيل قد علمتنى الكثير من الأشياء التى لا أذكر متى تعلمتها، وقد اعتقدت أننى قد وهبت العلم بها ولم أتلقاه عن أحد. لقد لازمنى هذا الاعتقاد عدة سنين بعد أن بلغت سن الرشد، لكنى تحققت ذات يوم فجأة أن هذا الاعتقاد باطل. وحيث أن مسز هيل كانت قد ماتت منذ زمن طويل، لذا سارعت بالاسهام فى المعهد الخيرى للمربيات. لا أستطيع أن أذكر متى تعلمت القراءة، لكنى أذكر جيدا احدى الأمسيات الممطرة على أرصفة الميناء عندما احتميت وأبى من المطر فى أحد الأروقة التى غطيت جدرانها بالاعلانات. وبما أننى كنت صغيرا بدرجة تمكن أبى من حملى بين ذراعيه، لذا كانت دهشة الجمهور بالغة عندما قرأت الاعلانات كلها بصوت مرتفع.

● صفحة ٤٣ : لم يكن في بيتنا «وفرة من الآلات الموسيقية»، فبعدما حطمت بورى أبى لاعرف مابداخله، لم يتبق لنا سوى البيانو .

● صفحة ٤٤ : هذه مجموعة من المغالطات . كان «لي» كقائد فرقة يتمتع بمقدرة فذة . لقد جمع فرقة أوركسترا من الهواة، يدعمها من وقت لآخر عازف منفرد من احدى الفرق العسكرية . والرأى الذى يقول ان بروفات الأوركسترا كانت تقام فى منزلنا، رأى سخيف . لقد كانت تقام فى القاعة القديمة للحفلات الموسيقية فى شارع برنزويك : البروفات فى قاعة اللواء والاداء فى قاعة الحفلات . أما البروفات التى أقيمت فى منزلنا فقد كانت بمصاحبة البيانو فقط . لم يشتك الجيران أبدا : كان العزف على قدر كبير من الاجادة ولم تكن هناك ضوضاء .

وبعد موت أخيه عاش «لي» فى شارع هارينجتون مع مديرة بيت عجوز اشتهرت بفظاعتها مما دعى «لي» الى التخلص منها بطريقة ما وبعدها عشنا معه فى المنزل رقم ١ بشارع هاتش .

وباستثناء العم وليم الذى كان يعزف على آلة الأفكليد فى فرقة «لي» لم يكن هناك أى صلة موسيقية بالأقارب من آل شو . وقد كان باستطاعتهم جميعا - دون أن يحظوا بأى قدر من الدراسة الكلاسيكية - أن يعزفوا النغمات الشائعة سماعا على مختلف الآلات .

أما عن بنت العم ايميلى - عازفة آلة الشيللو - فقد كانت أخت أبى وزوجة كاهن أبرشية سانت برايد . كانت تكره أمى ولم تأت أبدا الى شارع سينج . وفى أحد الأيام قامت أمى بزيارتها، وعندما اخبروها بمقدمها، سمعتها أمى وهى تصيح «العاهرة» . وأنهى هذا الحادث كل مابينهما من علاقة .

● صفحة ٤٥ : يوجد حذف فى هذه الصفحة . لقد كان أغلب المطربين المجيدين فى فرقة «لي» من الكاثوليك ونتيجة لصلتنا بهم تلاشى من تفكيرى ذلك الرأى القائل بأن الكاثوليك أناس منحطون منبوذون، وجميعهم الى الأبد

ملعونون. ان حبى واحترامى لهم مازال يفوق حبى واحترامى للمتعالين عليهم من البروتستانت.

كان كوخ دوكى يطل على تل توركا وكل من دبلن وخليج كيلينى وكان خارج مدينة دوكى الصغيرة ويعلوها بكثير. لم يكن شاطئ كيلينى مليئا بالحصباء، كان رمليا من أوله حتى آخره. ان بكوخ توركا حاليا لوحة جميلة أزيح عنها الستار فى يناير ١٩٤٨ لاحياء ذكرى اقامتى هناك. ولقد أرضتنى الى حد كبير.

● صفحة ٤٦ : فى ذلك الحين كان مرض السل يسمى التدهور أو الهزال ولم يكن يعتبر معديا. لقد أصيبت به أختى آجنز نتيجة عدوى من احدى الخادمات. وبعد تدهور سريع فى قواها ماتت فى جزيرة وايت ولم تمت فى مصحة.

كان بيتنا فى طريق فلهام يقع فى عطفة تجاه مكتب بريد وست برمبتون على وجه التقريب. وكانت تسمى آنذاك أيكة فيكتوريا، ثم أعيدت تسميتها وأصبحت حاليا تعرف باسم أيكة نثرتون. ولقد أزيلت الفيللا رقم ١٣ وحلت محلها أبنية ضخمة، كما حدث نفس الشئ بالنسبة لكل الفيلات على الجانب الشرقي. لكن الفيللا الأخيرة فى الجهة المقابلة تعتبر صورة طبق الأصل من رقم ١٣.

● صفحة ٤٧ : لم أحاول مجادلة أبى مطلقا ولم أسأله :لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ كنت كطفل أسأل : ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ كما يسأل كل الأطفال أباءهم. ولقد حدثنى نتيجة لهذا الالحاح عن أشياء كثيرة لم يكن يعرفها مستنبطا اجاباته من وحى اللحظة. وكما وجدت فيما بعد، كانت اجاباته صحيحة تماما. هكذا يكون سحر الأبوة.

● صفحة ٤٩ : لم أقرأ أبدا قانون ايمان الكنيسة الانجليزية ولا أعرف شيئا حتى عن مجرد وجوده. أما عن مارى ولستنكرافت فلم أسمع بها مطلقا.

ولقد قيل لى أن « يين » ماهو الا صانع مشدات سكير وعربيد ، كما لقنت أن فولتير وروسو كانا كافرين وأن لحظات موتهما كانت مرعبة، وذلك لتأكدهما من أنهما ذاهبان الى الجحيم. لقد كان جزءا من التعليم فى تلك الآونة التى كنت أتلقى فيها العلم يدور حول اقناع الشباب بأن هؤلاء الثلاثة ـ وقد كانوا من أعظم المتدينين فى أوربا ـ ماهم الا أوغاد كفرة زج بهم فى نار جهنم يصلونها أبدا. ولقد أزال شيللى كل هذه الأفكار من رأسى بعد أن قرأت جميع أعماله شعرا ونثرا. ولقد انتهيت منها وأنا أودع مرحلة المراهقة وأقف على أبواب مرحلة الشباب .

● صفحة ٥١ : لم أكن أدرك « أننى موهوب » . ولقد أحسست بالعجز سنين عدة وذلك لأننى كنت أتخيل أن الجميع يتساوون معى فى المعرفة بل ويتفوقون على فى تأدية مختلف الأعمال. وكان عدم الثقة دائما هو العقبة. وكنت أنسحق كلما فكرت فى مقدار جهلي. ولقد بلغت بى السذاجة حدا جعلنى أتخيل أننى الجاهل الوحيد فى هذا العالم. كنت جبانا حتى جعل منى ماركس شيوعيا وأعطانى عقيدة اومن بها. وعندما ذاع فيما بعد أننى ولدت بعبقرية شكسبيرية هنأت نفسى على أن الطبيعة أو ما يطلق عليه اسم الذات العلية أو القوة الحيوية قد منحتنى فى صباى مقدرة فائقة على الاحتفاظ بذاتى خشية أن أبعثر عبقريتى فى مخاطرة عربيدة. وعلى أية حال لقد كنت جبانا فى صباى ولقد شعرت لذلك بخزى مرير.

أيوت، سانت لورانس

١٩٤٨ ـ ١٩٤٧

* * *

[١٦]

اصل كورنودي باسيتو

لم أوافق على الجلبة التى أثارتها جريدة « ستار » فى عددها الخمسين ذلك لأنها ذكرتنى بأننى فوق الثمانين. ان ميلادها يبدو لى وكأنه حدث من أحداث أمس الأول.

لقد اتخذت لنفسها الآن مقرا محترما فى نطاق شارع فليت، لكن نشأتها الأولى كانت فى قفار فارنجتون فى شارع ستونكتر وفى مبنى أقيم خصيصا لهذا الغرض. وكان المبنى يبدو فى ذلك الحين مرتفعا بدرجة تفوق الحد المألوف. وكان له فناء مربع يمثل هوة مخيفة لسكان الدور العلوى فى حالة اذا ما اشتعل المبنى وأمسكت به النيران.

ورتبت الأمور بحيث يعيش « تاى باي » فى نفس المبنى (تاى باى هو الاسم الذى أطلقه ادمند ييتس على الايرلندى المرحوم ت.ب. أوكونر، عضو مجلس العموم ومؤسس « ستار » ورئيس تحريرها)، لكن مسز ت.ب اعترضت عندما أطلت على تلك الهوة المتمثلة فى فناء المبني. وعلى ذلك فقد ثبتوا فى نافذة حجرتها أنبوبا من القماش المتين كي تهرب عن طريقه فى حالة نشوب حريق. وصممت مسز ت.ب. على أن تجربه قبل أن يترك البائعون المبني، ولم يخبرها أحد بضرورة استخدام مرفقيها للتقليل من سرعة اندفاعها ذلك لأنه لم يكن فى انجلترا فى ذلك الحين، كما أنه لايوجد الآن، من البائعين من لديه أدنى فكرة عن طريقة استخدام الأدوات التى يبيعونها.

كل مافعلته مسز ت.ب. هو أن وضعت نفسها فى الأنبوب وانزلقت وهكذا اندفعت مثل البرق خارجة من الجزء السفلى الذى كان يمسك به

الرجال فى شكل مخروطى ينتهى عند الحائط المقابل. وكان من الممكن ان يقتل اى انسان آخر فى مكان مسز ت.ب.، لكنها دون أن تهتز منها شعرة واحدة لم تفعل شيئا سوى أن قالت رأيها فى سلم النجاة للممسكين به وقد استولى عليهم الفزع.

ووجدت مسز ت.ب. مجالها فى أحد أبواب «ستار» وكان هذا الباب مدعاة لفخر ت.ب. لقد خلق أرمند ييتس لجريدته الأسبوعية شعبية كبيرة فى «وست اند» وذلك عن طريق الشرثرة الاجتماعية التى كانت يملأ بها عدة أعمدة تحت عنوان «ما يقوله العالم». ولم يسمع بمثل هذا الشئ فى جريدة تباع بنصف بنس وتهدف الى «وضع قطعتين من السكر بدلا من قطعة واحدة فى فنجان الشاى الذى تتناوله الغسالة»(تعديل ت.ب. لعبارة سويفت الشهيرة :«حبتين من القمح بدلا من حبة واحدة». لكن ت. كان على حق فى زعمه أن الغسالات شغوفات بالثرثرة الاجتماعية تماما مثل الدوقات. ولقد ترك لمسز ت.ب. العنان فى عامود بعنوان «عن الناس على الأخص» ولقد افتتحته بعبارة: «ان ليدى كولين كامبل هى المرأة الوحيدة فى لندن التى تدرم أصابع قدميها».

كانت مسز ت.ب. سيدة أمريكية على قدر كبير من الجاذبية، لكن ت.ب. لم يستطيع أن يرتقع الى مستوى حسن حظه. لم ينجح الزواج، وهجرت مسز ت.ب. شقتها العلوية وافترق الاثنان تاركين «عن الناس على الأخص» كى يفقد. عن غير عمد» الكثير من جاذبيته.

كان حظ ت.ب. كرئيس للتحرير يكاد يتشابه مع حظه فى الزواج. لقد بدأ الجريدة بكل ما أمكنه من قوة وبهاء. لكن نظرته السياسية كانت عائقا فى سبيل استمرارها، اذ أن هذه النظرية توقفت عند الستينات من القرن الثامن عشر، ولم تتخطى هذه الفترة، وبالرغم من أننى أعتقد أنه لم يكن كراهية لأى شخصية انجليزية باستثناء جه؛ يف تشامبرلين، الذى كان يسميه يهوذا، الا أنه كأحد خريجى كلية جالواى المخلصين كان يكره الانجليز ككل.

وعندما سيطرت الجمعية الفابية على أول مجلس فى مقاطعة لندن ودفعته الى الاشتراكية المحلية تحت ستار التقدمية، أحس ت.ب. بالضياع. وعندما حاول مساعده الأول هـ. و. مسانجهام - الذى كان يلقب بالفتى - بالاشتراك مع ارنست بارك، أن يدفعها فى طريق التقدمية، احتج جون مورلى بكل ماله من سلطة المقاعد الامامية، مما أثار فزع ت.ب. وجعله يعود الى ماكان ينادى به قديما من ضرورة الربط بين سياسة حزب الأحرار وحرية التجارة من جهة وبين الفنيانية الأيرلندية فى صورة حكم محلى من جهة أخري.

وفى الحال وصله على عنوانه بشارع ستونكتر عشرون خطابا تحتج بكل حدة على تراجعه، وكان تأثيرها عليه كتأثير ثورة عارمة الأمة بأكملها. وبالرغم من أن ماسنجهام أكد لرئيسه أننى كاتب الخطابات (وكان هذا الرأي، قريبا جدا من الحقيقة، إذ أننى طلبت من عشرين فابيا أن يهاجموه) الا أنها تركت فى نفسه أثرا لم يستطع أن يتخلص منه. وتلك هى طبيعة رؤساء التحرير.

وبناء على توصية من ماسنجهام التحقت بهيئة تحرير «ستار» ككاتب افتتاحية، فى اليوم الثانى من صدورها، ذلك لأنه فى اليوم الأول أعطيت أوامر مشددة للبواب كى يمنع من الدخول أى شخصية مشكوك فى أمرها، وبناء على ذلك فقد رفض أن يسمح بالدخول لأى ممن يعملون بمهنة الأدب. ولم يجرؤ ت.ب. على نشر أى من مقالاتى الافتتاحية حيث أن الجريدة بدأت مشايعة لحزب الأحرار. ورغم أننى كنت دستوريا الا أننى كنت اشتراكيا جريئا، وكان كل هدفى من العمل فى الجريدة هو أن أسير بها فى اتجاه الاشتراكية المحلية التى تنادى بها الفابية.

لكن لندن اعترضت بحزم على البرنامج الفابى الذى حورب ودحر فى أول معركة انتخابية للمجلس الاقليمي. لقد أثار البرنامج ثائرة قدامى الأحرار من أتباع جلادستون واعتبروه من أخطر أنواع الكفر. وعليه فقد أرغمونى على أن أعتزل هيئة تحرير الافتتاحيات وأطلب عملا متواضعا لايزيد فى مضمونه عن

مجرد الاسهام بعامود اسبوعى عن الموسيقي . ولقد وافق ت.ب . على طلبى بارتياح حيث بدا له أننى لن أسبب مشاكل فى هذا المجال، ومن هنا بدأت كتابة العامود الأسبوعى الموقع عليه باسم كورنو باسيتو . ولم يعره ت.ب . أى اهتمام، ذلك لأن جهل رؤساء تحرير الجرائد اليومية بالفنون الجميلة فى ذلك الحين بلغ حدا يصعب تصديقه حاليا . لقد حالت واجبات عملهم اليومى بينهم وبين الذهاب الى المسارح وحضور الحفلات الموسيقية . وكان من الممكن أن يأخذوا أى كلام تافه أو غير مفهوم على أنه نقد فني . ولقد وضعت الاذاعة حدا لهذا .

وبدا فى الحال أننى قد استخدمت كلمة «موسيقي» بالمفهوم الأفلاطوني، حيث أننى كنت أكتب عن كل ما أود الكتابة عنه . ولقد حرصت أول ماحرصت على أن يكون كورنو باسيتو مسليا . ثانيا استخدمت معرفتنى بالموسيقى ودرايتى بالاقتصاد السياسى . ولم يكن أحد يشك فى أننى على دراية بأيهما . كأساس متين لنقد أصيل أتناول به شطحات باستيو وطيشه .

وأخيرا، بعيدا كل البعد عن أن يتفوق على أحد، تفوقت أنا على ت.ب . الذى أصبحت مقالاته لاتتناسب أبدا وروح العصر بعد أن سبقها وتقدم عليها عمود باسيتو .



[١٦]

الي فرانك هاريس عن الجنس في تاريخ السيرة

أولا، ضع نصب عينيك أيها المؤرخ الذي استحوذ الجنس علي تفكيره، انك لن تستطيع ان تعرف شيئا عمن تؤرخ لهم عن طريق استقصاء الدور الذي يلعبه الجنس فى حياتهم. أن العلاقة الجنسية ليست علاقة شخصية، فمن الممكن أن تسور وتتم فى نشوة بين اشخاص قد لايطيق أحدهم الآخر لمدة يوم واحد لو قامت بينهم أية علاقة أخرى ولو أخبرتك بكل ماتمتعت به من أمثال هذه التجارب المثيرة مازاد هذا فى معرفتك عنى شيئا. لن تعرف الا ماعرفته من قبل أننى بشر. ابعد عن ذهنك أى شكوك قد تساورك فيما يختص بمقدرتى الجنسية: لم أكن عنينا ولم تنقصنى الخصوبة ولم أكن مصابا بشذوذ جنسي. كنت حساسا سريع الاستجابة، رغم أننى لم أبلغ حد الاستهتار والعبث.

كما أننى لم أكن مصابا اطلاقا بعقدة الخطيئة الأولى (هذا هو مفهومى لها). فلم أكن لأربط أبدا بين الإثم والجنس، كما أنه لم تساورنى أية شكوك أو أى ندم أو تأنيب ضمير فيما يختص باثارة المتاعب للنساء أو بتدييث الأصدقاء. كما أننى أرى أن الطهر عاطفة، تماما كما أرى أن الذكاء عاطفة. لكن موقف سانت بول من الجنس كان يمثل لى دائما حالة من الحالات المرضية. ان التجربة الجنسية تبدو رغبة طبيعية واشباعها يعتبر تكملة للتجربة الانسانية التى لاغنى عنها فى حالة الابداع الفني. لم أكن أميل الى العذراوات، لكننى كنت افضل النساء المكتملات النضج اللائى يعرفن معنى مايفعلن.

لقد أصابتك الدهشة واعتراك عدم التصديق عندما أخبرتك أن تجربتى الأولى لم تحدث الا بعد أن بلغت التاسعة والعشرين لكنك تقع فى خطأ كبير لو اعتقدت أن حياتى الجنسية تبدأ منذ هذا التاريخ. لاتسئ فهم هذا: لقد كنت عفيفا تماما، باستثناء لحظات الغلمة التى كانت نادرا ماتحدث لا أراديا فى عالم الخيال. أما عن موقفى بين أوسكار وايلد الذى يحدد السادسة عشر كبداية للجنس وروسو الذى أعلن أن دمه اشتعل بالجنس منذ لحظة ميلاده، فان تجربتى الشخصية تؤكد ماقله روسو وتدخض رأى وايلد. وتماما كما أننى لا أستطيع أن أتذكر متى لم أستطيع القراءة والكتابة، فأنا لاأستطيع أن أتذكر متى لم أستخدم خيالى فى تصوير النساء فى أحلام اليقظة.

أرى أنه من الواجب على الشباب أن يتعبدوا فى محراب الربة فينوس كي تحفظهم أطهارا. وهذا مايجعل الفن مهما غاية الأهمية. لقد تعمقت منذ طفولتى فى الاوبرا الرومانسية وعرفت كل العصور والتماثيل الأغريقية القديمة الموجودة فى معرض أيرلندا القومي. قرأت بيرون وكل ما استطعت أن أحصل من قصص رومانسي. كما جعلنى دوماس الأب أحس بالتاريخ الفرنسى وكأنه احدى الأوبرات. وكنت أتمتع وأنا أطل من كوخنا فوق تل دوكى بمنظر ساحر للبحر والسماء والجبل. لقد اتخمت بالمن وكانت الربة فينوس كريمة فى عطائها.

وبالرغم من أن الربة فينوس تستطيع انقاذنا من الانحرافات المبكرة، وتمكننا من أن نطيل عذريتنا الجسدية بعد بزوغ فترة المراهقة، الا أن المشكلة هى أن باستطاعتها أيضا أن تعقمنا وذلك بأن تحبونا بغرام خيالى لاتسعه الا آفاق السماء ويبلغ سحره درجة تفسد معها علاقتنا بالنساء والرجال فى عالم الواقع. وقد يقودنا الأفراط فى عشق الجمال واشتهائه الى حياة بلازواج. وقد ينتهى بنا المطاف كرهبان أو قديسين أو عجائز بلا زوجات أو عوانس، ذلك لأننا لانملك مقدرة أبطال العشق الاسطوريين. ان قصائد العشق التى نكتبها لاتثير سوى الاحساس بالضيق فى نفوس أولئك الذين لايعرفون من الغريزة الا

ماهو مألوف والذين يدركون فى الحال أننا لانحب سوى أطيافنا وأننا نتظاهر فقط بتصويرهم على أنهم مخلوقات أسمى وأفضل، وبالكتابة عنهم بطريقة تبعد بهم كل البعد عن الحقيقة وعن كل مايرغبون فيه أو يأملوا أن يكونوه .

انك تعرف الآن كيف عشت عذريا عفيفا ـ لكن فى حالة غزل دائم ـ حتى بلغت التاسعة والعشرين، وعندها هربت من أول فرصة سنحت لي ، ذلك لأنني كنت أريد أن أحب دون أن يمتلكنى أحد ودون أن أفقد حريتى الارانوسية الكاملة . لكن حياتى لم تخل أبد من امرأة خلال الأربعة عشر عاما التى سبقت زواجى وأنا فى الثالثة والأربعين . ولقد تمرست بكل التجارب وتعلمت منهما كل مايمكن تعلمه . لم أكن أدفع للنساء فلم يكن لدى فائض من النقود، ولم أكن أكسب من المال سوى مايكفى لسد الرمق ودفع ايجار حجرة بالطابق الثاني . أما بقية ما أكسبه فلم يكن نقودا، بل كان حرية : الحرية فى أن أنادى بالاشتراكية . ولقد صادفت الكثير من العاهرات، لكنى لم أجد فى نفسى أى ميل اليهن . لقد تعودت ـ بعد أن استطعت ان أرتدى ماينا سبنى من ثياب ـ أن تفتتن النساء بي . لم أطارد النساء : كن يطاردنني .

هنا أقول لك ثانية لاتتسرع فى الوصول الى استنتاجات فكل من طاردننى لم يكن الجنس هدفهن . وبعضهن كن سعيدات فى زواجهن وكن يدركن أن الجنس مستبعد فيما بيننا . كن يردن رفاقا ـ كثرة من الرفاق . وبعضهن كن مستعدات لشراء الصداقة باللذة بعد أن علمتهن التجارب أن الرجال يفضلن المرأة هكذا . وبعضهن كن فاتنات وغير محتملات مطلقا كزوجات . لم تكن هناك حالتان متشابهتان . وكما يرى لنجفيلو فان قول وليم موريس :« كلهن سواء فى المذاق » لايعبر عن الحقيقة .

لم أنخدع يوما بالجنس كأساس لروابط وثيقة أو علاقات دائمة . ولم أحلم بالزواج وسيلة اليه . كنت أفضل كل شئ عليه، ولم أرفض مطلقا، أو أرجئ ارتباطا للحديث عن الاشتراكية كى أتمتع بأمسية غرامية . ان أهمية التجربة الجنسية تكمن فى مقدرتها على انتاج فيضان من العاطفة السامية

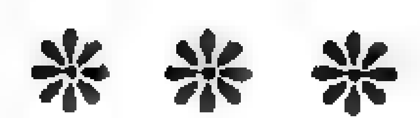
والامتاع الذى يمدنى ـ مهما كان مؤقتا ـ بنشوة قد تصبح يوما ما حالة طبيعية من حالات النشاط الفكري.

لم أستطع أن أكسب مايعينني على الزواج دون أن أبدو وكأنني أتزوج من أجل المال الا بعد أن تخطيت الأربعين. كما أن زوجتى - وهى فى نفس السن ـ كانت بعيدة كل البعد عن التفكير فى أنها قد دفعت الى الزواج بسبب الحرمان من الجنس. وكزوج وزوجة قامت بيننا علاقة لامجال فيها للجنس. ولقد وضع الزواج حدا لما ألفه كل منا من مغازلات وملاطفات ومطاردات، وحتى تلك لم يتبق منها سوى ذكريات مالم يكتمل.

لاتنس ان كل الزيجات مختلفات. وأن الزواج بين الشباب ومايتبعه من انجاب يجب الا يقاس بالمشاركة بين أناس متوسطى الأعمار وبلا أطفال ذلك لأنهم تخطوا المرحلة التى يمكن فيها للعروس أن تضع طفلها الأول دون أن تعرض حياتها للخطر.

وهكذا . الآن :لاقصص رومانسي.

وفوق كل شئ: لاصور داعرة.



[١٧]

هذا ماكان علي فرانك أن يفعله

كان المرحوم فرانك هاريس شخصية مرموقة في القسم الأدبي بمجلة «لندن» في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر. وكرئيس تحرير لمجلة «فورتنيتلي ريفيو» وماتلاها من مجلات وعلى الأخص «ستر داى رفيو»، كان يحيط نفسه بكوكبه من اللامعين اختارهم بشجاعة وحكمة نادرة. وكنت بين من اختارهم من كتاب.

وتتضمن أعماله مجموعة من القصص القصيرة من النوع الذى روجت له كتابات دى موباسان، وتاريخ لحياة أوسكار وايلد، وكتاب عن شكسبير، (وفيما بعد) تأريخ صريح لحياته هو نفسه، وسلسلة حادة لاذعة نشرت تحت عنوان «صور معاصرة».

وفي احدى هذه الصور، ويفهم منها انها صورة لي، لم يكن حادا ولا لاذعا، ذلك لأنه عندما أقدم على الكتابة عني تملكته الحيرة والعجز لاحساسه بأنه مدين لى بسبب اخلاصى لصلتنا القديمة فى فترة فقد فيها نجاحه وشعبيته، وانتهت به أخيرا الى أن يقضى بقية حياته فى المنفي. وكانت النتيجة ثناء مخلصا يمتلئ بالتقدير والاعتراف بالجميل، مما جعلنى أضحك. وعلى ذلك فقد أمسكت بقلمى وأرسلت اليه بالسطور التالية كمثل لما كان يجب عليه أن يفعله فى تصويره لي.

ولقد نشرها هاريس فى مجلده الأخير من «صور معاصرة» لكنى أعتقد أنه لم يقرأها على وجه الاطلاق. انه لم يعرف شيئا عن مجرى حياتى فى الفترة التى تلت أيام عملنا سويا فى «سترداى رفيو». وقبل موته طلب منه ناشر أمريكى أن يكتب سيرة حياتي، ودفعته متطلبات الحياة الى محاولة يائسة

للقيام بهذا العمل، لكن جانبه الصواب في الكثير من ظنونه وتلفيقاته. ولقد وجدت أنه من الضروري. بعد موته. أن أعيد كتابة الكتاب على أساس من الحقيقة. بعد موته. أن أعيد كتابة الكتاب على أساس من الحقيقة حتى يصبح نشره ممكنا. وهكذا قدمت بكل جدية ما أقدمه في السطور التالية بطريقة مازحة.

لقد انتهزت هذه الفرصة لأضيف بعض الجمل التي لم يكن من الممكن أن يكتبها الاشبح هاريس فقط، ذلك لأنها تذكر ملابسات حدثت بعد وفاته.

ولقد مكنتني الكتابة عن نفسي بطريقة موضوعية (الطريقة التي ألفتها) من أن أقول أشياء لم يكن من الممكن أن أقولها بلباقة من جهة النظر الذاتية، لكنها ترغمني على أن أضيف أنه لامجال للزلل أو المخادعة:

قبل أن أحاول ضم برنارد شو الى مجموعتي «صور معاصرة»، أجد أنه لزاما علي أن اعترف مقدما بفضائله الرائعة وأعلن في الحال دون أي مماحكة أن شو رجل بلغ من الكمال أعلى درجاته. واعترف أنه في كل خلاف معي أو مع أي انسان آخر، كان دائما على حق وسيظل دائما على حق. أنني أدرك أن العادة الشائعة في تناوله بالسباب لاتدل ـ ان دلت على شئ ـ الا على جهل وغباء أصحابها. كما أن الادعاء بعدم جدوى التعامل معه بطريقة جدية، ماهو الا تغطية سخيفة تخفي وراءها تقهقرا فوريا واحجاما عن ملاقاته وجها لوجه. ولو كان باستطاعتي أن أقدم أي اعتراف آخر أو أي بينة أخرى لقدمتها مع اعتذاري عن عدم نشرها من قبل. ولن أتردد لحظة في أن أقول أن شو هو أعظم من عاش من الرجال، لو ساعد هذا على بسط الأمور. ان كل الاتهامات التي تثار ضده تنهار اذا ما تعمقنا في بحثها. ان كل نبوءاته تتحقق، وكل شخصياته الخيالية تبعث فيها الحياة خلال جيل واحد. يعتريني احساس ـ حتى وأنا أكتب الآن ـ بأنني لا أقدره وأنني ذمام غير مخلص وناكر للجميل. وكل ماأستطيع قوله هو أن أكرر أنه اذا ما فاتني شئ، فانه من الواجب أن يلفت

باستطاعتى على الأقل أن أشهد أنه يفضل أى رجل آخر فى تناوله لأى شيئ.

سأحكى بعض الطرائف عن شو. قال عنه أوسكار وايلد :

«لايعاديه فى الدنيا أحد، ولايحبه من أصدقائه أحد».

وذات مرة أثناء حفلة عشاء أقامتها جمعية المسرح كان على شو أن يحيي النقاد المسرحيين. وكان على ماكس بيربوم أن يرد التحية. وقبل بداية الحديث ذهب ماكس الى شو وقال: «ألن تقول انك أنت نفسك ناقد؟» وقال شو: «إننى لا أعرف ما ساقول لكن من الممكن أن أقول ذلك فى عرض الحديث». وقال ماكس: «عدنى بانك سوف تفعل ذلك». وأجاب شو: «سأفعل مايرضيك»، وقال ذلك بالفعل. وبعدها بدأ ماكس حديثه هكذا: «التحقت مرة بمدرسة تعود المدرس فيها أن يقول: تذكروا ياأولاد انتى واحد منكم». وانفجر الحاضرون فى عاصفة من الضحك وفرت على ماكس مهمة التوضيح.

قال روبرت ليند عن مفهوم الحرب لبرنارد شو، انه بالرغم من عدم استطاعة أى شخص أن يقدم اعتراضا معقولا عليه الا أن الكتابة عن الحرب منذ اللحظة التى ظهر فيها تصور الحرب على أنها حرب بين الحلفاء من جانب وبين ألمانيا والنمسا وتركيا وبرنارد شو من جانب آخر.

وعندما خاض شو كتقدمى معركة الحصول على مقعد فى انتخابات مجلس مقاطعة لندن، بعد ست سنوات من العمل التقدمى المضنى فى المجلس المحلى. وقد كان له فضل السبق فى المناداة بالتقدمية الذاتية - تخلى الجميع عنه باستثناء القلة القليلة من الأحرار ودعاة الاعتدال فى معاقرة الخمر. لكنه هزم أيضا لأن أكبر الصحف التقدمية دعت علانية لهزيمته كأفضل وسيلة للتخلص منه. ولم يرشحه بالاضافة لمن سبق ذكرهم سوى أولئك الذين لم يخوضوا مطلقا تجربة الادلاء بأصواتهم من قبل. ولقد ثبت ذلك من الزيادة التى طرأت على جدول الانتخابات التالية التى فاز فيها الممثل المحبوب جورج الإسكندر.

مطلقا تجربة الادلاء بأصواتهم من قبل. ولقد ثبت ذلك من الزيادة التى طرأت على جدول الانتخابات التالية التى فاز فيها المثل المحبوب جورج الإسكندر.

هذه هى الأشياء التى تحدث له فى لحظات حياته العادية عندما لايعارض ولايصطرع مع تيار الرأى العام. وكما يحدث دائما عندما تسنح الفرصة للنيل منه. عندما يعلن عن بعض الحقائق البغيضة. فإن العديد من الأشخاص الذين لم يكونوا يجرؤن على مجاهرته بالعداء يعتقدون أن الفرصة قد سنحت لهم أخيرا كى يصبوا عليه جام غضب عنيف مرير. وتكون النتيجة أن كل من لم يقابل شو يعتقد أنه رجل سئ المظهر جاف السلوك، كريه الشخصية. إن شو يدرك ذلك ويقول:« دائما ما أثير دهشة الغرباء بلطفى ورقتي، ذلك لأنهم يتوقعون أن يرونني على درجة من السوء لم يبلغها بشر. وما على فى هذه الحالة الا أن أكون مهذبا بطريقة عادية كى أبدو لهم على قدر كبير من الجاذبية».

ان أى تصوير معاصر صادق لا يمكن أن يتجاهل هذه القوة فى اثارة العداء الشرس أو أن يقول بعدم وجود أسباب واضحة لها. لقد قيل ان شو يضايق الناس لأنه يقف دائما على رأسه ويدعى أن الاسود أبيض وان الابيض أسود. لكن البلهاء فقط هم الذين يقولون بهذا الرأى أو يوافقون عليه. وشهرة كشهرة شو لايمكن ان يكسبها الرجال بمجرد السخرية وآثارة العدوات. ان مايحير حقا هو أن شو يضايقنا بحدة عندما يقف على قدميه ويقول لنا ان الاسود اسود وأن الابيض أبيض. وبذلك يضع علينا لذة جنوحنا الى الاعتراض.

ومما يثير الجنون أن تجد نفسك مرغما على الأخذ برأى رجل يرفضه وجودك كله، لا لأنه يتفوق عليك فى التعبير عن وجهة نظرك، ولكن لأنك لاتستطيع تحمل أن يقاسمك أعمق معتقداتك رجل ترى أنه بشع فاسد الطبع. وتبدو هذه الحالة كما لو عرض عليك أحدهم ان يصحبك بعض الطريق لأنك تسير تجاه بيته، وأنت تعرف أن ذلك البيت هو الهاوية.

شخصية، ما يثير ثائرة أى مفكر على قدر معقول من الثقافة الحديثة. وهو رجل جدير بالثقة فيما يختص بأى عمل من أعمال اللجان: رجل لبق وحذر، رأس الجمعية الفابية لمدة سبع وعشرين عاما وابتعد بها عن المشاحنات التى تسببت فى القضاء على المنظمات الاشتراكية الأخري.

ومع ذلك فالبشاعة موجودة، اذ أن شو يعمل فى السياسة بروح رجل يساعد كليا أعرج فى القفز فوق جدار وهو يؤمن بأن هذا الجدار لايمكن تخطيه. ولقد أعلن عندما تخطى هو نفسه الأربعين من عمره أن «كل من تجاوز الأربعين يعتبر وغدا» وهو لايخفى اعتقاده بأننا قد لانتمكن من حل مشكلات الحضارة الحديثة المتشبعة، ذلك لأنها تفوق كل مقدراتنا السياسية. كما أنه لايقيم وزنا كبيرا لمجرد التجربة، اذ يرى أن مايحدد السلوك هو توقع ماستأتى به الحياة. ويذكرنا المرة تلو المرة أن عملية التطور الخلاق مازالت مستمرة وقد تأتى لحظة يباد فيها الانسان كمخلوق غريزى منحط، ليحل محله نوع جديد من الخلق الأكثر سموا ورفعة، تماما كما خلق الانسان نفسه ليكمل نقص الحيوانات الأكثر انحطاطا.

ومن المستحيل أن نستاء من هذا، لأن شو يعامل نفسه بنفس القسوة التى يعاملنا بها. انه لايقذف بنا فى عرض البحر ليبقى هو فى كبرياء فوق ظهر السفينة. انه يتعلق بنا فى حب وبكل طيب خاطر ويلقى بنفسه معنا. وحتى فى هذه الحالة لايلقى بنفسه وبنا فى أطلسى مهيب حيث نلقى حتفنا بطريقة مأساوية، ولكنه يقفز معنا فى بحر من السخرية وسط موجات من الضحك الهازئ. وهو يقوم بهذه الخدعة الغير محتملة على غير انتظار وفى لحظات يصعب توقعها!! وفى هذا المجال يقول هنرى نورمان: «لايوجد من هو أفضل من شو فى معالجته للزلل الأخلاقي». وهكذا تصبح مناجدة شو أكثر اثارة للفزع من أى هجوم يقوم به آخرون مهما بلغت درجة الإيذاء والحقد فى ذلك الهجوم. لقد اعتزم شو - اثناء أول نجاح لاقته أعمال ابسن فى لندن - أن يساعد ممثلة أمريكية مشتركة فى العرض وذلك بإجراء حديث صحفى معها، ومما أثار

دهشته أن السيدة أخبرته بكل جدية وأنفعال أنها ستطلق عليه الرصاص لو كتب عنها كلمة واحدة. قالت له: «قد تعتقد أن مثل هذه الأشياء غير ممكنة في انجلترا، لكننا في أمريكا نفكر بطريقة أخري. وسأفعل ذلك: انني أملك مسدسا جاهزا للاستعمال». وفي ثبات علق شو على كلماتها قائلا «مسدس الجنرال جبلر». لكنه أدرك مدى نفور السيدة وعدم رغبتها في أن يكتب عنها شيئا. ولم يكتب التحقيق الصحفي. ويعترف بعض أصدقائه المقربين أنهم قبل أن يتعودوا أسلوبه، كانت مجرد خطاباته الودودة، تدفعهم أحيانا الى سبه سبا مقذعا. ويحكى شو ماحدث له يوما مع أحد العلماء بفراسة الدماغ وقد قابله في بداية حياته في أحد مطاعم النباتيين وأخذ يتحدث معه. اتهم الرجل شو في الحال بأنه ملحد. وسأله شو: «لماذا؟ الا يوجد نتوء يدل على التبجيل والاحترام؟» وصاح العالم: «نتوء! إنه ثقب لانتوء». واذا كان في سلوك شو مايثير الاستياء فإن باستطاعة الانسان على الأقل أن يلكمه في رأسه. لكن اشفاقه على قصورك وقصوره هو نفسه يتميز بالعطف وبمراعاة غير عادية لما أنت أهل له من احترام كامل، مما يجعلك تشعر تجاهه بالعجز: لايوجد أى مبرر للشكوي، أو أى اتهام، أو أى عذر لاختطاف سكين وغرسه في أمعائه.

كنت أنا - فرانك هاريس - رئيسا لتحرير «فورتنيتلي رفيو» عندما قابلت شو لأول مرة بشأن مقالة. وبدا أن اهتمامه بي يفوق بكثير اهتمامه بالمقالة. ولكي لا أتظاهر بتواضع زائف. أقول انني كنت بالتأكيد أكثر استثارة للانتباه من المقالة ذاتها. ولم أكن بالطبع على استعداد للشجار مع شو لأنه أظهر لي ذلك. انه يملك المقدرة على اجتذابك بسرعة وسهولة وبطريقة مرضية. ولقد وجدت نفسي بعد خمس دقائق من لقائي به أشرح كيف توعكت صحتي عندما اندفعت بسرعة هائلة في قارب فوق مياه النهر مما أصابني بالإعياء. ولقد استمع الي بنفس التعاطف الذى يصغى به الى طبيبي الخاص وأنا أقص عليه هذا الحدث السئ، ثم وجه الي بعض الأسئلة عن مدى رعايتي لنفس. وكان أحد أسئلته: «هل تشرب الخمر؟» وكنت في مستوى الموقف. لم تهتز مني شعرة واحدة وأنا أؤكد له أنه من الصعب الشفاء من هذا المرض. وأدركت

فجأة أنني أتوقع دائما أن يدعى الآخرون أنهم لايعرفون شيئا عن ادمانى للخمر. وأنني أواجه رجلا لايقول بمثل مايقولون. كان سؤاله شديد الشبة بتلك الأسئلة الموجودة فى كتاب بتلر اروين وهى أسئلة لايستصيغها الضعف الانساني. فى مسرحية شو مداولة كابتن براسبوند، يقدم الكابتن ضابطه الاول بهذه الكلمات (أو مايقاربها): «هذا هو أعظم وغد وأعظم لص واعظم أفاق على الشاطئ الغربي» ويرد الضابط على ذلك بقوله: «اسمع ياكابتن: اذا أردت أن تظهر تواضعك فليكن ذلك على حسابك أنت، لاعلى حسابى أنا». ان شو يظهر تواضعه على حساب ذاته ويفضح نفسه بطريقة لاتسمح له أخلاقه الطيبة أن يفضح بها أصدقاءه. وهذه الحقيقة تثير فى نفوس ضحايا سلوك شو احساسا بعدم الرضا، انها تسلبهم لذة الانتقام وترغمهم على أن يقابلوا سلوكه الطيب بالمثل وهم يتميزون ضيقا وغضبا.

ومن الصعب أن نضع فى مصاف المغرورين رجلا يفضح نفسه بزلاقة لسانه الى حد أن يصبح مثارا للسخرية. لكن كل أصدقاء شو يتفقون على أنه مغرور بطريقة مضحكة. لكنه حتى فى هذه النقطة يجعلنا نرتبك ونتردد فى اصدار حكم عليه، عندما يشاركنا بالاطناب فى الحديث عن عظمته الفكرية، وهو يعلن أنه يسلك هذا السلوك لأن الناس يحبون منه ذلك. وهو على حق تماما عندما يقول انهم يحبون «سيرانو» ويكرهون السعال المتواضع للشعراء الأقل شهرة. ان أولئك الذين يمتدحون كتب شو يذهلهم حماسه وهو يشاركهم فى تمجيد ذاته. ولذلك فهم فى حاجة الى يقظة كاملة حتى لاتثيرهم كلماته وترغمهم على التراجع وسحب أغلب ما قالوه. ويصعب علينا نتيجة لهذا التصرف أن نقول بما وراءه من تواضع حقيقي. ان شو نفسه ينكر أنه مغرور: «لايمكن لأى انسان أن يكون مغرورا لو أنه قضى حياته مثلما قضيت حياتى فى محاولة لم تنجح أبدا للعزف على البيانو. وعندما طلبت منه أن يعدد لى فضائله ومزاياه ومآثره كى أوفيه حقه بعدم نسيان أى منها. أجابني: «هذا غير ضروري. انها جميعا فى واجهة العرض».

ولايلعب شو دور الانسان المتواضع الا فيما يتعلق بالفنون التى تعتبر منافسا خطيرا لأدب. انه لم يدع أبدا أنه أفضل من شكسبير، رغم ادعائه أنه خليفته. ويجب مراعاة ان هناك علامة استفهام بعد هذه العبارة التى عنون بها احدى مقدماته. ويجيب هو نفسه على السؤال بالنفى عندما يقول: ان شكسبير فى الدراما مثل موزار فى الاوبرا ومايكل انجلوا فى التصوير لقد وصل الى قمة فنه. ولايستطيع أحد أن يتفوق على شكسبير بالرغم من وجود وجهات نظر فى الشخصية والحياة لم تكن لتخطر له على بال.

وبالرغم من ذلك فانا مقتنع تماما ان شو لايمانع فى أن تقارن مسرحياته بمسرحيات شكسبير، كما قبل تيرنر أن تعلق صورة بجانب صور كلود. ورغم ذلك فعندما دعى لاحدى حفلات العشاء التى أقيمت فى باريس تكريما لرودين كتب يقول أنه قد تشرف بالجلوس أمام المثال رودين وأنه بذلك قد ضمن لنفسه مكانا فى القواميس المعنية بالسير ولمدة ألف سنة قادمة على أنه « شو، برنارد: موضوعا لتمثال نصفى من صنع رودين: ولولا ذلك لابتلعه النسيان». ولقد عزف على نفس النغمة وهو يهدى رودين نسخة من أعمال تشوسر عندما وجد أن رودين، رغم أنه فنان فذ فى مجال النحت، لايملك فى مكتبته سوى مجموعة من المجلدات الرخيصة التى تعد تجاريا للاهداء. وفى نسخة تشوسر، كتب شو هذه الكلمات: «لقد رأيت أستاذين يعملان: موريس الذى أخرج هذا الكتاب، والآخر هو رودين العظيم الذى صور رأسى بالصلصال. اننى أعطى الكتاب لرودين واضعا اسمى فى أحد أركان المحراب الذى ستباركه أعمالهما عندما تتحول أعمالى الى تراب».

ويتبع نفس الأسلوب فيما كتبه على قاعدة التمثال الذى صنعته له ليدى كينيث وهو موجود الآن فى متحف بلدية بورتموث: لاتبك على جورج برنارد العجوز: لقد مات. وكل أصدقائه يصيحون: «حدث طيب الى اقصى حد!» رغم أنهم يرفعون رأس جورج المبجلة عاليا لتطاول أعلى الرؤوس. وفى مثابرة انكبت كاتلين طويلا على عمل صورة منها. وعندها قال الرب «ماهكذا

يخلق العمل العظيم. كفى عن المحاكاة ولتكن روحك هى الدليل. انحتى له تمثالا يقربه من الخلود كى يشاركك خلودك عندما تندثر أعماله كلها فى جب النسيان ».

وبعدها طلبت منه جريدة « ايفنج نيوز » أن يكتب الكلمات التى ستنقش على ضريحه، فما كان منه استجابة لهذا الطلب الا أن رسم شاهد قبر غطاه العشب وكتب عليه السطور التالية: هنا يرقد.

برنارد شو

من كان بحق الشيطان؟

والآن أعترف بأننى لست مقتنعا بكل هذه الأدلة التى تظهر تواضع شو، كما أننى لست متأكدا من أنها ليست آخر لمسات شو الفنية اظهارا لعظمته، اذ ما أصل التمثال الذى قام بصنعه رودين؟ لم يكن رودين يعرف شيئا عن شو، لقد رفض فى البداية أن يقوم بهذا العمل. ونتيجة لهذا الرفض كتبت مسز شو الى رودين معبرة عن رغبتها فى أن يكون لديها تذكارا لزوجها وأضافت أن زوجها قد أعلن أن الأجيال التالية كلها ستتهم أى معاصر لرودين بالجهل لو سمح لأى شخص آخر غير رودين أن يقيم له تمثالا. ولقد تزحزح رودين عن رفضه، عندما علم أنه يتعامل مع رجل يقدره حق قدره. وبعد ذلك تحققت مسز شو من الأجر الذى يتقاضاه رودين ثمنا للتمثال النصفى وذلك عن طريق « ريلكا » الشاعر النمساوى الذى كان يعمل حينذاك سكرتيرا لردين. وفى الحال أودعت النقود (الف جنيه) لحساب رودين مع احاطته علما بان هذا المبلغ لن يجبره على شئ، فليصنع التمثال أو لايصنعه، وليبدأه ويتركه حسب رغبته ومشيئته. باختصار عليه أن يعتبر المبلغ مجرد إسهام، يعبر عن التقدير لعمله ككل ويظل سيد الموقف تماما. وكانت النتيجة بالطبع أن أرسل رودين الى شو يطلب منه الحضور الى باريس فى الحال. واعتبره وزوجته زوارا دائمين

بفيللته في ميودن، ثم أخذ يعمل يوميا وبانتظام لمدة شهر حتى انتهى من صنع التمثال. ولقد أعطى شو قوالب للتمثال زيادة على ماهو متفق عليه.

وهنا نرى شو دبلوماسيا لبقا في مسايرته للأخرين، وناقدا فنيا نافذ البصيرة. أنا لا أحاول الايحاء أبدا بأن أحاسيسه كانت غير صادقة. ولو كان الأمر كذلك لامتنع رودين عن الإقدام على عمل أى شئ. ولكن ألا يتسم هذا العمل بشئ من الغرور؟ هل من عادة شخص شديد الانشغال كشو أن يترك عمله ويذهب الى باريس كي يجلس كأى موديل محترف ولمدة شهر كامل، الا اذا كان يعتقد أن تمثاله يبلغ نفس أهمية تماثيل أفلاطون التي تعتبر الآن ثروة بالنسبة للمتاحف التي تقتنيها؟

ان شو ممثل عات دائم التمثيل، وهو يستخدم مهارته تلك عن عمد فى حياته الاجتماعية كما يستخدمها فى عمله عند اخراج مسرحياته وهو لاينكر هذا، بل يقول: «ان ج.ب.شو. ليس شخصاً حقيقياً. إنه أسطورة خلقتها بنفسي: وضع ومكانة إجتماعية. أما شو الحقيقى فلايشبهه أبدا».

وهذا مايقوله الآن كل معارفه عن التمثال الذى صنعه رودين. يقولون إنه لايشبهه أبدا. لكن شو يؤكد أن تمثال رودين هو التمثال الوحيد الذى يصوره على حقيقته. وعندما بدأ رودين عمله فى الاستوديو عبرت له مسز شو عن شكواها من أن كل الفنانين ورسامى الكاريكاتير وحتى المصورين دائما مايهدفون الى إبراز شو كما تخيلوه فى صورة شيطانية، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر إليه. وأجابها رودين: «إننى لا أعرف شيئا عن شهرة مستر شو، لكنى سأعطيك ما أراه أمامي». ويؤكد شو أن رودين وفى بوعده. ولقد أعلن بول تربتسكوى عندما رأى التمثال أن العينين تفتقدان الحياة، وبعد ثلاث ساعات من العمل المتواصل فى حماس كاد يصل الى حد الجنون، انتهى من صنع أول تمثال نصفى يقيمه لشو (موجود حالياً فى أمريكا). وهو عمل رائع لو أخذ على أنه اظهار للبراعة والقدرة لكنه رغم الأرستقراطية التى تميزه لايخلو من لمحة شيطانية. ولقد أحب شو تربتسكوى وأعجب بالتمثال، لكن

زوجته رفضته كما رفضت الصورة الغريبة التى رسمها نفيل ليتون والتى جاءت طبقاً للفكرة التى إقترحها جرانفيل باركر عندما قال أن صورة البابا (الطاهر) التى رسمها فيلاسكوى ماهى الا تصوير رائع لشو. وبناء على ذلك قام ليتون بتصوير شو فى ثياب ووضع البابا. وبالرغم من أن الصورة تظهر ماقد يصبح عليه شو لو اعتلى كرسى البابوية، إلا أنه من المستحيل على أى باحث آثار أن يتحقق من أن البابا برنارد هو نفس الشخص الذى كان موضوعا لتمثال رودين.

وحتى صور شو الثلاث التى رسمها أجستس جون لايوجد بينها وبين تمثال رودين أى وجه من أوجه الشبه. لقد أظهر جون ثقة شو وقوته الخطابية بكل مافيهما من عمق، لكنه فى الواقع عبر عنهما بأسلوب يفوق الواقع. ويقول شو وهو يرى الصورة لأصدقائه: «هذا هو أنا دون أى تحوير». وفى الصورة التى رسمها دى سميث يبدو شو هادئا رقيقا متقدما فى السن ويحب شو مافيها من شبه بأبيه. أما التمثال الذى أقامته ليدى سكوت فيتميز بالود والبساطة، والتمثال النصفى الذى أقامته ليدى كنيت (نفس السيدة)، موضوع بجانب تمثال شكسبير فى كنيسة سترانفورد. ويبلغ التمثال الذى صنعه سيجموند ستروبل نفس مرتبة التمثالين اللذين صنعهما رودين وتربتسكوي، ولقد صنع تربتسكوى أخيراً تمثالاً كاملاً بالحجم الطبيعى لشو وهو فوق منصة الخطابة. وهذا التمثال البرونزى اللطيف موجود حاليا فى معرض أيرلندا القومى الذى يضم أيضا صورة شو التى رسمها جون توليز وهى صورة عادية، لكنها ممتلئة بالحياة لدرجة أن مسز شو اعتقدت وهى تنظر إليها أنها تنظر الى شو نفسه. وكان من الصعب إرضاء مسز شو فيما يختص بصور زوجها. قالت لجورج برنارد شو عن الصورة التى رسمتها لورا نايت: «لقد أعطتك لورا كل ماتملكه من إخلاص وصدق، لكنك دائم التمثيل». وعندما رأت صورة للتمثال الشهير (آخر ماأقيم لشو) الذى صنعه ابستين، قالت: «إذا دخل ذلك الشئ هذا البيت فإننى أغادره». ولم يدخل التمثال البيت أبدا. ولقد أعجب شو بمهارة صنعته، لكنه اعترف به فقط، كتصوير لأحد أجداده

ولقد أعجب شو بمهارة صنعته، لكنه اعترف به فقط، كتصوير لأحد أجداده القدامي. أما عن التمثال الذى صنعه دافيدسن فهو رشيق، لكنه أنجز بعجلة فى صورة إجمالية.

لاعجب إذن أن يشتكي هـ. ج. ويلز من أنه لايستطيع أن يتحرك خطوة واحدة دون أن يواجهه تمثالاً لشو. ربما كان شو متواضعاً. لكنه جلس أمام أعظم أساتذة عصره لكى يصنعوا له مايذكر الناس به فهل من الممكن تبرير مثل هذا التواضع قبل مرور مالايقل عن خمسمائة عام على وفاته؟

إن شو هو أعظم المتحذلقين الأحياء. والشخصية التى إبتدعها ديكنز وجعلها تأكل الكعك فى حذلقة بالغة، لاتساوى شيئا فى هذا المجال إذا ماقورنت بشخصية شو. ويقول المراسلون فى وصف شو إنه يرتدى فلانيله بالرغم من أنه لم يرتد طوال حياته قميصا من الفلانيله، بل أنه لايرتدى قميصاً على وجه الإطلاق، إذ يرى أنه من الخطأ أن يقمط الانسان وسطه بضعف ماهو فى حاجة إليه من ملابس. وعلى ذلك فهو يلبس رداء داخليا - غير معروف لصانعى القمصان - يحتوى جسده كله. ولقد بدأت قصة القميص الفلانيله فى وقت كان من المستحيل فيه إجتماعياً على أى فرد من المشتغلين بالثقافة أو العلم أن يظهر فى مجتمعات لندن العامة دون أن يرتدى ياقة منشأة. وأصر شو على أنه من الصعب أن يتحمل أى إنسان مثقف رؤية النشا المكوى فوق جسد أوربي، فهذه الياقة المنشأة لاتناسب إلا افريقيا لامعا شديد السواد. ولقد إشترى بناء على ذلك ياقات رمادية وارتداها. وبما أن قواعد الزى قد تغيرت فإنه يرتدى الآن ياقات متعددة الألوان، لكنه دائما مايختار درجتين مختلفتين من لون واحد حتى يكون لتناسق ثيابه أفضل تأثير. إن سترته تبلغ أقصى درجات الأناقة فى تفصيلها - لكنها غير مبطنة - طبقا لما هو متبع فى وست اند. ولقد كان فيما مضى يكتب عناوين خطاباته فى الركن الأيسر من الظروف. وقد تقول أن هذا مجرد تظاهر بالتفرد. ليس الأمر كذلك على وجه الإطلاق إنه على استعداد لأن يحدثك لمدة ساعة كاملة عن جمال

وليم موريس، وكيف أن هذا النظام يترك فراغا مناسباً لإبهام رجل البريد. ولقد عاد شو الى النظام الطبيعى فى الكتابة عندما اشتكى ساعى البريد من أن الختم يمحو العنوان.

وهو يبرر رفضه استخدام الفواصل العليا وعلامات الإضافة أو الحذف أو الاختصار فى طبع كتبه، بانها تفسد مظهر الصفحة معلناً أن الكتاب المقدس ماكان ليصل ابدا الى المرتبة السامية التى وصل اليها فى عالم الأدب لو أنه قد شوه بمثل تلك العلامات البشعة. وهو يهتم بالصوتيات وطرق الاختزال، بل أن شهرته كخطيب فى أكبر القاعات ترجع الى أسلوبه المتحذلق فى نطق كل كلمة بوضوح مثير. وينادى شو بالوصل مابين النظام العشرى والاثنا عشرى وذلك بوضع عددين آحديين جديدين فى طريقتنا للعد. وهو يحب الآلات كما يحب الطفل دميته. ولقد أوشك يوما أن يشترى آلة لعد النقود دون أن يكون فى أدنى الحاجة إليها. ولقد افتتن، وهو يقترب من الستين من عمره، بدراجة بخارية ودفعه هذا الافتتان الى شراء واحدة، قادها من المصنع لمسافة سبع وسبعين ميلا، لكنه اخذ ملفا سريعا، بالقرب من باب بيته، كان من نتيجته أن انبطح أرضا. ولقد اتهم بأنه ينتمى الى مجموعة من المخبولين الذين يواظبون على الاستحمام فى البحيرة الثعبانية على مدار العام سواء كان الجو مطيرا أو مشرقا. لكن هذا مجرد إفتراء يرجع فى أساسه الى عادة شو فى أن يسبح كل صباح قبل الإفطار. صيفا كان الوقت أم شتاء. فى حمام سباحة نادى السيارات الملكي. والسبب الذى يدعيه هو أنه كأى أيرلندى يكره الاستحمام، لكنه لايستطيع أن يبدأ يومه دون أن ينعش حواسه بغطسة فى الماء البارد. وشو كما يعرف العالم أجمع، نباتى يقدر الصحة حق قدرها، لكنه يعلن أن أولئك الذين يقومون بجلائل الأعمال إنما يفعلون ذلك على حساب صحتهم التى يرهقونها الى اقصى حد، ولذا فهم يعيشون دائما على حافة الانهيار. ويرى أنه على كل من يقوم بعمل مخلص جاد أن يلزم الفراش لمدة ثمانية عشر شهرا كل أربعين عاماً كى يسترد قواه. وبإستطاعتى أن أملأ صفحة أخرى بأهواء وتقاليع شو، لكن كفي.

أما عن غزوات شو النسائية فلا وجود لها على وجه التقريب. ويقول شو، وفي قوله شئ من الحقيقة، ان أى إنسان يقوم بعمل حقيقى فى هذه الدنيا لايملك الوقت ولا المال لمطاردة طويلة وباهظة التكاليف كمطاردة النساء. وكان من الممكن أن يكون من أول المحتجين على مغالاة الجميلات من النساء وكثرة مطالبهن، وهو الموضوع الرئيسى الذى يتناوله هارلى جرانفيل باركر فى الخراب وبيت مدراس. وتاريخ شو فى هذا المجال غير معروف. حيث أنه فيما يختص بعلاقته بالنساء كتوم لايبوح. وتدل كل الشواهد على أنه زوج نموذجي ولم تثر حوله أى فضيحة أخلاقية طوال تحركاته السياسية المتعددة والتى استغرقت كل أيام شبابه. ومع ذلك فهناك نادرة شائعة تصف ممثلا ومديرا مشهوراً لأحد المسارح وهو يقول أثناء البروفة لممثلة بارعة الجمال: «لندع شو الى وجبه من لحم البقر حتى يجرى فى عروقه شئ من الدم الأحمر». وتصيح الممثلة: «أستحلفك بالله ألا تفعل. إنه بحالته الراهنة سئ بما فيه الكفاية. ولن تأمن إمرأة فى لندن على نفسها إذا ما أعطيته لحما».

وعلى أية حال فإن تعاليم شو تشد الإنتباه بطريقة أكثر مما تثيره مغامراته الشخصية لو كانت له أية مغامرات. وفى تلك التعاليم - بلا جدال - رد فعل قوى ضد ما يسميه بعشق القرن التاسع عشر. إنه ليس واحداً من هؤلاء الذين يقولون فى تعصب أن الحب هو كل شئ. وذلك لأنه يدرك مقدار ما للعفة من قوة قد يؤدى إنكارها وانقضاء عليها الى هدم أى كيان حضاري، كما أنه يصر على أن الإدراك عاطفة وعلى ان الفكرة الحديثة التى تقصر العاطفة على الجنس ما هى إلا فكرة بدائية فجة تماثل فى بدائيتها وفجاجتها فكرة القروى الذى يرى بكل بساطه ان الفن دعارة . ويشير شو الى إمكانية إزدهار الفن وتألقه فى حالة استثناء الجنس إستثناء كلياً كما حدث على سبيل المثال فى الأدب الفيكتورى الذى أبرز ديكنز. ويقارن مابين جويليو رومانو وهو مصور بلا حياء فى رسمه للصور الداعرة وبين رافائيل نفسه، ذلك الفنان الذى بلغ من الحساسية قدراً جعله ينفر من رسم العذراء المقدسة - فى دراسته لها - مجردة من ثيابها، رغم أنه لم يقدم على رسم انسان مغطى بالثياب دون أن يبدأ برسمه

أولا فى حالة عرى كامل، كما كان يجنح الى تزيين الأعمال التى تمثل الشهوة بومضات من قصة حب كيوبيد والأميرة الفاتنة، دون أن ينفر من صراحته الكاملة ودون أن يفقد فى نفس الوقت وقاره وطهارته.

ويؤكد شو أنه عندما انتقل الفن من رافائيل الى جويليو لم يعد مثيرا للإشمئزاز فقط بل أصبح أيضا أربد كئيبا، بعد أن إنهار وسقط فى الهاوية.

وهو يرفض المثلث الغرامى فى المسرح الفرنسى مستشهدا به كدليل على أن الدعارة ليست أنسب مايقدم على المسرح. ولقد كتب مسرحيات للتطهريين كي يظهر إستقلاله وعدم اعتماده على أمثال تلك الموضوعات. ويتساءل شو فى احتقار عما إذا كان من الممكن إرضاء الفحولة الحقة عن طريق القصة والصورة، ثم يعلن أن المدرسة الشهوانية فى الفن هى عزاء العاجزين.

ورغم ذلك فبعض فقرات مسرحيات تدفع الى الاعتقاد بأن الحب التخيلى يلعب دورا هاما فى الحياة المتحضرة. يقول البطل الوسيم فى إحدى المسرحيات لرجل يغار منه: «لاتصب على غيرتك: إن المنافس المتخيل هو المنافس الخطر». وعندما تتزوج السيدة التى كانت ترفض الزواج لأنها لاتستطيع تحمل رائحة التبغ وعدم أناقة الرجال، تلمح الى أن خيالها يزودها بسلسلة من المغامرات التى تجل عن الوصف. ويقول شوا أن مغامرات دون جوان، التى تعد بألف مغامرة وثلاث، لاتزيد فى حقيقتها عن علاقتين غراميتين قذرتين أو ثلاث، أما الألف الباقية فهى من وهم الخيال. ويقول أن أى محاولة لتحقيق مثل هذا الخيال لابد وأن تبوء بالفشل. ولربما قيل بالإضافة الى ذلك أن الفصل الثالث من مسرحية الإنسان والإنسان الأسمى ما كان ليكتبه الا إنسان قام فعلا بالمحاولة، وفى الفصل الثالث من هذه المسرحية أيضا منظر يتمرد فيه البطل على الزواج ويدفعه عن نفسه دون أى أمل فى الخلاص. وهذا المنظر فى صراحة تعبيره وإثارته لابد وأن يكون نتاج تجربة شخصية. ومن الممكن أن نتصور أن شكسبير كان يسخر من شخص آخر وهو يقوم بتقديم نفس الموضوع من خلال شخصية «بنديك»، ولكن «تانر» بكل تطرفه وغلوائه يعكس

شخصية المؤلف. وقد ينكر شو هذه الحقيقة. ولو أنكر ما صدقه أحد.

أما عن حملة شو على شكسبير فقد كانت غير متوقعة الى حد كبير، ذلك لأنني كنت واحداً من رؤساء التحرير القلائل في لندن الذين يؤمنون بأن شكسبير يعني الكثير. كنت متشبعا بشكسبير. ولابد أن أعلن في صراحة وبغير تردد أنه ماكان ليرد على خاطري مطلقا أن أكون رئيسا لتحرير جريدة تهاجم شكسبير بضراوة لم يسمع بها من قبل. ولقد بدت المغامرة شديدة في غرابتها لسببين: أولا، أن شو. كاتب المقالات التي تهاجم شكسبير. كان يشاركني إيماني. وثانيا، أنه لم يكن بإستطاعة أي منا أن يغير بأمانة كلمة واحدة من كلمات المقالات رغم ما أثارته حولنا من ضجة بسبب ما ارتكبناه من انتهاك لحرمة شكسبير. كانت المقالات مثيرة غاضبة، ولم يكن من الممكن حذف شئ منها أو تهذيبها أو تغييرها دون أن ينهار البناء النقدي للمقالة كلها.

وبوضوح كان يمكن تفسير ماسبق. لقد أطلق شو قذيفته الأولى على شكسبير عام ١٨٩٤. وفي عام ١٨٨٩ بدأ اجتياح ابسن للمسرح الانجليزي وفي تلك الأثناء كان شو قد انتهى من كتابة جوهر الابسنية وأخذ يقيس كل الأعمال المسرحية وغير المسرحية بمقاييس هذا النرويجي الفذ. ولم تصل الكثرة الى هذا المستوي. لكن شكسبير كان أبرز الضحايا وأكثرهم شهرة. ويقول شو في هجومه على شكسبير: «من العبث أن نتحدث الآن عن عمق شكسبير. لم يعد هناك سوى موسيقاه. وحتى تصوير الشخصيات الذي اشتهرت وتميزت به أعمال موليير وشكسبير وسكوت ودوماس الأب لم يعد سوى مجرد تقليد يبعد كل البعد عن الحقيقة. لقد عفى الزمن على شاعرنا: لم يتبق له ملمح واحد يميزه. إن هاملت يبدو في صورة عاجزة إذا ما وضع بجانب بيرجنت، واموجين لاتزيد عن مجرد دمية بجانب نورا هيلمر، وعطيل مجرد شخصية عادية من شخصيات الأوبرا الإيطالية إذا ماقورن بجوليان. وهذا الرأي صائب تماما، إذ لم يصل شكسبير الى العمق الذي وصل إليه ابسن الا في قصائده الغنائية فقط.

لم يكن شو متشبعا بابسن فقط، لكنه تشبع أيضا بفاجنر وبتهوفن وجيته. ومما يثير العجب أنه تأثر أيضاً بجون بنيان. ولم يكن الأسلوب الإنجليزى فى إكتساب المجد الأدبى عن طريق اللمحات العبقرية الخاطفة. دون تتبع عميق لمصدر الالهام. بخاف على أى ايرلندى فى عدم اتساقه ودوامه. وهذا هو نفس أسلوب شكسبير، ورسكين وتشيسترسن، الذى أشار إليه وليم موريس عندما قال: ان رسكين يستطيع ان يقول أشياء غاية فى الروعة وينساها بعد خمس دقائق. ويقول شو أن أقل ما يوصف به الأيرلنديون رغم صفاتهم الكريهة هو أنهم بلغوا مرحلة النضج. إنهم يفكرون بطريقة منتظمة: لايتركون ملعب الجولف أثناء اللعب كى يستمتعوا بجلال خاطر معين وكأنهم يستمتعون بمنظر الغروب، ثم يعودون بعد ذلك بكل جدية الى الملعب وكأنه عمل حياتهم الرئيسي. وهكذا يحتفظ شو بكبريائه القومى كأيرلندى رغم أنه صنع كل مستقبل حياته فى انجلترا، ورغم تفضيله للانجليز والاسكتلنديين كأصدقاء.

وسيلاحظ ان تصويرى لشو يمس الصميم بطريقة أكثر وفى نفس الوقت بطريقة أقل من تصويرى لأى كاتب آخر: أكثر، لأن شو يفصح للعالم بأسره عن كل مايجول بخاطره ومايعتمل فى أعماق نفسه. وأقل، لأننى لم أشترك قط مع شو فى أى عمل من أعمال اللجان، وتلك هى الطريقة الوحيدة لرؤيته كثيرا. إن شو بلاريب إنسان غير إجتماعى فهو لايزور أحداً ولايذهب إلى أى مكان إلا من أجل العمل. ولقد حثه موريس بارنج ذات مرة على أن يذهب الى حفل من النوع المألوف للعزاب فى بريطانيا، حيث يقذف الرجال بعضهم بعضا بقطع الخبز ويحكون قصصا بذيئة ويحاولون عامدين أن يعربدوا ويشاغبوا كما لو كانوا طلبة لم يتخرجوا بعد. ولم يثر سلوكهم فى نفس شو إلا إحساساً بالإحتقار القاتل لكل ماحاولوا القيام به، مما دفعه الى أن يقول لهم: «ستكون متعتنا أفضل وأكبر لو كففتم عن محاولة إصطناع البهجة والطرب». وعندما واصلوا فى عناد نهض وتركهم. وهو يشتكى من أن سلوك الرجال لايصبح لائقا إلا فى وجود النساء فقط.

ولقد قرر عند وصوله الى لندن وبعد تناوله الغداء فى نادى سافيل ألا يعمل أبدا بالأدب وألا يشارك أمثال هؤلاء الأدباء مجلسهم. ويقول شو: « ربما قضيت حياتي كلها - لو غلبني الغباء - أراقب هؤلاء الرفاق وهم يتناقلون ما ترسب في عقليات بعضهم البعض دون أن أعرف شيئا ذا قيمة من أمور العالم المحيط بي ». ولقد حاولت أن أمحو هذه الفكرة من رأسه وذلك عن طريق دعوته للغداء فى « المقهى الملكي ». لكن الدعوة لم تكن مجدية. لقد حضر مرات قليلة وذلك لإهتمامه الصرف بالمقهى والنذل والأثمان وطريقة إعداد الطعام، وبإختصار بإقتصاديات المكان. لكنه قرر أنني وهارولد فريدريك قد أكلنا الكثير من شرائح اللحم وأعلن أنه من التبذير أن ندفع ما يطلبونه في « المقهى الملكي » ثمنا لطبق المكرونة الذى تناوله والذى يمكن أن يتناوله فى أى مكان آخر بما لايزيد عن عشر بنسات. ولم تكن حقيقة أنني دفعت له ثمن ما تناوله لتغير من واقع الأمر شيئا. لقد إعترض على مبدأ التبذير سواء كانت، النقود نقودى أو نقوده.

ولقد تمنيت فى بعض الأحيان أن يسلك الآخرون نفس سلوك شو، ولكن سلوك شو يصل فى بعض الأحيان الى حد التدخل فى الشئون الخاصة بالآخرين. ومما يجعل هذا التدخل أكثر اثارة للغيظ أنه يتسم بالحكمة وحب الخير لدرجة يستحيل معها رفضه أو الاعتراض عليه. ولقد باءت بالفشل كل محاولات جذبه الى علاقة إجتماعية خالية من الأعراض. ولكى أرى شو بنفس السهولة التى أرى بها أيا من رجال الأدب فى لندن كان على أن أحضر جلسات لجانه التى لاتنتهي. لقد كانت العلاقة بيننا ككاتب ورئيس تحرير غير مجدية بالمرة من الناحية الاجتماعية، فلم يكن ليحضر الى مكتبى الا إذا وقعنا فى مشكلة قانونية، ليعلن فى أغلب الأحيان وبوضوح مثير للإعجاب أننا بلادعامة نستند إليها. انه لمن السهل أن يقترب أى إنسان من شو، لكن المحصلة النهائية هى أن أحدا لايعرفه على حقيقته.

إن فى شو حدة قاطعة يخشاها الجميع، كما أنه يملك عقلا زئبقيا ماكرا وعلى درجة كبيرة من الكفاءة مما يجعله يدرك كل ماهو حتمي ويواجهه فى

الحال مكيفا نفسه حسب ماتقتضيه الظروف . ورجل لايبكى ما افتقده ولايعطى الآخرين فرصة الهمس بما ضاع، رجل يصعب تحمله.

إن قلة قليلة منا هى التى تدرك كيف تخفف من وقع خسائرها وذلك بحجبها وراء ستار من التعاطف والأسى والمؤاساة وكذلك بالتعلق بأوهام صغيرة لكنها رغم ذلك حلوة اذ تقوم بدور المخدر فى تهدئة المشاعر. وفى هذا المجال يرفض شو مبدأ الأخذ والعطاء. عندما اشتعلت النار، أثناء مأدبة غداء، فى زوجة محبوبة لأمير هندى وحرقتها ثم حولتها الى رماد قبل أن يتمكنوا من انقاذها، واجه الأمير الموقف فى الحال وسيطر عليه عندما قال فى حزم لمن يكون حوله: «أزيلو بقايا سيدتكم وأحضروا الديك المشوي». وسلوك ذلك الأمير هو نفس سلوك شو فى طابع شرقي.

تعثر شو ذات مرة وهو يخطو على أعلى درجات سلم محطة وستمنستر التحت أرضية (مترو الانفاق)، وإنزلق على ظهره إلى أسفل درجات السلم مما أثار قلق الموجودين، لكنهم انفجروا فى موجة عارمة من الضحك عندما نهض شو بمنتهى البساطة ومضى فى طريقه كما لو كانت تلك طريقته المألوفة فى هبوط درجات السلم. ويظهر شو هذه السيطرة ـ الفائقة ـ على الذات فى مواجهة كل الظروف سواء فاته قطار أو فارقه بالموت أحد الأقربين وأعز الأعزاء. لم يتهمه أحد بأنه إبن عاق ومن الواضح أن علاقته بأمه كانت على أفضل مايكون، لكن عندما أحرق جسدها لم يستطع جرانفيل باركر، الذى اختاره شو ليكون النائح الآخر والوحيد الا أن يقول: «شو. أنت بلاريب روح مرحة»، إذ بدا لشو أن أمه كانت تنظر من فوق كتفه مبتهجة بالفرجة على رجلين يرتديان زيا يشبه زى الطهاة وهما يلتقطان قطعاً من المعدن من بين رمادها. ويلذ لشو أن يقول أن مايحتاجه المحزونون هو قليل من التفريج الذى يثير الضحك. ولهذا تبدو له الجنائز سخيفة غاية السخف.

ويستخدم شو هذه الموهبة الزئبقية لخدمة أغراضه، أنه يفضل الكثرة فى سرعة إدراكه لإقتراب الخطر أو ابتعاده عنه، مما يجعله يبدو على قدر كبير من

الشجاعة، بينما لايواجه فى الواقع أى خطر حقيقي. وهو يملك نفس الحاسة فى تقديره لقيمة النقود، إذ يعرف متى يجب إنفاقها ومتى يجب الإحتفاظ بها. وهنا أيضا يبدو وكأنه على قدر كبير من الكرم، بينما لايزيد مايفعله عن عقد صفقة رابحة. قد يدهشنا بمظاهر جرأته وشجاعته لكننا نشك فى مقدرته على مواجهة أى خطر حقيقى أو القيام بأية تضحية صادقة. أن شو بأصالة يخلو من أى إحساس بالحسد وهو يشفق على كل رجل سواه لعدم كونه جورج برنارد شو.

لقد سجل المرحوم سيسل تشسرتن فى كتاباته أنه عندما ذهب لمقابلة شو. وكان فى ذلك الحين شاباً لاقيمة له بينما بلغ شو قدرا كبيراً من الشهرة - قابله شو وعامله كما لو كان نداً يقف معه على قدم المساواة. وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن شو لايخطئ فهم أقدار الرجال وطبائعهم. وكل مايمكن التنبؤ به عنه هو فجائية الحركة والسلوك.

وهكذا فإن شو رغم سلوكه الجذاب يبدو غالباً وكأنه لايكترث بما يقول ولا بما يحس به الآخرون، وهذا يوضح السبب فى «أنه بلا أعداء، ولايحبه أحد من أصدقائه». وعبارته التى إنطلق بها قيصر «لن يعرف اليأس أبدا من لم يعرف الأمل»، عبارة جليلة مؤثرة. ولكن من منا يستطيع أن يتأكد من أن مصدر الالهام هنا ليس شيطانياً أكثر منه ربانياً؟ قارن عبارة قيصر بهذه الكلمات المعبرة عن التقوى والتى بليت من كثرة إستخدامها: «هذه هى البهجة الحقة: أن تخدم هدفا تقر بنفسك أنه هدف عظيم، وأن تستخدم كل طاقاتك وأن تكون قوة من قوى الطبيعة بدلا من أن تكون مجرد جسر ترابى تافه أنانى يضج بالاوجاع والتذمر والشكوى من أن الدنيا لم تكرس نفسها لمنحه مايرنو إليه من سعادة». والعبارة كما هو واضح تخلو من أى فكر تجديفى لكن أنصار شو يعرفون جيداً أى العبارتين أكثر تمثيلا لوجهة النظر الشفيانية.

لن أحاول الإستمرار أكثر من ذلك فى رسم الصورة. إن الكتابة عن شو

تكاد تكون ميئوسا منه، إذ قال من قبل عن نفسه كل مايمكن أن يقال: ومايقوله الآخرون عنه بعد ذلك لايثير الانتباه. لكنه ترك لى نقطة واحدة. فاتته هو وكل من أرخ له. أستطيع أن أكتب عنها، اذ لم يحاول هو أو من كتبوا عنه أن يفسروا معنى العبارة التى أطلقها عليه وايلد: « إنهم يحتجون عليه ويكرهونه كل الكراهية، ويعجبون به ويحبونه كل الحب». لقد أرسل إليه بينرو خطاباً ودياً خاصاً ختمه بعبارة «مع إعجابى ومقتي».

لقد حاولت أن أصور شخصية متناسقة (وشخصية شو متناسقة بطريقة آلية تقريبا) يمكن أن يصدر عنها أمثال تلك التأثيرات المتناقضة ولم يحاول أحد حتى الآن ان يفعل مافعلت. لقد تجاهل المدافعون عنه عنصر الكراهية، وأنكر خصومه طيب صفاته ووصموه باخطاء لاوجود لها. إننى لم اقم بأية محاولة لعمل تقييم وإصدار حكم، كما اننى لم أحاول أن ألعب دور الصديق الشهم والخل الوفي. لقد رسمت ملامح شخصية كما تبدو لي. ومع أن الرجل كما صورته يخلو من اى تشويه، إلا أنه من الممكن أن يصيبنا جميعا برعدة إذا ما قال: «تصور عالماً يقتصر الوجود فيه على أنماط من جورج برنارد شو!» هذه مجرد خدعة. فالعالم المقصور على فرد واحد، عالم لايطاق. لكنه رغم ذلك يثير شيئا ما. وأتركك لتكتشف بنفسك ذلك الشئ حيث أننى أنا نفسى لا أعرفه.

٢٤ مايو ١٩١٩.

كلمة ختام

يجب الآن أن أضع نهاية لهذه الخواطر والذكريات، فلكل شئ نهاية. لقد حاولت، كما وعدت، ألا أزعج القراء بتفصيلات مألوفة لى ولتسع وتسعين فى المائة من عامة الناس. لكنى ضمنت الكتاب مادة. رغم أنها لاتخصنى. ربما تفيد المبتدئين فى مختلف الأعمال التى امتهنتها أو أولئك الذين يؤرخون للفترة التى عشتها. لم أضف شيئا عن حياتى الزوجية لأنها معروفة للجميع ويستطيع أى كاتب سيرة أن يتحرى عنها الكثير، أكثر مما أستطيع أنا نفسى أن أتذكره. أما عن نتيجة ماكتبت وعن كونه صالحاً أو غير صالح للقراءة فهذا ما لا أستطيع أن أؤكده ذلك لأننى لا أستطيع وأنا فى هذا السن (فوق التسعين) أن أتأكد من أن أقوالى وكتاباتى ليست مجرد هذيان شيخوخة رجل ثرثار بلغ من العمر أرذله.

وعلى أية حال، فإن الجزء الأكبر من هذه الخواطر والذكريات قد كتب منذ سنين، وهذا مايشجعنى على تركه كما هو كى يأخذ فرصته فى النشر دون أن أحدث به أى تغيير.

لن أقول وداعا... فما زلت أملك من الطاقة مايمكننى من الاتيان بجديد.

* * *

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٩٦/٢٩٢٩
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-5659-23-X



الدكتور وجدى الفيشاوى

- ليسانس في الأدب الإنجليزي. آداب القاهرة.
- دكتوراة في الأدب الإنجليزي جامعة برمنجهام. إنجلترا.
- أستاذ الأدب الإنجليزي. كلية اللغات والترجمة.

أهم ما نشر له

- نقد النقد في التراجيديا الشكسبيرية: مؤلف بالإنجليزية.
- د. هـ. لورانس: دراسة نقدية: مؤلف بالإنجليزية.
- دراسات نقدية: مؤلف بالإنجليزية.
- الطيران بلا أجنحة: رواية في خمسمائة صفحة مؤلفة بالإنجليزية.
- مختارات من القصص القصيرة بالإنجليزية.
- جورج برنارد شو: حياته بقلمه. مترجم من الإنجليزية.
- قطة فوق سطح من صفيح ساخن: مسرحية مترجمة من الأدب الأمريكي.
- الحكيم والملك: مسرحية مأساوية.
- رجل لا أعرفه: مسرحية بلا بطل.
- مأساة الفرعون: مسرحية.
- الجامعة والصعود إلي الهاوية: رواية.
- لا تصلبوا المسيح: دراسة تحليلية.

تحت الطبع

- بين هازليت والعقاد: دراسة في الأدب المقارن.
- الحزن في عيون الرجال: رواية.
- بقايا لا شئ: رواية.
- محاكمة الأستاذ: مهزلة جامعية.

***